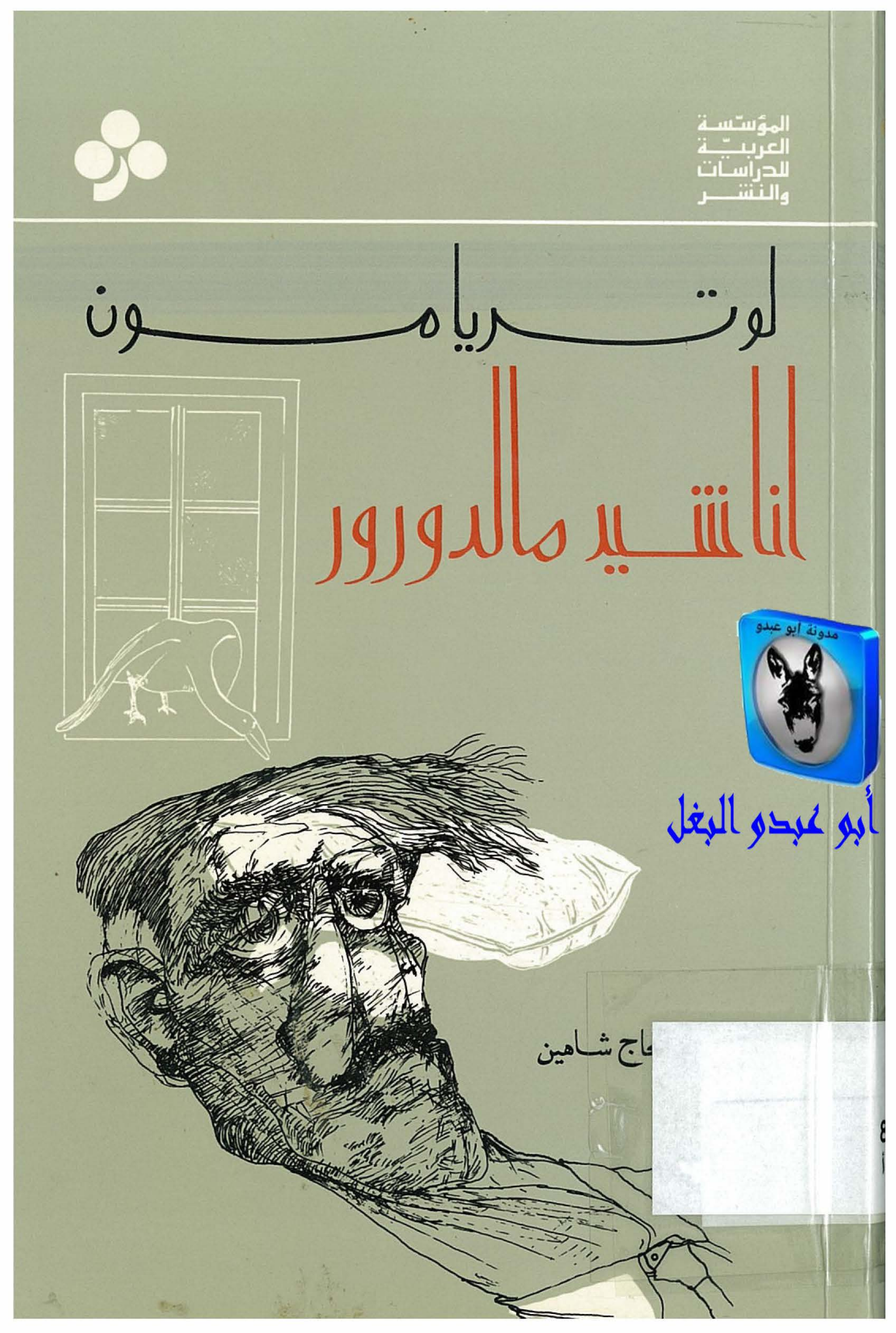


المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر
لوتريامون
أناشيد مالدورور
شاهين



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٢



لوتريامون

« ايزيدور دوكاس »

اناشيد مالدورور

ترجمة وتقديم
سمير الحاج شاهين

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مقدمة

بقلم : سمير الحاج شاهين

- ١ -

إن ايزيدور دوكاس (الذي انتحل لقب « الكونت دي لوتريامون »، المستوحى ، مع بعض التحريف ، من عنوان رواية تاريخية لاوجين سو) قد ابصر النور عام ١٨٤٦ في مونتفيديو عاصمة الاورغواي . والداه هما من مقاطعة طارب الشمالية . فأبوه فرنسوا وُلد عام ١٨٠٩ في « بازيت »، وهاجر عام ١٨٤٠، اسوة بالكثير من مواطنيه ، إلى مونتفيديو ، حيث التحق بالقنصلية العامة الفرنسية ، كموظف بادىء الأمر ، ثم ابتداءً من عام ١٨٥٦ كمستشار من الدرجة الأولى ؛ وحيث تزوج عام ١٨٤٦ سيلاستين ـ جاكيت دافيزاك ، المولودة عام ١٨٢١ ، التي كانت قد نزحت بدورها إلى الاورغواي ، والتي كان قد تعرَّف عليها سابقاً ، حين كان ، قبل اغترابه ، يمارس مهنة التعليم ، في مسقط رأسها « سارنيغه »، ما بين عامي ١٨٣٧ و١٨٣٨ .

تيتم ايزيدور باكراً ، إذ ماتت والدته سنة معموديته ، التي جرت بعد ولادته بعشرين شهراً . وهناك شُبهات غير مؤكدة في أن تكون قد انتحرت . ولقد خيمت على طفولته بكاملها اجواء المجازر والثورات ، السرقات والمجاعات ، الكوارث والأوبئة ، إذنشبت الحرب بين الاورغواي والارجنتين عام ١٨٤٦، واستمرت حتى عام ١٨٥٢ ، فحوصرت مونتفيديو عام ١٨٤٦،

وتفشى فيها الطاعون عام ١٨٥٧ ، ولعل هذا يبرر بعض الشيء تشاؤميته ، هو الذي سيكتب فيما بعد :

- « . . . إن نهاية القرن التاسع عشر ستشاهد شاعرها . . . لقد وُلد على الشواطىء الأميركية ، على مصبّ « البلاتا »، حيث شعبان متخاصمان فيما مضى ، يجهدان حالياً لأن يتجاوزا بعضهما بالتقدم المادي والخُلقي . بيونس ايرس ، ملكة الجنوب ، ومونتفيديو ، المغناج، تمدان لبعضهما يداً صديقة، عبر مياه مصبّ النهر الفضية ، لكن الحرب الأزلية نصبت سيادتها الهدّامة فوق الأرياف ، وهي تحصد بفرح ضحايا عديدة[١] . . . ».

عام ١٨٥٩ جاء ايزيدور أول مرة إلى الوطن الأم ، الذي جرى العرف أن يرسل إليه المهاجرون الفرنسيون الميسورون في الاورغواي اولادهم ، بعد المناولة الأولى ، ليتلقوا تعليمهم . ولدى وصوله ذهب دون شك إلى مسقط رأس والده « بازيت »، حيث سيستضيفه اعمامه اثناء العطلات المدرسية ؛ والتحق بثانوية « طارب »، التي مكث فيها من تشرين الأول ١٨٥٩ حتى آب ١٨٦٢ ، تلميذاً داخلياً متوسطاً ومطيعاً ؛ والتي غادرها من الصف الرابع . فلعله امضى العام الدراسي ١٨٦٢ - ١٨٦٣ في معهد خاص ، أنهى فيه الصفين الثالث والثاني في سنة واحدة . لكننا لا نملك برهاناً قاطعاً حول هذا الافتراض . إذ اننا لا نعود نلقاه إلّا في ثانوية « بو »، التي انتسب إليها من تشرين الأول ١٨٦٣ حتى آب ١٨٦٥ ؛ والتي كانت ، بقسطها المرتفع أكثر من بقية الكليات الداخلية ، معيَّنة من قِبَل وزارة التربية لاستقبال التلاميذ ، الذين تتطلب حالتهم الصحية مناخاً فائق الاعتدال . فلعل الصداعات التي كان يشكو منها هي سبب اختياره هذه المؤسسة ، المعتبرة بمثابة مستوصف ؛ كما لعلها الدافع إلى انقطاعه النهائي عن التحصيل العلمي . وبما أن اسمه لا يرد في لائحة المرشحين الحاصلين على البكالوريا ، فمن المحتمل أن لا يكون قد تقدم بنجاح إلى أي فحص ، وأن لا يكون قد سجَّل اسمه لتحضير أي ليسانس .

إننا لا نملك معلومات حول هذه الفترة الطالبية من حياته ، سوى شهادة ادلى بها عام ١٩٢٧ ، أحد رفاقه في مدرسة « بو »: بول ليسبيس ، الذي كان في الواحدة والثمانين ، والذي يصفه على الشكل التالي : شاب طويل ناحل ،

---

(١) النشيد الأول: المقطع ١٤.

محدودب قليلاً ، شاحب (وهذه نفس العيوب ، التي يقرّ بها لوتريامون في « الاناشيد »، حيث يعترف بأن وجهه لا تتوهج عليه سوى انعكاسات الجثة)، شعره طويل ، يتساقط مبعثراً فوق جبينه ، صوته مخشوشن ، سحنته ليس فيها شيء من الجاذبية (ألا يصرِّح مالدورور بأن العين لا يجب أن تكون شاهدة على البشاعة ، التي وضعها الله فيه بابتسامة حقد جبارة ؟ ألا يحدثنا عن تشوّهه الوراثي ، عن تجاعيد جبينه الخضراء المبكرة ، وعظام وجهه الهزيل النافرة ، وعيونه السوداوية المحاطة بدائرة كبيرة زرقاء ؟). لسانه ليس طلقاً ، إذإنه غالباً ما كان يتكلم بصعوبة ، واحياناً بنوع من السرعة العصبية . كما أنه كان كئيباً وصموتاً ، جفولاً ونفوراً ، وقوراً ومنطوياً على ذاته . إذ أنه كان يعدّ نفسه كائناً على حدة ، يرفض الاندماج مع رفاقه ، بل يحتقرهم ، ويطرح عليهم اسئلة غامضة ، يحارون في الاجابة عليها . حتى انهم ، أمام غرابة اطواره وافكاره واسلوبه ، واحتدام غضبه دونما سبب وجيه ، كانوا يعتبرونه روحاً خيالية حالمة ، تفتقر إلى التوازن العقلي . ولقد تشكى ، مراراً ، أمام بول ليسبيس ، من صداعات مؤلمة ، كان لها ، في تقديره هو نفسه ، تأثير على ذهنه وطبعه (ألا يتساءل لوتريامون في شعره : من إذن يكيل لي ، على رأسي ، ضربات قضيب حديد ، كمطرقة تدق على سندان ؟ ألا يبوح بأنه يحس كما لو أن جمجمته مغموسة في خوذة من الجمر المتأجج ؟) ولقد أبدى ايزيدور ، ذات يوم ، أمام زميله هذا ، عن رغبته بالاستحمام في مياه النبع ، كيما ينعش دماغه العليل (ألا يعتب مؤلف « الاناشيد » على العناية الإلهية لأنها وضعت روحه المريضة بين حدود الجنون وخواطر الهيجان ؟ ألا ينبهنا أن استدلالاته سترتطم احياناً بجلجلات الجنون ؟ ألا يفاتحنا بأن البعض يقولون أن مالدورور رازح تحت نوع من الجنون الفطري منذ ولادته ؟).

ولقد كان الاستاذ ، بحسب رواية بول ليسبيس ، يتشكى دائماً من مبالغات لوتريامون الانشائية شكلاً ومضموناً ، ولقد قرأ له ، ذات مرة ، في الصف ، على صوت عالٍ ، فرضاً كان قدراكم فيه مجازات مبهمة واشتقاقات لفظية ، واساليب بيانية تتحدى كل اصول البلاغة ، بما يشكل تحدياً موّجهاً ضد الهيئة التعليمية ، في شرع هذا المعلم ، الذي انزل بتلميذه قصاصاً مهيناً . (ولعل هذه الحادثة تبرر ما كتبه لوتريامون فيما بعد في « الاناشيد » حول ذلك الطالب الداخلي ، الذي ينظر بمواربة إلى استاذ ظالم متوحش وُلد ليضطهده ،

ليُخضعه ، خلال سنوات طويلة ، لحكمه المستبد ، وليظل له بالمرصاد صباح مساء ؛ والذي يشعر بحقد متأصل يصعد إلى رأسه ، التي توشك أن تنفجر ، يُصاب بالحمى ، ويقضي ليله مؤرقاً ، مخططاً دائماً للهرب من هذا السجن التربوي).

إن ايزيدور ، وفقاً لافادة بول ليسبيس هذا ، كان يحب التاريخ الطبيعي (وبالفعل أنه يذكر ، في نتاجه ، الحيوانات من زواحف وطيور ، من اسماك ووحوش ، بشكل لافت للنظر). ولقد شاهد ، ذات مرة ، في ملعب المدرسة ، حشرة سيتونية ، ذات احمرار صارخ ، فوقف يتأملها باعجاب شديد . ولطالما كان يسأل رصيفه هذا عن العصافير المختلفة في منطقة «البيرينه»، وخصائص طيرانها .

ثم نفقد أثر لوتريامون خلال ثلاث سنوات ، وهي فترة مهمة جداً ، بما أنها تسبق مباشرة نشر نتاجه . ولقد افسحت في المجال لكثير من التأويلات . لكن اقرب الترجيحات إلى المعقول ، هو أنه عاد إلى مونتفيديو ، حيث امضى سنتين ، رجع بعدها عام ١٨٦٧ إلى باريس ، التي من المحتمل أنه كان يقطن ، لا كتلميذ ، بل كرجل أدب ، في مسكن لائق من أحد شوارعها الانيقة . مما يحملنا على الظن أنه كان يحب اساليب البذخ والترف . إننا لا نعرف ما هي النفقة الشهرية ، التي كان يرسلها له والده ، بواسطة صاحب المصرف داراس . لكننا نعلم من الرسائل الموَّجهة من ايزيدور إلى هذا الأخير ، أن الشاعر كان يملك اضافة إلى الإعالة المخصصة له ، ارصدة اودعها ابوه بأسمه ، ولامه لأنه سحبها ، وصرفها .

يحق لنا أن نتساءل ماذا جاء لوتريامون يفعل في باريس . هل سبب قدومه إليها هو متابعة علومه في « البولتكنيك »؟ إن هذه الفرضية بعيدة عن التصديق . إنه يتحدث في إحدى رسائله إلى صاحب المصرف الآنف الذكر عن «صداعه». وهذا يحفزنا إلى التخمين بأنه كان لا يزال يعاني من اوجاع الرأس المبرِّحة ، التي كان يئن منها في ثانوية « پو ». وبأن صحته المعتلة ، بالتالي ، تبِّرر موقف التساهل، الذي يبديه نحوه أبوه ، الذي يعرفه مريضاً ، لذلك يؤمن له بسخاء كل مصاريفه . لكنه يطلب منه بالمقابل أن يعيش حياة منتظمة ومجدية ، أي أن يعده بالعكوف على التأليف . إذ من الأرجح أن فرنسوا ، الذي يكنّ الاحترام لرجال الأدب ، وهذا ما تشهد به مكتبته العامرة بالمجلدات النفيسة ، لم يكن

يجهل نشاط ايزيدور في باريس ، بل كان يشجعه بنسبة ما كان يمده ، عن طيب خاطر ، أو على مضض ، بالمساعدات المالية لنشر كتاباته .

ففي تشرين الثاني عام ١٨٦٨ طبع ايزيدور على نفقته الخاصة نشيد مالدورور الأول ، غفلاً من اسم المؤلف . وعام ١٨٦٩ اصدر ، على حسابه أيضاً ، أناشيد مالدورور الستة الكاملة ، تحت الأسم المستعار ، الذي عُرف به في عالم الفكر . لكن الناشر لاكروا (الذي أُدلى حول الشاعر بتعليقات تدعم اقوال بول ليسبيس : « كان شاباً طويلاً اسمر ، امرد ، عصبياً ، عاقلاً ، ومجتهداً ») رفض ، نظراً للتشاؤم والعنف الناضحين من الكتاب ، إنزاله إلى السوق ، خوفاً من الملاحقة القانونية . إن هذا التهرب لم يـرق لبوليـه ـ مالاسيس ، الذي ضحى براحته وماله من أجل إتاحة فرصة التعبير لصديقه بودلير ، والذي احب « اناشيد مالدورور »، فتطوع لأن يبيعها على سبيل الايداع الائتماني في سويسرا وبلجيكا ، بموجب اتفاق مبدئي مع مؤلفها ، الذي سيموت قبل أن يراها في المكتبات ؛ والذي يستعلِم عن مصيرها في ٢١ شباط سنة ١٨٧٠ ، دون أن يتلقى جواباً شافياً ؛ والذي أعلن أنه يتنكر لماضيه ، وأنه سينكبّ على إعداد مصنف جديد ، يعدِّل فيه لهجته لصالح الأمل ، ويحمله إلى الناشر لاكروا في اوائل آذار . وهاهو يؤكد في ١٢ آذار على مشروعه التفاؤلي هذا ، في رسالة موَّجهة إلى صاحب المصرف داراس ، يُعلمه فيها أنه قد غير منهجه ، كي لا يغني سوى الرجاء والطمأنينة ، الفرح والواجب ، وأنه سيصدر كرَّاساً من ستين صفحة تكون المقدمة لكتابه المقبل هذا ، يرسلها إلى والده، فيرى هذا الأخير أنه يعمل ، ويبعث له بالمال الكافي لطبع هذا المجلد العتيد ، الذي لن يبصر النور قط . ولقد نشر بالفعل هذه التوطئة في كتيب يحمل عنوان « اشعار » في أيار من ذلك العام . لكنه مات نهار الخميس في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٨٧٠ في الساعة الثامنة صباحاً ، في مسكنه الباريسي في فوبور مونمارتر ، ودُفن في اليوم التالي . وكأنه في المقطع الأخير من اناشيده كان يتنبأ بوفاته المبكرة ، التي تمنى أن يقول عنه القارىء بعد حصولها : « لقد لفسد عقلي كثيراً ، ماذا كان فعل لو أنه تمكن من العيش مزيداً[1] » .

● ● ●

(١) النشيد السادس: المقطع ١٠.

- ٢ -

إننا نحتاج ، كي نفهم الطبيعة الانسانية ، إلى التعرف على جميع النماذج ، التي تتكوَّن منها . ونحن ، من خلال لوتريامون ، نختبر مزاج السوداوي المريض ، الذي ليس جسده مزوَّداً بالمناعة الكافية للانتصار في الحرب الضارية ، التي يخوضها الانسان ، ضد العدم ؛ والذي ليست روحه بالتالي متمتعة بحصانة كبيرة ضد الحزن . الحياة جميلة ربما . لكنها ليست كذلك بالنسبة للجميع . ومالدورور هو واحد من اؤلئك المنكودين . وهو ينطق بأسمهم ، ويعبِّر عن احزانهم ، ويرّجع صدى ظلاماتهم . وكلنا نمر في لحظات نشعر فيها أننا منحوسون ، وعندئذ ننصت إلى نشيده ، وكأنه لسان حالنا ، وصوت ضميرنا ، وشكوى قلبنا . فكما أن هناك تنوعية الانماط البشرية ، هناك أيضاً تعددية الانوات التي تتكوَّن منها شخصيتنا ، والتي نتقمصها في فترات متناقضة من عمرنا . وكما أن لوتريامون شاهد على اختبارات طينة من الناس هي طبقة المعذبين . فإنه أيضاً مرآة تعكس التجارب الباطنة التي لا بد لنا أن نتجرع كأسها المرّ في بعض الأوقات . من خلاله هو وامثاله يعي المرء ذاته ، يفكر على صوت عالٍ ، ويُظهر إلى النور غرائزه الدفينة ، وخفاياه المستترة .

لكأن مبدع « اناشيد مالدورور » يخاطب ربه قائلاً : إذا كنت ، يا الله ، قد خلقتني عليلاً من الناحية البدنية والنفسية ، دميماً ، مجرَّداً من القابلية على تذوق مباهج الحياة ، وثمار الهوى ، وحكمت عليَّ بالعذاب المؤبد ، فأي عجب في أن اهاجمك ، وانتقم منك . أنا لم أكن سعيداً على هذه الأرض ، لارفع إليك الابتهالات والمدائح وأسبِّح بحمدك . أنا غير ممتن للحصة التي خصصتني بها ، وأنت توِّزع الخيرات على الآدميين ، أنا نصيبي منها كان سيئاً جداً ، ومن حقي أن اتذمر . لقد حرمتني من نعمة النوم . وإذا كنت في الليل لا اتوصل إلى الرقاد ، فمتى يا ترى عساني اتمكن من الاستمتاع بهذه الاستراحة الضرورية للجسم . إن النوتي ، وقد فلعته ريح الشمال إلى شطرين ، يسارع ، بعد تأدية نوبة حراسته المسائية ، الى العودة إلى سريره . لماذا هذه التعزية ليست ممنوحة لي ؟ سعيد من يغرق في سبات عميق ، بمجرد أن يضع رأسه بسكون على مخدته . ها اني ، منذ يوم ولادتي المشؤوم ، أعاني من الأرق ، الذي نذر أن يجرف دائماً إلى اعماق الحفرة اعضائي ، التي تنبعث منها منذ الآن رائحة المقابر ، وأن يؤجج شعلة الحمى الحادة في محجري ، ويصبغ وجهي بصفرة الموت . كل

عشية أجبر عيني الكابية على الشخوص إلى النجوم عبر مربعات النافذة . لكأن هناك عداءً مستحكماً بيني وبين الفراش . وكأن حظي العاثر كتب عليَّ أن اظل دون انقطاع جاحظ البؤبؤين ، ساعة يأوي بقية الآدميين إلى مهاجعهم . وعندما يظهر الفجر يلقاني صاحياً ، شاعراً بثقل في رأسي ، وخدر في فكري . أما حين اتوصل ، في اوقات نادرة جداً ، إلى الإغفاء في احضان الظلام ، فإن كوابيس فظيعة تزورني في مضجعي . وفي النهار ينوء ذهني تحت عبء تأملات غريبة ، وتتوه عيوني المتألمة بسبب سهاد الليل الأبدي ، على هوى الصدفة في الفضاء .

نعم كل صباح تطلع الشمس ، ناشرة البهجة والحرارة الشافية على جميع الكائنات . أما لوتريامون فإن شروقها لا يعني له شيئاً . إنه يستقبل اشعتها بضيق وحنق ، ناظراً بثبات إلى أفق لا يرى فيه إلّا الاكفهرار ، مقرفصاً في اعماق وحدته الكئيبة ، ثملاً من خمرة يأسه . مع أنه يعرف أن ليس هناك ثمة حادث خارجي يبِّرر هذا الغمّ ؛ مع أنه يعلم أن هناك مخلوقات أخرى تتألم ؛ ومع أنه يدرك أن حياته ليست مهددة بالخطر . إنه فريسة لتلك السوداوية الفطرية التي لا تحتاج إلى أية أسباب برّانية لتغذي نشاطها. أنه كما تصوره لنا « الاناشيد » ذلك الشاب الغامض ، الكالح الوجه ، الملتهب العين ، الذي كان يرود حول مساكن البشر ، خلال الليالي العاصفة ، متوحداً مثقلاً بمشاعر الذنب والعار ، تجلد الريح شعره المنتفش ؛ والذي كان يتسكع بمشقة متثاقل الخطى ، فوق بلاطات مفارق الطرق المتعرجة ، حيث كان يمضي بلا تبصر ، مترنحاً كالسكران ، عبر دياميس الحياة ، التي لا يشغل باله بشرورها ولا خيراتها ، فاقد الوعي من الألم ، تعبان من مواصلة درب هذه الرحلة الأرضية الوعر .

إذا صح ، كما هو الأرجح ، أن لوتريامون قد حّط في بوردو صيف ١٨٦٧ ، فمن المحتمل أنه ذهب أولاً لدى أقاربه في « بازيت ». ومن المؤكد أنه احيى علاقة الصداقة مع زميله في مدرسة طارب : جورج دازيت، الذي اصبح فيما بعد محامياً ، والذي يحتل مركزاً مرموقاً في الطبعة الاصلية لنشيد مالدورور الأول ، لكنه ، في الطبعة الثانية ، تم استبداله ، كلما ورد اسمه ، بنداءٍ موَّجه إلى احد الحيوانات : ـ أيها الاخطبوط الحريري النظر . . أيها العمّاش ـ أيها القملة الموَّقرة ـ أيها الضفدع ـ قمل العلّ الذي ينتج الجَرَب . ـ واجمل صدى لهذه المحاورات ، التي لا يمكن أن تكون قد جرت بين لوتريامون وصاحبه إلاّ في

مسقط رأس هذا الأخير : طارب ، نجده في المقطع الثالث عشر من النشيد الأول ، حيث يقول دازيت (المشطوب اسمه في الصياغة الثانية ، والمُستعاض عنه بكلمة : ضفدع) لمالدورور :

- «بأي حق تأتي إلى هذه الأرض، لتستهزىء بأولئك الذين يقطنونها، أيها الانسان المحطم المنحطّ، المؤار بالارتيابية؟ إذا كنت لست مسروراً على هذه الأرض، يجب عليك أن تعود إلى الأفلاك التي جئت منها[1]».

لعل هذه هي الملامة التي كان يوّجهها دازيت إلى صديقه الشاعر ، الذي خطّ بريشته عبارات تشاؤميةفظيعـة من نوع : « حـزين كالكـون ، جميل كالانتحار[2]» -« اتعس من المشاعر التي توحي بها رؤية طفل في المهد[3]» .لكن لقد كان بوسع لوترياموني أن يجيب رفيق دراسته هذا بعتاب شبيه بذاك الذي سمعه هولزر، الذي حاول أن ينتحر ، من مالدورور ، الذي انقذه ، وأركبه معه على ردف حصانه :

- « ايه ، انت يا هولزر ، الذي كنت تظن نفسك جد عاقل وقوي ، ألم ترَ بفضل قدوتك ذاتها ، كيف أنه من الصعب ، في سورة يأس، الاحتفاظ برباطة الجأش التي تتباهى بها ، آمل أنك لن تسبِّب لي بعد الآن ألماً مماثلاً ، وأنا من جهتي وعدتك أن لا احاول الانتحار قط[4]» .

نعم الا تقول « الاناشيد » :

- « لقد تلقيت الحياة كجرح ، ولقد حظرت على الانتحار أن يشفي الندبة[5] » .

إذ عندما يتمعن لوترياموني بهذه الأسرار الخفية القاتمة ، التي تختفي بموجبها روح بشرية عن الأرض ، بنفس سرعة ذبابة أو حشرة ، دون أن تحتفظ بأمل العودة إليها ؛ والتي تجعل من المنية احتمالاً وارداً في كل دقيقة ، فإنه

---

(١) النشيد الأول : المقطع ١٣ .
(٢) المصدر السابق
(٣)النشيد الأول: المقطع ١٢ .
(٤) النشيد الثاني: المقطع ١٤ .
(٥) النشيد الثالث: المقطع ١ .

يتعجب كيف أنه ، بفضل صدفة خارقة ، لم يفقد الحياة بعد ، منذ ذلك الأمد السحيق، الذي بدأ فيه ، مليئاً بالرعب ، الجملة السابقة ، كما أنه يتحسر لأنه قد لا يتسنى له أن يعيش كفاية ليشرح للبشر فكرة سرعة زوال العمر ، ذلك اللغز المحير ، الذي لا يدّعي أنه يفهمه هو نفسه ، بل يقرّ بعجزه الجذري عن ذلك .

لكأني بالشاعر ينذر صديقه دازيت ، الذي يأخذ عليه إنهزاميته، بل يحذّر قارىء كتابه ، بما معناه : يجوز لكل انسان إبداء رأيه ، وإذا كنت تنازعني في هذا الحق ، لا تطالعني . إن منح كل شخص الصلاحية المطلقة في الإعراب عن فكرته هو أفضل وسيلة للتفاهم وإنهاء النقاش . لكن وضع هذا المبدأ قيد التنفيذ هو اصعب مما يظن البعض . كل واحد يعتقد أنه المصيب وغيره المخطىء . ويريد أن يفرض وجهة نظره بتسلط على الآخرين . إن المنطق اداة خطرة ، إذا سخرّناه لخدمة غرائزنا ، لأنه يستطيع أن يكسو أكثر الخواطر ضلالاً برداءٍ من المعقولية يقنعنا بها . إن النزوات والاهواء الخاصة ، إن الاستدلالات النسبية ، قد تستطيع ، إذا استعانت بقوة الجدل ، أن تتراءى امامنا بمظهر اليقينيات المطلقة واللاشخصية . لكن إذا نزعنا عنها طلاءها السفسطائي ، لتبدى لنا ما يختبىء وراءها من غرور وإدعاء ، ومواقف فردية ضيقة .

- « إن أفضل وسيلة للاقناع تكمن في عدم الاقناع[1] »

هناك امور عديدة تُفسد ذكاءنا ، تخنقه باخطائها ، وتمنعه من إكتشاف الحقيقة ، كما إنها تحفزنا لنعت كل شخص لا يفكر مثلنا بالإجرامي : طبيعة التعليم التي نتلقاها ؛ نوعية الكتب التي نقرؤها ؛ العادات التي نبرمها بفعل السنين ؛ الاحتكاك باشباهنا ؛ والطبع الملازم لكل منا . إننا نجد دائماً ثمة مطعناً في مزاج لا يشبه اخلاقنا ، لأنه واحد من تلك التغيرات الذهنية التي لا يحصرها عد ، والتي أبدعها الله ، دون أن يخرج عن النموذج الاصلي . ليس من صالحنا والحالة هذه أن نتحجر عقلياً في قوقعة مسلّمة لا تتزعزع ، يوجد أوليات اخرى أيضاً لا يرقى إليها الشك ، وتسير بشكل موازٍ مع بديهيتنا .

● ● ●

---

(١) Lautréamont: Œuvres Complètes - Poésies II (Livre de Poche 1963 p. 420.

- ٣ -

نسوق هذه المقدمة للايعاز بأننا لا نوافق لوتريامون على إلحاده ، لكننا نمنحه الحق ، على الأقل ، في الإفصاح عن معتقده . فما هي ياترى مرتكزات كفره ؟ إن الخالق لم يتنازل ، ويكلّف نفسه عناء أن يكشف لنا عن الأسرار التي يختنق وسطها وجودنا كسمكة في جوف قارب . إنه منارة للظلم الأبدي واللعنة القاسية ، إنه مرعب واشرس من الوحوش الكاسرة ، إنه عديم الشفقة لا يسمع التذمرات التي تتصاعد عن سطح الأفلاك نحو عرشه . إنه يتلذذ خلال ابديته الطويلة ، بتعذيب الانسانية ، إما بما يمارسه عليها من صنوف القهر ، وإما بما يعرضه امامها من مشاهد الرذيلة المقززة . إنه يستنهض قساوته اللامجدية من أجل أن يُشعل حرائق يهلك فيها الشيوخ والأطفال . إنه يرسل ، حين يحلو له ، الكوليرا تعيث فساداً في المدن . كما أنه يبعث الموت ليحمل بين براثنه ، دون أي تمييز، أربعة اعمار الحياة ، وليُخمد انفاس آدميين ، حين يكونون في زهوة الصبا ، لم يتذوقوا بعد ملذات الوجود . لكن رغم أنه لا يشبع من التنكيل بالبشر دون سبب ، فتستمر هزاته الأرضية وعواصفه البحرية تفتك بهم منذ بدء الخليقة ، ولسان حاله يقول لهم : لقد خلقتكم ، إذن من حقي أن افعل بكم ما اشاء. اني اسومكم العسف والهوان ، من أجل متعتي الخاصة ، دون أن يكون قد اصابني منكم أي اذى . رغم أنه عديم الاحساس حيال صلواتهم وأضحياتهم . فإنهم ، وياللعجب ، كلما اظهر لهم اللامبالاة ، كلما ازداد اعجابهم به . لأن تفكيرهم يستند إلى هذا الاستنتاج : لو لم يكن عظيماً حقاً ، لما احتقرنا إلى هذا الحد .

لكن اساليب الترهيب والإستعلاء هذه ، التي يعتمدها سبحانه تعالى لكسب المؤمنين ، لا تنطلي على لوتريامون ، الذي يعتبر نفسه أقوى من البارىء ، فينزله عن قاعدة تمثاله المشيَّدة بجبانة الانسان . إنه يشتمه ، ويهينه ، ويصرخ في وجهه : أنت لست مَلكاً على الكون ، لانك لم تعرف أن تحكمه ، ولم تنجح إلّا في نشر الذعر في ارجائه . إنك إذا تفاوضت مع سكانه فإن كل المخازي سترتد على وجهك .

في المقطع السادس من النشيد الثاني يأتي مالدورور ليجلس ، في حديقة التويلري ، قرب ولد ، بقصد أنْ يسمّم له عقله . وإذ يسأله : بماذا تفكر ،

يجيبه الصبي : بالسماء . فيرد عليه روح الشر : إن لما يكفي أن نهتم بالأرض . بما أن الآخرة صنعها الرب وكذلك الدنيا ، فثق انك ستقابل في الأولى نفس البلايا الموجودة في الثانية . انك لن تُجازى ، بعد موتك ، وفقاً لمزاياك . لانهم إذا كانوا يرتكبون المظالم ضدك على هذه الفانية (كما ستبلو ذلك بالتجربة فيما بعد) فليس ثمة حجة لأن يحجموا عن إضطهادك في دار الخلد أيضاً . إن خير ما تعمله هو أن لا تشغل بالك بالله ، وأن تنصف نفسك بنفسك بما أنهم يرفضون معاملتك بالعدل .

إن لوترìيامون لا يؤمن بوهم الخلود ، ويعرف أن فناءه سيكون شاملاً . لأن قدر الشقاء المحتوم المتربص به قاده إلى التمرد ، مع أنه وُلد ربما طيباً، وغدى في صدره مشاعر الحقد والثأر ضد العلي ـ القدير :

ـ « اني لا ازال استطيع ، في الحالة التي تراني فيها ، أن اقوم بنزهات حتى اسوار السماء ، على رأس فيلق من المجرمين ، وأن اعود لاتخذ وضعة الجسم هذه ، لافكر ملياً من جديد بمشاريع الانتقام النبيلة[1]» .

● ● ●

ـ ٤ ـ

ما على لوترìيامون ، إذا كان يريد أن يكون عدو المسيح ، سوى أن يتغنى بعكس المناقب ، التي يقدّسها الدين المسيحي ، واولاها المحبة . وهكذا بدل : احبب قريبك كنفسك ، سيكون شعاره بغض الانسان :

ـ « إن شِعري لن يرتكز إلاّ على مهاجمة ، بشتى الوسائل ، الانسان ، ذلك الوحش الكاسر ، والخالق ، الذي ما كان يجب أن يلد حشرة مماثلة. المجلدات ستتراكم فوق المجلدات ، حتى نهاية حياتي ، ومع ذلك لن يظهر فيها إلاّ هذه الفكرة الوحيدة الحاضرة في ذهني أبداً .

والقيمة الثانية هي الرجاء ، الذي سيستبدله باليأس ، والثالثة هي الإيمان ، الذي سيستعيض عنه بالشك . إن هذه الفضائل تترعرع في مناخ

---

(١) النشيد الرابع المقطع ٤ .

(٢) النشيد الثاني: المقطع ٤ .

الروح ، وينتج عنها الخير . أما الرذائل المضادة لها فإنها تنبت في تربة الجسد ، ويتولد عنها الشر . فالأنا المادي هو الفردية والانانية والانكماش على النفس ، ومعاداة الآخرين ، وإعتبارهم كائنات غريبة تنافسنا على حقنا في الوجود في هذا الصراع من أجل البقاء ، الذي يخوضه جسمنا دون هوادة ضد العوامل الخارجية .كلناقدنحتوي على هذه الذات الترابية ، كلنا قد نشعر احياناً بما يعبِّر عنه لوتريامون من ضغينة على أشباهه . لكننا نتضمن ايضاً بالاضافة إلى هذا الجانب الأرضي من كياننا ، ناحية سماوية منزهة عن الاثرة ، وعن كل نزعة حيوانية ، لم يشأ الشاعر أن يتطرق إليها . هو الذي ينعت مالدورور بأنه عدو البشر ، ويعلن أن الانسان يوحي لنا بالكره ، لدرجة أننا نُصاب بالغثيان، عندما نمس جلده ، وكأن قدمنا انزلقت فوق ضفدعة ، وتنقلب احشاؤنا رأساً على عقب طويلاً بعد الملامسة :

ـ « اواه ! عندما تسمعون الجرُف الثلجي يهوي من أعلى الجبل البارد ؛ اللبوءة تتشكى ، في الصحراء القاحلة ، من اختفاء صغارها ؛ العاصفة تحقق مصيرها ؛ المحكوم بالاعدام يجأر ، في السجن ، عشية الصعود إلى المقصلة ؛ والاخطبوط الضاري يروي لامواج البحر ، اخبار انتصاراته على السبَّاحين والغرقى ، قولوا الحقيقة ، أليست هذه الاصوات الجليلة اجمل من ضحك الانسان ![1] » .

إن لوتريامون يتحدى الله أن يدله على انسان يكون صالحاً ، ويقرر أن الطيبة ليست سوى تجميع لمقاطع لفظية رنانة ، وأنه لم يجدها في أي مكان . إنه أمام قساوة قلب ركاب عربة النقل العامة ، الذين رفضوا التوقف ليقلّوا معهم ولداً صغيراً جائعاً مقطوعاً ضائعاً في ليل باريس ، لم تعد رجلاه قادرتين على حمله ، يتساءل : أهذه هي إذن المحبة البشرية ؟ ويجيب بأن هذه العاطفة هي كلمة بات من المتعذر العثور عليها ، حتى في قاموس الشعر . إذا كانت الاسماك في اعماق الاوقيانوس لا تتآخى ، وتعيش منعزلة عن بعضها ، يلتهم كبيرها صغيرها ، فإن هذا له ما يبرره : إن كل نوع منها يختلف جذرياً عن الآخر ، ويشكل فصيلة مستقلة عن غيره من الاجناس . بينما إذا جئنا إلى عالم الانسان ، فما الداعي لهذا الحقد المستشري بين ابنائه ؟ جميعهم يملكون نفس الحواس

---

(١) النشيد الثاني: المقطع ٨.

والملامح والخصائص الفيزيولوجية والنفسية . لا يوجد تباينات جوهرية بينهم تفسر هذا الجفاء ، الذي يحكم على كلٍ منهم بأن يعيش كالمتوحش في وجاره ، الذي نادراً ما يخرج منه لزيارة جاره المقرفص بالمثل في جُحر آخر . وهذا النزاع بين الأفراد يرادفه خصام أكثر خطورة بين الأمم . أو يحتل شعب قطعة أرض فإنه يرى نفسه مضطراً لأن يناصب الأقوام الأخرى المتاخمة لحدوده العداء ، رافضاً الامتزاج والانصهار بهم . مع أن المخلوقات الآدمية كلها من عجينة واحدة . أليست الحروب أكبر دليل على أن البشر اشرار ؟ انظروا الفروقات الطفيفة الاصطناعية التي يقيمونها فيما بينهم ، متخذين منها ذريعة لشنّ الغارات على بعضهم . إنهم بلا رحمة يتذابحون على أرض المعركة دونما سبب ، هذا عندما لا يغدرون ببعضهم سراً وسط المدن بخنجر الحقد والتنافس ، ويتغذون بكائنات زاخرة بالحياة مثلهم ، لكنها ادنى منهم مرتبة في السلم الاجتماعي :

- « من يفهم لماذا يبتعد عاشقان كانا يتدلهان ببعضهما البارحة ، بسبب كلمة أُسيء فهمها ، ويتوّجهان الواحد شرقاً ، والآخر غرباً مع مناخس الحقد الانتقام ، الحب والندم ، ولا يعودان يتقابلان ، وقد تجلبب كل منهما في كبريائه المنعزلة . . . من يفهم لماذا نستلذ ليس فقط مصائب أُشباهنا العامة ، بل مصائب اعز اصدقائنا الخاصة ، بينما نحزن لذلك بذات الوقت ؟ مثال لا جدال فيه كي اختم السلسلة : الانسان يقول بخبث نعم ويفكر لا . . . يبقى على علم النفس الكثير من التقدم برسم الإنجاز . . [1] » .

يعترف لوتريامون بأنه يجهل ما هي الصداقة والحب ، وأنه من المحتمل أن لا يقبلهما قط ؛ على الأقل من قِبَل الجنس البشري . أما بطله مالدورور فإنه يهتف حين يرى على الشاطىء ، سفينة تغرق على بُعد خطوات منه : كيف يمكنني أن أعيش بعد أن اتيح لي أن أتذوق كل هذه الشهوات الحسية ، وأشهد نزاعات موت العديد من أشباهي ، واتلذذ وأنا اسمع عن متن الباخرة المنكوبة خوار امرأة عجوز جُنّت من الخوف ، وصرخة رضيع ثاقبة ؟ لقد كان اكيداً أن جميع الركاب سيهلكون ، ومع ذلك ذهب ليجلب بندقيته ، حتى إذا افلت احدهم من الهلاك المحتم ، عاجله بعيار ناري . وإذ يلمح سابحاً شاباً ناجياً بجلده يقترب من الشاطىء ، يطلق عليه رصاصة ، فيقتله .

● ● ●

---

(١) النشيد الأول: المقطع ٩.

- ٥ -

لقد أعلن لوترìيامون ، في مستهل اناشيده ، أنه يريد تسخير عبقريته لوصف ملذات القساوة . وانه لا يّدعي ، إذ يغنّي الشر ، إن الحانه هي نسق مجهول . بل بالعكس يغبط نفسه ، لأن افكار بطله المتعجرفة والهدامة موجودة في كل البشر . وهكذا يكاشفنا كيف تعجب مالدورور لانهم اختاروا الحبلة التي تمسك الصياد فوق الهوة متينة ، وجاهر انه لو كان هو المولج بتحضيرها ، لكان جعل فيها حزّات في عدة مواضع ، بنوع أن تنقطع ، وتدهور المتعلّق بها إلى البحر . أو كيف كان يتمنى ، عندما يُقبِّل ولداً صغيراً ، متوّرد الوجه ، ان يقتلع له وجناته بموسى ، لولا خوفه من ملاحقة العدالة . كيف كان يغلي القطط في دنٍ مملوءٍ بالكحول . أو كيف اغتصب بنتاً قاصرة ، كانت نائمة في ظل شجرة ، ثم أمر كلبه بأن يخنقها ، وعندما رفض الحيوان الانصياع لنزوات سيده الساديّ ، أخذ هذا الأخير سكيناً ، ومزق بها اوصال الفتاة ، مفظّعاً بها .

كما أن لوترياmon يطلب من المراهقة الصغيرة ، التي كانت تنظر إليه ، حين كان يمر في أحد شوارع باريس الضيقة ، أن لا تعود إطلاقاً إلى الظهور أمامه ، لأنه قد يلوي لها ذراعيها ، في لحظة ضلال، يكسرهما ، ويجعلها بعد ذلك تأكلهما ، مستعملاً العنف . أو قد يغرز اصابعه في فلقات دماغها البريء . قد يغمض لها عينيها . أو قد يلقطها من ساقيها ، رافعاً قوامها البكر بيد حديدية ، ثم يجعلها تتدحرج حوله ، قاذفاً إياها ، بعد أن يركز قواه ، على الحائط ، حيث سيبقى جسدها ملتصقاً ، إلى أن تأتي الكلاب الشرهة ، وتقوم بوثبات عالية لتتناتش لحمها . ويهتف في مطلع كتابه : ما احلى أن ننزع بفظاظة من السرير طفلاً ، نعصب له عينيه ـ ثم ننشب اظافرنا في صدره الرخو ، بنوع أن لا يموت ، لاننا ، في هذه الحال ، ننحرم من منظر تباريحه . وبعد أن نشرب دمه ، ونحن نلعق جراحه ، متلذذين ببكائه ، نبتعد عنه كجرُف ثلجي ، كي نسارع من الغرفة المجاورة ، متظاهرين بأننا نهبّ لنجدته وتعزيته . وهكذانجمع ذروة التمتع بايذاء الغير إلى اقصى درجات الخبث . اننا نبتهج بآلام ضحيتنا، وبذات الوقت نتوجع بمقدار عذابها .

طبعاً لوترياmon لم يقترف مثل هذه الآثام مرة واحدة طوال عمره القصير ، بل يتصور ، ويحلم أنه يرتكبها . وكلنا نأتي مثل هذه المنكرات في الظن . انه

عندما يعلن آن لوهنغرين، الذي قرر مالدورور أن يقتله ، ثم عدل عن مشروعه هذا ، لم يراوده الشك ، أن حياته كانت في خطر خلال ربع ساعة ، انما يعني أن التخطيط لاغتيال الأول هو خاطرة عابرة مرت ببال الثاني مروراً خاطفاً ، ولم يكن لها ، مثل كل هواجسه ونواياه الأخرى أية عواقب على الصعيد العملي . فالشاعر الذي هتف :

- « سيكون الخبث مطروداً صراحة من بيتي[1] ».

يفعل عكس المرائي ، إذ ينسب إلى نفسه جرائم لم يتورط بها فعلاً .

- « وعلم الاخلاق ، الذي كان يمر في هذا الموضع ، إذ حدس أنه لا يملك ، في هذه الصفحات المتأججة ، مُدافعاً نشيطاً ، رآه يتوجه بخطوة ثابتة ومستقيمة ، نحو الخبايا المعتمة والالياف الخفية من الضمائر[2] ».

من هنا ان لوتريامون يرفض إدانة الغير وفقاً للوحة الشرائع ، المبنية على الغباء ، وعلى العبودية للعادات والتقاليد والاعراف . إذ ما هو الخير والشر ؟ هل هما الوجه والقفا لعملة واحدة ، نحاول بواسطتها دون طائل بلوغ المطلق ؟ إن خلاصه منوط بأن لا يكون هناك ثمة عقاب ولا ثواب . لانه ليس ممن عملوا الصالحات ، لينتظر عليها المكافأة ، وكل محاكمة لا بد أن تُنزل به القصاص . إنه ينعت مالدورور بأنه المزدري بكل الفضائل ؛ والمتنكر لكل شيء : الأب ، الأم ، العناية الإلهية ، الحب، المثال الأعلى ، كي لا يفكر سوى بنفسه وحدها ؛ المحتاج إلى انسان لا يعرف التمييز بين الاستقامة والضلال ، فعثر عليه في شخص المجنون ؛ والمدرك أن الشرطة ، درع الانسانية الواقي ، كانت تبحث عنه بمثابرة ، منذ عدة سنين ، وأن جيشاً حقيقياً من مأموريها وجواسيسها كانوا دوماً في إثره ، دون أن يتوصلوا ، مع ذلك ، إلى مصادفته ، لفرط ما كانت مهارته المذهلة تضلل ، بخفة فائقة ، اذكى حيلهم، وأبرع تحرياتهم . إذ أنه كان يملك موهبة خاصة في إتخاذ اشكال لا يمكن للعيون المدَّربة أن تتعرف عليها . ألا يقول بعد إنمساخه إلى خنزير : لم أعد اخضع لأي إكراه . صار بامكاني ، إذا ما شعرت بحاجة إلى القتل ، أن أشبع رغبتي إلى الاجرام ، وهذا

(١) النشيد الرابع: المقطع ٢ .

(٢) النشيد الثاني: المقطع ١ .

ما حصل لي مراراً ، دون أن يردعني عنه أحد . القوانين كانت لا تزال تلاحقني بعقوباتها ، معَ اني لا امارس بعد نزعتي العدائية على الجنس البشري ، لكن ضميري كفَّ أن يوّجه لي أي توبيخ . فهل مالدورور هو ابليس ؟ ان رئيس الملائكة الموفد إليه من الأعالي ، يخاطبه بهذه العبارات :

- « كان هناك ثمة عهد كان لك فيه المكانة الأولى بيننا[1] » .

إذ من المعروف أن الشيطان كان يحتل ارقى مرتبة بين صفوف الجند السماوي ، ثم ارتكب معصية ، حكم عليه الله من جرائها بالنزول إلى الجحيم .

● ● ●

- ٦ -

إن الانسان العملي هو ذاك الممثل ، الذي يأخذ عن جد مسرحية الحياة ، مستأثراً بدور فيها . أما الفنان فإنه ذاك المتفرج ، الذي لا يندمج في هذه المهزلة ، بل يبقى خارج الخشبة ، يتأمل مشاهد الرواية من بعيد ، معتبراً أنها مصنوعة خصيصاً لإضحاكه :

- « يا رسوم الجمال الساخرة التي لا تنفد ، الذين تأخذون عن جَد النهيق المضحك لروحكم ، الجديرة بالاحتقار إلى اقصى حد[2] » .

أليست الموهبة الفنية هي القابلية على تحويل الواقع إلى وهم والجسد إلى روح ؟ وعندما يتجرّد الشيء من مقوِّماته العينية ، وكثافته الحسية ، ويتبدى على حقيقته ، بما هو عنصر فناء ، ألاّ يتراءى مثيراً للهزء ؟ فالفكاهة هي فضح زيف المادة ، واكتشاف انها عدم . والموت إذ يرفع برقع الرصانة عن وجه الظواهر ، إنما يعرِّي الجانب البهلولي منها . يقول شوبنهور أن الدُعابة هي وحدها الصفة الإلهية حقاً ، والقمينة بأن تجعلنا احراراً . ولقد برع فيها لوتريامون ، الذي لا ينخدع بهذه الوصلة الاستعراضية ، التي يثق الناس من حوله انهم بانخراطهم فيها سينالون اجراً مدفوعاً بنقود الفرح ، الذي لا يؤمن هو بوجوده ، خلافاً

---

(١) النشيد السادس: المقطع ٨.

(٢) النشيد الرابع: المقطع ٦.

للمشتركين في الحفلة ، ليكّلف نفسه عناء إعتلاء المنصة معهم . ليس للحياة عنده أي حرمة أي قداسة ، وليس المال الذي تدفعه لممثليها بالتالي أكثر من ورق مزوّر ، إنه يرفضها ، ويأبى المكوث بين كواليسها . فوحده يسخر حقاً ذاك الذي يُزمع أن يدير ظهره ويرحل منسحباً من هذه اللعبة السمجة التي يؤديها بقية الحضور ، الذين سيظلون في الصالة بعد ذهابه ، ذاك الذي يحتقر الوجود ويكفر بقيّمه ويسبر غور اليأس . فنحن لا نهزأ إلاّ من الشخص الذي نزدريه ونستخفه وشر البلية ما يُضحك :

ـ « إنه يتعذر جداً ، وفقاً لبعض الفلاسفة ، التمييز بين المضحك والمحزن ، بما أن الحياة ذاتها هي مأساة هزلية ، أو مهزلة مأساوية[1]».

لكن لوترىامون يسخر من نفسه ، قبل أن يتيح للآخرين أن يطالوه بمزاحهم . فهو عندما يخاطب الاوقيانوس هاتفاً :

ـ « أنت زرقة رحبة مُلصقة على جسد الأرض[2] ».

يسارع إلى التعليق :

ـ « احب هذه المقارنة[3] ».

وهكذا يغمز بطرف خفي من عاطفيته وإنشائيته وحماسه الشعري . وكم من ممنوعات يستطيع تمريرها تحت ستار هذا المرح المشبع بالنقد الذاتي . بامكانه أن يفلت العنان لميوعته الانفعالية . بمقدوره أن يسترسل مع ميله إلى المبالغة ، مع جنوحه إلى تفخيم الجملة ، وإلاسراف في البلاغة ، الذي حمل بعض النقاد على تشبيه اسلوبه الخطابي ببيان بوسويه القائم على الفصاحة والوعظ . فكأنه يرتكب الغلطة ، ويعتذر منا عنها بذات الوقت ، مما يجعلنا نغفرها له . وهكذا يجرِّدنا من سلاح التجريح ، الذي كنا لنستعمله ضده ، بما أنه يلوم نفسه ، ويعترف بأخطائه .

● ● ●

(١) النشيد الرابع: المقطع ٢.
(٢) النشيد الأول: المقطع ٩.
(٣) المصدر السابق.

- ٧ -

إن لوتريامون يشد استعاراته إلى اقصى درجات المبالغة الهذيانية الفاضحة ، بقصد التهكم ، الذي يصبح غلالة بوسعه أن يخفي وراءها الكثير من عيوبه ، وأن يختبىء لاقتراف المعصيات . وهكذا كي يشمت من صفة التواضع ، التي يقدِّسها المجتمع يقرنها بالخزام . وكي يزري بالعائلة البورجوازية التي تؤمن بالعمل والكدح ، في حين أن المصيبة تتربص بها ، وستلغي كل جهودها واتعابها ، يشبِّه عدة الخياطة بالاسلحة اليومية ، التي يجب أن توضع في الخزانة الواقية ، بعد شغل الابرة المضني ، الذي قامت به ربة المنزل إبان السهرة . وكي يعلن بابتسامة صفراوية عن تشكيكه بوجود شيء اسمه رغد العيش ، يضع على لسان أم تدلل ابنتها عبارات مستحيلة التصديق من هذا النوع :

- « ماذا تفعلين أيتها المتشرِّدة الصغيرة ، في حين ينتظرك الحساء منذ ساعة ، مع الملعقة التي ينفد صبرها ؟ [1] » .

إنه حين ينسب إلى اليأس بحيرةً ، يبدو أنه يهزأ من الفصاحة ذاتها ، من اللغة ، من طريقة استعمال التشابيه ، وآفة مقارنة المشاعر الانسانية بمظاهر الطبيعة . أما حين يجاهر ، في مستهل النشيد السادس ، بأنه سيبدأ الآن الناحية التحليلية من نتاجه ، التي ستكلفه جهداً كبيراً ، فإنه يتمنى ، عبر مبالغة ، باعثة على القهقهة ، أن يكون القراء محبوسين في غدده الفارزة للعرق ، ليتأكدوا عملياً كم يكد ويتعب لإنجاز هذا الجزء الختامي من كتابه .

وهكذا يتوسل لوتريامون روح السخرية والمغالاة المتأصلة فيه لتوليد المجاز البلاغي ، الذي يسدي في رأيه إلى التطلعات البشرية إلى المطلق من الخدمات ، أكثر مما يتصور عادة اؤلئك الذين يلقون على الأمور نظرة تقليدية خاطئة ولا مبالية ، تضفي طابعاً من السوقية على كل ما تراه . بينما كل ما يقع تحت عين الشاعر من مشاهد يومية يبدو له مثيراً للانتباه وجديراً بالاعجاب . إنه يبحث عن التشابهات التي تنطوي عليها في خصائصها الطبيعية ، الأشياء الأكثر تعارضاً فيما بينها ، والأقل قابلية في الظاهر لأن تتلاءم مع بعضها . وهذه التوفيقات

---

(١) النشيد الثالث: المقطع ٢ .

العجيبة تحيط اسلوبه مجاناً بجو من الغرابة والدهشة . فمهما تمايزت الماهيات تظل إذا دققنا فيها ملياً متماثلة بشكل أو بآخر . إن حجم دعامة يختلف وفقاً للمسافة التي نُطل منها عليه . عن قرب قد يظهر لنا ضخماً كشجرة حُمَيّرة ، عن بُعد قد يلوح لنا ضئيلاً كدبوس . من هنا أن المجاز هو عامل نسبي ، وثمرة تلك التناقضات الحقيقية ، وغير القابلة للتفسير التي تسكن فلقات الدماغ البشري . فالأهواء والامزجة تتباين من فرد إلى آخر ، وما يروق لاحدهم ، قد لا يستسيغه الثاني . وما يحيطه هذا بالتوقير ، قد لا يجده ذاك أكثر من هرجة مدهشة . هناك من يجتذبهم طبعهم الرخو والسطحي نحو الناحية الحلوة والعذبة والسهلة من الحياة . وهناك من يجرفهم ذكاؤهم القوي والمتفوق نحو الجانب العنيف والعميق والصعب منها ، دون أن يكون في نيتهم فرض وجهة نظرهم بتسلط على الذين لا يشاركونهم ميولهم . وهذا يعني أن اختراع الصورة الشعرية هو عملية ابتكار ذاتية خاضعة لنزق المبدع ، تعكس حساسيته الشخصية ، ومفهومه الخاص للوجود ، ولا يجوز لنا بالتالي حصرها ضمن مقاييس شائعة ، ومعايير عامة متعارف عليها ، أو تقييدها بقواعد المنطق وأصول الذوق .

وأفضل نموذج ندرس عليه المَجاز عند لوتريامون ، هو سلسلة « جميل ك . . . » المشهورة ، المنتشرة عبر عدة فقرات من كتابه ، والتي يعدّها اندريه بريتون ، بالاضافة إلى المقطع الثامن من النشيد الرابع ، حيث يفقد مالدورور ذاكرته حول صديقه السابق فالمر ، أبدع ما في «الأناشيد» . وهذه الاستعارات تتدرج كالتالي : ١°)- سباع الطير الجميلة كالهياكل العظمية التي تنزع ورق الأشجار - ٢°) - الحوصل الجميل كشعيرتي حشرة طويلتين مجسيتي الشكل ؛ أو بالاحرى كدفنٍ سريع ؛ أو أيضاً كإعادة إنشاء الاعضاء المبتورة ؛ وخاصة كسائل قابل جداً للنتن - ٣°) - البوهة الجميلة كمذكرة حول الخط المنحني الذي يرسمه كلب وهو يركض وراء سيده . - ٤°) - النسر الجميل كقانون توقيف نمو الصدر عند البالغين الذين لا يتناسب نزوعهم إلى النمو مع كمية الجزئيات التي يهضمها جهازهم العضوي . - ٥°) - الجعران الجميل كرعشة اليدين في الكحولية - ٦°) - مرفين الجميل كانقباضية مخالب الجوارح ؛ أو أيضاً ، كتردد الحركات العضلية في جروح الاجزاء الرخوة من المنطقة العنقية الخلفية ؛ أو بالأحرى كفخ الفئران ؛ وخاصة كاللقاء الطارىء على طاولة التشريح بين آلة خياطة ومظلة . - (٧°) - مالدورور الجميل كرذيلة التشكل

الوراثي لاعضاء الرجل الجنسية ؛ أو أيضاً كالرعثة اللحيمة على المنقار الأعلى للديك الرومي ؛ أو بالأحرى كقابلية قوانين الموسيقى للتغير ؛ وخاصة كحرّاقة مدّرعة ذات مخابىء مصّفحة .

● ● ●

- ٨ -

يصرخ انتونان آرتو :

- «إذا كان هناك ثمة شيء جهنمي وملعون حقاً في هذا العصر ، فهو التريث فنياً عند الاشكال ، بدل أن نكون كالمعذبين الذين يحرقونهم ، والذين يقومون باشارات فوق محارقهم[١]» .

ويقرر لوكليزيو:

- «الشعر ، الروايات ، الاقاصيص هي أُثريات غريبة لم تعد تخدع احداً ، أو تكاد . قصائد ، حكايات ، ما الفائدة منها ؟ لم يبق سوى الكتابة[٢]» .

لماذا يكبِّل الكاتب نفسه بالاصفاد ، ويروح يتباهى امامنا : اني اخضع لقوانين المسرحية منذ ارسطو ؛ اني أُراعي اصول الرواية كما كرّسها اساطينها الكبار ؟ اني التزم بالوزن والقافية . ومع ذلك أنا من البراعة والمهارة والقوة بحيث استطيع أن احرِّك يديَّ ورجليَّ رغم الاغلال التي ارسف فيها ، والسلاسل التي اجرُّها ورائي ، وامشي على الصراط المستقيم ، محاطاً برضى واعجاب الجميع ، لأُبلغ المحجة التي رسمتها لي الاجيال السابقة . هناك وسيلة اذكى من ذلك بكثير : أن يحطم الفنان كل القيود ، وأن يسير حراً ، ويحلّق عالياً . فالعبودية للشكل تخنق الروح ، وتمنع الشاعر من الاسترسال على سجيته ، والإفصاح عن خفايا قلبه وفكره . لذلك يتجه الأدب الحديث نحو اللاشكل . فهناك اديبان : البّراني والجوّاني . الأول يتلهى بلعبة المظاهر ، ويعتبر حرفته صناعة لفظية . والثاني يغوص إلى اعماق الوجدان ، ويعدّ رسالته مغامرة روحية .

---

(١) **Dominique de Roux:** Mort de Céline (Unions générales d'Ed. 1969 p. 9)

(٢) **Roland Barthes:** Critique et Vérité (Ed. du Sueil 1966 p. 46)

من هنا أنه يُخيل إلينا احياناً ونحن نقرأ لوترياMون أننا نطالع حواراً مسرحياً . ففي المقطع الحادي عشر من النشيد الأول يوجد أربع شخصيات : الأب ـ الأم ـ الأبن ـ ومالدورور ، في غرفة يتخاطبون ، ونحن نتابع عواطفهم وافكارهم والاحداث التي تكتنفهم ، من خلال حديثهم فقط . لكن الشاعر هنا منعتق من الاعراف التي تتحكم بالفن التمثيلي ، الذي يسخِّره لصالح الإعراب عن خواطره واحاسيسه لا العكس . فكل قالب مفروض علينا من الخارج ، يكبت زخمنا ، ويمنعنا من التعبير بصورة مطلقة عما يجيش في صدرنا ، ويضج في رأسنا ، ويجبرنا أن نطيل أو نقصر مسافتنا الداخلية لتتلاءم مع قياسه . لنفرض أني اضع مشاعري وآرائي على لسان بطل مسرحي ، فإني مضطر ، كي اجعلها تتناسب معه ، أن أمطها أو أضغطها ، وبذلك ازيّفها وأفقدها رونقها وبكارتها وإصالتها . فلو اني كاتب مسرحي مثلاً ، إنفعلت من خلال تجربتي المعاشة بجمال الليل ، وأردت أن انقل إلى فني هذا الاختبار الحياتي ، فإني أحمِّل انطباعي لاحد شخصياتي ، واروح أعدل واحوِّر فيه لينسجم مع مزاجها ، ويتوافق مع سياق الرواية وتطور الحبكة ومقتضيات الخشبة ، وبذلك أبتعد عن عفوية وعذرية وحرارة النبضة الشعورية الاصلية التي حفزتني إلى الإمساك بالقلم . أما لو أنني من دعاة اللاشكل ، وانبهرت بروعة الدجى ، ورغبت في ترجمة إنسحاري هذا إلى كلمات ، فإني استطيع أن أُجّسد على الورق سكرتي بحلول الظلام ، كما تذوقتها تماماً ، دون زيادة ولا نقصان ، دون لف ولا دوران ، دون تزوير ولا تلفيق ، دون تطويع الفيض العاطفي لضرورات رسم الطباع ، ولا لضوابط المأساة ، أو كوابح المهزلة . وعندما ينتهي الحماس الباطني ، الذي حرَّضني على غمس الريشة في المداد ، اتوقف .

من هذا المنطلق نجد مالدورور ، وهو يتحدث مع حفار القبور (في المقطع الثاني عشر من النشيد الأول الشبيه بأحد مشاهد هاملت) شاعراً يخلق الصورة البيانية، وليس شخصية مسرحية تتكلم . إن كل واحد من هذين المتحاورّين يبدو أنه يخاطب نفسه ، مبدياً على صوت عالٍ ملاحظات في غير صالح شريكه ، غير حاسب أن هذا الأخير يسمعه . وبالفعل لا احد يصغي إلى الثاني فوق مساحة هذه المنصة الوهمية . ثم يروح مالدورور يحكي مع ممثل ثالث غير موجود معه على الخشبة : القملة (في الأصل دازيت ، زميل المدرسة) وهكذا يحتاج لوترياMون احياناً إلى اسلوب الحوار الأفلاطوني ، فيضع شخصيتين

تعبر كلُ منهما عن فكرة معينة ، تأخذان في مجادلة فلسفية ، كما في المقطع السادس من النشيد الثاني مثلاً ، حيث يتناقش مالدورور مع ولد جالس على مقعد في حديقة التويلري حول وجود الله ، مُجبراً إياه على الكلام ليدحض حجته ، مبرهناً على صحة مذهبه ، بأن يفند جميع الاعتراضات ، التي يمكن أن يجابهه بها اصحاب الرأي المناقض .

ـ « آملاً أن أشهد بسرعة في يوم أو في آخر ، تكريس نظرياتي مقبولاً من هذا الشكل الأدبي أو ذاك ، اعتقد اخيراً أني وجدت ، بعد بعض التلمسات ، صيغتي النهائية . إنها الفضلى : بما أنها الرواية[1] » .

وبالفعل يتهيأ لنا في أكثر من موضع من « الاناشيد » إننا نقرأ رواية ، وحتى من النوع الواقعي . كما في المقطع الرابع من النشيد الثاني مثلاً ، حيث يحدثنا الشاعر عن عربة نقل عامة ، لا يتوقف ركابها الانانيون ، ليحملوا معهم طفلاً بائساً ، متشرداً في شوارع باريس ، عند منتصف الليل . أو كما في المقطع الخامس من النشيد الثاني ، حيث يصادف في إحدى حواري باريس ، فتاة صغيرة تنظر إليه باغراء ، فينبؤنا هكذا عن مغامرة حقيقية ، قد يمر بها أي متنزه متوحد ، وهو يتسكع في بعض الازقة الضيقة . لقد هجرنا هنا منطقة الشعر كلية ، فالعبارة نثرية إلى أقصى درجة ، وصرنا في مجال الحكاية . لكن هذا الانطباع القصصي ، الذي فرض على لوتريامون قالب السرد ، قد يستمر فقط على مدى صفحة أو اثنتين أو ثلاث، ثم يتوقف . لقد كان بحاجة إليه للتعبير عن خلجات باله ، وخفقات فؤاده ، وعندما استنفده ، وحقق غرضه منه ، طرحه جانباً ، ونبذه بعيداً . وهكذا استخدم الاحدوثة كمطية لبلوغ هدفه ، ولم يستعبد نفسه لشروطها الصارمة . فعندما دخل نطاقها عرفنا أنه سيخرج منه عاجلاً ، لأنه لا يستقر على شكل ، وأن المعاهدة التي عقدها معها هي حلف مزور . وبما أن اقامته على أرضها مؤقتة ، فإننا لا نستطيع أن نطبّق عليه القوانين المرعية الإجراء بالنسبة للمواطنين الدائمين . هذه ليست بزته الاصلية . لقد تنكر فيها ، على سبيل المزاح والمداعبة والعبث منها ، ومن لابسيها، وسيخلعها عما قريب .

أنه يأخذ جميع عادات السرد التقليدية ، ويسخر منها ، مشدداً على

---

(١) النشيد السادس: المقطع ١ .

اخطائها إلى درجة الرسم الهزلي، ممعناً في المبالغات إلى حد عدم التصديق . أنه لا يحاول إقناعنا بصحة اخباره فيخفق في ذلك . بل يقودنا مباشرة إلى مناطق الوهم ، وهناك لا يعود بامكاننا إتهامه بالعجز عن تصوير الحقائق الملموسة، بما أنه يهزأ منا ، ومن الواقع ، ومن فن الوصف . لنفرض أنه يريد أن يختم حديث إحدى شخصياته ، فإنه يذيّله بهذه القفلة : « هذا ما قاله. . . » ثم يتابع الحكاية . وهذه من التشويقات القصصية المألوفة . وقفة يستأنف الراوي بعدها السرد ، منتقلاً إلى مرحلة أكثر إثارة . وكأننا قرب النار نصغي بشغف إلى جد عجوز يردد على اسماعنا إحدى اساطير الجن . لكن لوتريامون إنما يستعير هذا الأسلوب بقصد الهزء منه ليس إلاّ ، وتسخيره لعكس استعماله الشائع ، لأن العجائب والغرائب التي يفصلها لنا لا تحوي على أي عنصر من الإمتاع والترغيب ، ولا تملك من الحبكة البوليسية سوى مظهرها الكاذب . ولأنه يعرف أن المغامرات مستحيلة ، وأنه لا يوجد وقائع مسلية . وأن الحياة ليس فيها شيء من الطرائف والنوادر ، وإنها لاتحتوي على حادث مأثور واحد يستحق أن ننصت إليه بانتباه .

وسنقدم دعماً لاقوالنا عدة امثلة : ـ في المقطع السابع من النشيد الخامس هناك رفيقان تفرق الظروف بينهما لفترة طويلة . وها هما يلتقيان دون سابق ميعاد، واين ؟ في ساحة الوغى، حيث يتصارعان الواحد ضد الآخر ، قبل أن يكتشفا هوية بعضهما ، فيهتفان تباعاً بدهشة : « ايلسينور ! » « ريجنالد ! » إنها كتلك المقابلات القدرية في الروايات التاريخية الرخيصة ، التي يهزأ منها لوتريامون دون شك ، بقدر ما يسخر من الحياة ، التي يعرف، أفضل من الجميع ، إنها ليست مركبة على شكل مغامرة شائقة ؛ إنها لا تفسح المجال لمثل هذه الصداقات الفروسية ؛ وإنها لا تتيح اجتماعات صدفة مثيرة من هذا النوع .

ـ « سيُظهر عن قلة معرفة بمهنته ككاتب إثارة ، ذاك الذي ، على الأقل ، لا يضع في الأمام الاستفهامات المقيِّدة ، التي تأتي من بعدها مباشرة الجملة التي أنا على وشك انهاؤها[1] » .

وهكذا تنتهي خمس من أصل المقاطع الثماني التي تشكل فصول الرواية في

(١) النشيد السادس: المقطع ٣.

النشيد السادس ، بخاتمة مكتنفة بالألغاز ، تبقينا هزلياً في حالة ترقب متلهفين إلى معرفة ما سوف يجري في الجزء التالي . ففي التوطئة لهذه القصة البوليسية العتيدة يتساءل المؤلف : ـ كيف استطاع جسر « الكاروسيل » أن يحافظ على حياده عندما سمع الصراخات الحادة المنبعثة من الكيس . ـ وفي نهاية الحلقة الأولى ينذرنا : أو تعلمون أن شعري يقشعر عندما افكر بخاتم الحديد الذي خبأته يد المجنون تحت الحجر . ـ وفي الثانية يوصينا أن نتوجه صوب بحيرة البجع ، حيث سنشاهد بجعة سوداء كلية ، سيخبرنا فيها بعد لماذا توحي بالحذر لبقية رفاقها المائيين . ـ وفي الثالثة ينبؤنا أن الجسر سيحترق ، وأن رصاصة ستخترق جلد وحيد القرن رغم ابنة الثلج والشحاذ ، لأن المجنون المتوَّج سيكون قد باح بالحقيقة حول وفاء الخناجر الأربعة عشر . ـ وفي الرابعة يخبرنا أن نبوءة الديك ستتحقق، راجياً أن يلتحق السلطعون بقافلة الحجاج في الوقت المناسب ، ليُطْلعهم على السر الذي كشفه له لّمام الخِرَق . . . وفي الخامسة يُعلمنا أن الوقائع التي بسطها لنا تمهّد السبيل لحادثة ساحة « الفاندوم » .

وهو يقطع احياناً سياق السرد ليعِّلق بلهجة تهكمية على اسلوبه التشويقي المزعوم ، بهتاف من هذا العيار :

ـ « مشهد فريد من نوعه لن يهتدي اليه أي روائي[1]»

أو بملاحظة من هذا القبيل :

ـ « لكننا لم نصل بعد إلى هذا الجزء من حكايتنا ، واراني مضطراً إلى إغلاق فمي ، لأني لا استطيع أن اقول كل شيء في آن واحد : كل خدعة مثيرة ستظهر في محلها عندما لا ترى حبكة القصة الخيالية مانعاً في ذلك[2] » .

إنه في المقطع الرابع من النشيد السادس يضحك بذات الوقت من الفن الروائي ، ومن وقار الانجليز ، وتمسكهم بالتقاليد ، وذهنيتهم المتزمتة ، عندما يضع على لسان ابنة لندن العريقة مثل هذه العبارات الاحتفالية :

ـ « عندما تلقي قراءة حكاية مؤثرة مدوَّنة في الحوليات البريطانية حول

(١) النشيد السادس: المقطع ٩.

(٢) النشيد السادس : المقطع ٨.

تاريخ جدودنا الفروسي ، فكري الحالم في مخثات الخدر الذهني [1]».

وعندما يجعل زوجها يهدىء من روعها بسبب قلقها على ابنها موشكاً أن يُقبِّل لها ركبتيها بحنان . لكن ما أن تستلم الحديث حتى يفاجؤها بهذا التأنيب الصارم : يا امرأة لم أُعطك الكلام . ولم يكن من حقكِ أن تبدأيه . إن لوترينامون هنا ، بغية أن يتندر على جلال هذا الشيخ ، والهيبة التي يفرضها على عائلته ، وتشبثه المتعنت بالاعراف واللياقات المشهورة في بني جنسه ، إنما يضرب عرض الحائط بمبدأ عدم التناقض الذي يسوس البناء القصصي ، إذ كيف كان هذا الرجل يدلل قرينته بكل هذا اللين منذ لحظة ، وكيف يزجرها الآن بكل هذه القسوة ، لأنها فتحت فمها دون أن تستأذنه . أما حين تهرع هذه السيدة الارستقراطية إلى مقصورتها ، فإن الشاعر يعلِّق على هرولتها بهذه النكتة : إنها لا تركض بنفس سرعة شخص من الطبقات الدنيا ، وكأنه يتهكم على قانون النبالة ، الذي ينصب من الاعيان زوراً وبهتاناً طينة من البشر تختلف عن بقية عباد الله . ثم ينعت الحركة التي يقبل بها الوجيه الانجليزي قارورة صمغ البطم من يد زوجته بأنها أبية إنما متسامحة . وكأنه كرم اخلاق منه أن يتنازل ، ويتناول غرضاً من امرأته . إن لوترينامون ، وهو يرسم صورة عميد البحر السكسوني هذا المتعجرف والمتساهل ، إنما يرمي إلى الاستهزاء من الأسس الجمالية التي تقضي باضفاء طباع وسمات بسيكولوجية على ابطال الروايات ، يتصرفون بموجبها ، يكيّفون سلوكهم مع معطياتها ، ويتطابقون مع منطقها الصارم . كما أنه يستعمل العبارات الموضوعة على لسان الطبيب ، الذي يعلن أنه يريد أن يبقى قرب المريض حتى ظهور الفجر وغناء العندليب ، لاسباب هزلية واضحة . إن وصف فخامة القصر قائم على مبالغات مفرطة القصد الفكاهي منها جليّ للعيان : اخشاب تغطية قاعة الاستقبال هي من العقيق الاحمر . ـ ارضية الحجرة هي من الآبنوس ـ كؤوس غرفة الطعام ، حيث الجدران مزدانة بالصور القديمة ، هي من حجر بوهيميا تفيض منها السيلانات المتعددة الألوان لخمور الراين والشمبانيا الحمراء كالياقوت ؛ إلى جانب الاطباق الطافحة باللحوم المغذية والفواكه العطرة .

وهكذا نمضي من مغالاة إلى أخرى : ـ فالنبيل الانجليزي لا يطلب من

---

(١) النشيد السادس : المقطع ٤ .

زوجته أن تكفّ عن البكاء ، بل يأمرها باغلاق غددها الدمّاعة ـ أما عندما يفيق ابنه مرفين من غيبوبته ، فإننا نسمع صيحات فرح تطلقها ببغاء جاثمة على فتحة النافذة ـ كما أن الكلب يروح يرسل عواءً مغمّاً استهجاناً لسلوك مرفين ، ذلك الاستنكار ، الذي تشاركه فيه الريح ، وهي تدلف من الشباك مرجرجة شعلة المصباح . ويبلغ ذهولنا ذروته عندما يغيّر مرفين فجأة اللهجة اللطيفة الودودة المليئة بالتوقير التي كان يكتب بها لمالدورور ، ليختم رسالته بهذه العبارات العنيفة :

ـ « وبانتظار اللحظة التي سترميني بين الانشباك البشع لذراعيك المصابتين بالطاعون انحني باتضاع امام ركبتيك[1] » .

لكننا هنا لا نخضع لمعايير القصة التقليدية ، حيث يجب أن يتوافر ثمة تسلسل منطقي مقنع في تطورات الحبكة ؛ وثمة قدر وإن زهيد من المعقولية في تصرفات الاشخاص . إذ أن مرفين ومالدورور هما مخلوقان وهميان ، لا يمتان بصلة إلى ابطال الروايات ، الذين لا يمكن أن يتخاطبوا بهذا الشكل الاعتباطي . والاحداث التي تجري ليست اخباراً صحيحة ، بل خرافات . ولوتريامون لا يسرد علينا حكاية ، ولا يدّون سيرة افراد واقعيين . إنه حر أن يفعل ما يريد . إنه خارج على كل النواميس . إنه يهزأ من مجمل الدساتير الفنية ، من كافة مقومات الحياة ، من جميع القراء ، الذي يظلون معه في مجال المزاح المطلق ، ألا يقول لهم :

ـ « حتى لو لم يكن عندي أي حادث حقيقي ارويه لكم ، فاني ساخترع قصصاً خيالية لأصفقها في دماغكم[2] » .

إنه يعمد إلى شد المبالغة إلى اقصى حدودها ، بغية تدمير الواقع ، وبالتالي أهم فنونه أي القصة . وما أكثر الامثلة على ذلك ، خاصة في النشيد السادس : ـ المجنون الذي يقول عن والده : وليقضم له الكناري محور بصلته البصرية ـ دخول الشقيقات الصغيرات الثلاث إلى وجار الكلبة ، حيث يلاقين مصرعهن ـ العهد الباعث على الضحك ، الذي يقطعه مالدورور للمعتوه : إن

---

(١) النشيد السادس : المقطع ٥.

(٢) النشيد السادس: المقطع ٧.

اخواتك سيحيين ثانية فيَّ ، وساكون والدتك . فهذا الانتهاك الصارخ لقوانين المنطق له وقع هزلي عنيف . كما يحصل مثلاً عندما يعلن المخبول أنه استرد الخاتم ، الذي كان قد دفنه تحت حجر ، وربطه بطرف المرسة . وإذ يقدم الصرّة لمالدورور ، يسأله سيده هذا: ماذا تفعل الخناجر الأربعة عشر ، فيجيبه الممسوس بأنها تبقى وفية ، وتقف مستعدة لكل طارىء ، إذا اقتضى الأمر . ثم يضيف بأنه شاهد ديكاً يشق بمنقاره شمعداناً كبيراً إلى جزئين محدقاً فيهما تباعاً . إن كل ادوات الإثارة هذه المستعملة في الحبكات البوليسية ، من خواتم وخناجر ، ونبوءات تتحقق فيما بعد ، والغاز نفكّ طلاسمها تدريجياً ، إنما هي مسخّرة هنا لاغراض فكاهية بحتة ، بهدف تفجير البنيان الروائي من الداخل .

يستخدم لوتريامون اللغة احياناً بالطريقة الشائعة والمتداولة ، التقريرية والمباشرة ، لكن التأثير ، الذي يحدثه بواسطتها ، هو جد شعري . وهكذا نراه تارة يطلق على كتابته اسم نثر ، وتارة أخرى يلّقبها بالقصيدة . وهذا التنقل بين هذين المستويين الإنشائيين غالباً ما يتم على مدى فقرتين متجاورتين . كما عندما يعلمنا أن النشيد الأول ينتهي هنا ، وأنه سيبدأ بالثاني ، طالباً من القارىء أن لا يكون قاسياً جداً عليه لأنه لا يفعل بعد سوى أن يجرِّب قيثارته . ففيما نحن في هذا المناخ الكلامي العادي ، إذا بنا نرتفع فجأة ، في الجملة التالية ، إلى جو بلاغي مغاير ، حين يروح يخبرنا أنه وُلد على الشواطىء الأميركية . فأي عبودية للشاعر أن يرى نفسه ملزماً دائماً باللجوء إلى المجاز ، بتحميل المفردات رموزاً تتجاوز طاقة القواميس المألوفة ، وبمحو المعنى القديم للكلمات من أجل شحنها بمدلول جديد . لماذا نكبّد انفسنا باستمرار مشقة توليد الكناية والاستعارة ، في حين نستطيع ، في حالات معينة ، الحصول على النتيجة المرجوة ببعض الالفاظ البسيطة . احياناً لا تكون الفكرة والعاطفة اللتان نريد تجسيدهما بحاجة إلى البيان الشعري ، بل تكون طبيعة النثر صالحة أفضل للتعبير عنهما . فلماذا لا نعهد إليها بمثل هذه الوظائف عندما تقتضي الضرورة . ألا يتحتم علينا أن نقطع بعض الرحلات بالسيارة بدل الطيارة وفقاً لمسافة الطريق . ألا يترتب علينا أن ننجز بعض المهمات بالرفش عوضاً عن المعول ، حسب نوعية العمل الزراعي الذي نقوم به . إن المحارب الماهر يعرف أي سلاح هو أكثر فعالية لاحراز النصر ، ومتى عليه أن يشهر سيفاً ، ومتى يحلو قذف الرمح .

من هنا إن لوتريامون كان من اوائل الذين ساهموا في خلق قصيدة النثر .

إذ كيف يمكن للـذي رفض كل الضغوط الجمالية ، وحطم جميع الاشكال الفنية ، إن يرضخ لنير علم العروض . أنا بحاجة، كي اضبط الوزن والقافية ، إلى ثماني كلمات ، تملأ مساحة بيت من القصيدة . لنفرض أن الإفصاح عن شعوري أو خاطرتي يتطلب تسع أو سبع عبارات، ما عليَّ سوى أن احذف أو أضيف بيدقاً كي أعبىء الخانات الشاغرة بالعدد المحدد . لكن عملية البتر والحشو هذه قد يكون من مغبتها تزييف الحالة الانفعالية الذهنية التي حفزتني إلى النظم ، ماهمّ . يكفي أن أرَّجع صدى هذه التنغيمة الطفيفة المفروضة عليَّ بموجب قانون خارجي عني ، وُضع قبل ولادتي بآلاف السنين . إذا اخذنا بعين الاعتبار أن قواعد الموسيقى ذاتها تتغير ، وإن مؤلفاً سمفونياً حديثاً بات يرفض التلحين على طريقة بيتهوفن ، فأي سلطة تحكم علينا بالخضوع لقوالب ايقاعية متحجرة مضى على دوزنتها عشرات الاجيال . كم من مرة تُجبر القافية الشاعر على تحوير مضمون قوله ، من أجل إطاعة حتميتها الصارمة . كم من مرة تجرّه من طرف انفه ، وترغمه على إدراج كلمات ، ما كان ليختارها ، لولا عبوديته لضرورات التفعيلة . فهو إذا أنهى البيت الأول بحرف النون ، مضطر أن يختم الثاني بنفس الحرف وهكذا ينزلق غصباً عنه من « ريحان » إلى « رمان » إلى « سكران »، مع أن الرأي أو الانطباع اللذين حاول المجاهرة بهما قد لا يكون لهما أي علاقة لا بالورد ولا بالفاكهة ولا بالخمر . وهكذا إذا بالقوافي هي التي تملي عليه المعاني والأسلوب وطريقة الشعور والتفكير ، بدل أن تكون ترجماناً اميناً لما يعتمل بين جدران رأسه وحنايا صدره ، إذا بها تستعبده ، بدل أن تكون مطية له وأداة طيعة موضوعة في تصرفه كي يستخدمها للتعبير عن أدق خلجات حياته الداخلية . الترنيمة السالفة كانت « نيسان » وأنا مضطر كي اتناغم معها أن أضع بموازاتها حداً ايقاعياً متآلفاً هو « كروان » فأروح اخلق بيتاً كاملاً يتمحور حول تغريد هذا الطائر وليس له من مبرر أو هدف سوى أن يتيح لي أن استكين عند قرارة اللحن المرسوم لي آنفاً ، وأن أربط حبالي بطرف الوتد المضروب لي سابقاً ؛ أن أُلقي مرساتي في المرفأ الذي قذفتني إليه الأمواج عن غير إرادة مني ، وأن أبيض اخيراً هذه النون ، التي رحت احضنها مكرهاً ، منذ أن دوى جرسها في اذني في المحطة السابقة .

هبني اردت أن اجد تعريفاً لآخر كلمة في البيت وهي « انسان » فاني اروح أمّط الصفـات ، واستنفر النعـوت بنوع أن اختم البيت الـلاحق بلفـظة

« عنفوان ». بئس الرجل الذي تتغير خصاله بتبدل القافية ، التي لو كانت بحرف الباء ، لكان هذا المخلوق الآدمي تحوَّل إلى اريب أو لبيب ، أما لو كانت باللام ؛ فمن يدري لعله كان ليغدو ذليلاً ، وينقلب من النقيض إلى النقيض . أما لو حاولت العثور على تشبيه للفظة « صولجان » فإن رنين التفعلية يقودني حتماً إلى « مرجان »، ولكان يسوقني إلى « زمرد » أو « ياقوت » لو أنه بحرف الدال أو التاء ، وهكذا تتحدد نوعية الجواهر ، وتتم عملية المقايضة بالأحجار الكريمة تبعاً لهذه البهلوانيات الابجدية المجانية ، ولا نعود نبالي أن تكون الاستعارة مطابقة لموضوعها بقدر ما نهتم بضبط هذه الايقاعات الآلية . وهكذا ما إن نسمع القافية الأولى حتى نروح نتوقع الثانية ، ونتوجس ببقية حلقات السلسلة ، وفي معظم الاحيان تصح تنبؤاتنا : « التعبان » لا بد أن يشعر أنه « عطشان »، و « النشوان » لا مناص له من دخول بر « الامان ». وفي آخر الشوط ندرك أن الشاعر لا بد أن يختم عند هذا الحد قصيدته ، التي بدأها بأن رسم على تخمها الأول علامتين ألف ونون ، وكرّ مستعرضاً جميع مفردات القاموس التي تنتهي بهذين الحرفين ، وبعد أن استنفدها بكاملها ، لم يبق امامه سوى كلمة « بيلسان » ما أن يخطها حتى يتحتم عليه أن يتوقف .

كم من مرة في لعبة الكلمات المتقاطعة هذه التي يسمونها فن القريض يكون لديك مساحة شاغرة من ثلاث خانات عليك أن تملأها . فتروح تبحث عن عبارة معادلة لها من حيث عدد الحروف، حتى لو لم تكن مطابقة للحقيقة الجوَّانية ، التي تنوي كشفها لنا . وهذا مما يجبرك على استعمال الفاظ عفى عليها الزمن ، وما كنت لتلجأ إليها لو أنك طليق من قيود الوزن . وإذا ما زاد معك في الحساب حذفت الرقم الاضافي : « يكُ » بدل « يكن » و « ويك » عوضاً عن « ويحك »، التي قد تكون كلها مقحمة على النص وعشبة طفيلية لا لزوم لها اساساً سوى تكملة العدد وسد الفراغ . وإذا ضيّقت التفعيلة عليك الخناق عمدت إلى تحريف المفردات عن إملائها المألوف : « فِكَر » محل « افكار » و « أُخر » مطرح « اخرى »، أو إلى نفض الغبار عن الفاظ مُحنَّطة مدفونة منذ آلاف السنين في بطون الكتب الصفراء ، مسحوبة من التداول منذ اجيال واجيال . لذلك نرى قاموس النثر متطوراً أكثر من قاموس الشعر الموزون والمقفى ، الذي بدل أن يكون وسيلة لإحياء اللغة ، يصبح عاملاً في إماتتها .

إن ترجيع اصداء الروح عملية دقيقة للغاية ، قد يكون إضافة كلمة أو

حذف حرف قاتلاً لها . فهل نضحي ببكارة الفكرة واصالة العاطفة من أجل توليد رنة طرب تافهة ، نسبتها إلى النغمة الحقة ، هي نسبة طرطقة شوكة على حافة الصحن إلى معزوفة لموزار ؟ وما هو مبرر هذه اللعبة العمودية الخطرة ؟ خلق الإيقاع ؟ لكن هل النثر خالٍ منه ، هو الذي يستطيع أن يردد اغنية القلب ، ولحن الوجدان ، متجاوباً برنة صوتنا الخاصة ، وهدير حياتنا الداخلية المتميز . فكيف نستعيض عنه بدندنة خارجية رتيبة ومشاعة بين الجميع ، غريبة عن لهجتنا الشخصية ، لا تنقل إلى الآخرين تموجات اوتارنا الخفية . هل كلنا نحس ونفكر بأسلوب واحد ، هل كلنا حناجرنا متشابهة كيما ننشد على نفس الوتيرة ، ولنفرض أن هذه الترنيمة شجية ، ألم تمل آذاننا سماعها طوال كل هذه القرون ؟ لا ، إننا بأسم الموسيقى ذاتها يجب أن نتحرر من الوزن والقافية .

● ● ●

- ٩ -

لم يكن لوتريامون ، بحسب شهادة ناشره ، يكتب إلا ليلاً ، جالساً إلى معزفه ، منشداً جُمله المسبوكة في قالب سمفوني مدهش ، الموَّقعة في انغام مؤتلفة بديعة . لكننا لا نستطيع التأكد من صحة هذه الأسطورة التي تبنّاها الكثيرون دون تمحيص ، ومن بينهم اندريه مارلو وفيليب سوبولت، إلاّ إذا استنطقنا آثاره ذاتها ، التي تربطها حقاً علاقة وثيقة بالموسيقى ، التي هي من بين الأشياء القليلة النادرة ، التي وّفرتها شتائمة في « الاناشيد » :

- « إذا تطايرت التساوقات من اوتار آلة ، فاني اسمع بشهوة حسية هذه العلامات الموسيقية المجوَّهرة التي تفلت بايقاع عبر موجات الجو المرنة . إن الادراك الحسي لا ينقل إلى سمعي سوى انطباع يحتوي على عذوبة قمينة بتذويب الاعصاب والفكر ؛ غفوة فائقة الوصف تغلّف بخشخشاتها السحرية ، كما بستارة تخفّف من وهج نور النهار ، القدرة الفعَّالة لحواسي والقوة الحية لخيالي[١] » .

من هنا صيحته :

(١) النشيد الثاني: المقطع ٨.

ـ « إن الجهورية الجبارة والملائكية للقيثارة ستصبح تحت انامليّ ، طلسماً سحرياً مخيفاً[1] ».

وهو يعتذر من القراء عن جملته الطويلة ، التي لن يتنازل عن قناعته بها ، إرضاءً لاذواقهم . لأن نفورهم منها هو في غير محله ، بما أنها تؤدي غايتهافي أن تلاحق بمبضع التحليل تجليات الحقيقة العابرة حتى آخر معاقلها . مع أنه يعترف احياناً هو ذاته أنه لم يعد يتذكر بدايتها لذلك نسي ما كان في نيته أن يقوله ، فكم بالحري المتصّفح المتعجل .

إن أول مهمة موكولة إلى الكاتب هي أن يسلك المفردات الواحدة بالأخرى داخل الجمُل ، التي عليه فيما بعد أن يربط فيما بينها ، لأنها إذا ظلت منفصلة عن بعضها ، ومركبة من كلمات متفككة لا يكون هناك شيء اسمه تأليف . فالاديب لا يبدع إلاّ من خلال الغنى الروحي الكامن فيه ، أي عندما يرقى إلى مناخ الابدية ، التي هي وحدة تامة غير منقسمة ، والتي يجب على الجمال أن يحاكيها بأن يكون هو أيضاً بسيطاً خالياً من الاجزاء . الجسد المتزمن المتكثر يرّجع اصداء اللسان أي أنه يحكي . أما الروح السرمدي المفرد فإنه يجمع الالفاظ، يصهرها كلها في بوتقة واحدة ، يحوِّلها إلى معدنه ، ويُسمعنا صوت القلب ، أي أنه يغني . وهو يختار لايصال نشيده إلى البشر صفوة من ابنائه المميزين هم الشعراء ، ويودع في صدورهم انغامه الداخلية ، التي ينقلون إلى آذاننا هديرها العذب بمجرد أن ينطقوا .

فجميع الجُمل المحمولة على نفس التيار الشعوري ، تشكل كياناً واحداً ، لأن الجيشان العاطفي يدغمها ببعضها ، بأن يعيرها بدايته ونهايته المتماثلة ، وبأن يجثم هو ذاته على حدود كل منها ، وبذلك يُزيل التخوم والحواجز القائمة فيما بينها ، ويلمّ شتاتها في شريط مشترك متصل لا إنقطاع فيه . لكن هذا الانفعال كي يولد النغمة يجب أن يكون صادقاً ، صادراً حقاً عن الفؤاد ، الذي هو النبع الاصيل لكل موسيقى . وما اندر الفنانين الذين يعرفون أن يعطونا لهجة الاحساس المضبوطة ورنة صوته الصحيحة (لا إنعدامه الذي يقود إلى البرود ، ولا المبالغة فيه التي تُفضي إلى الميوعة) . فالجملة هي لهاث الصدر ، ونبضات القلب ، الذي يوّحد اجزاءها المادية بفضل عنصره الروحاني .

---

(١) النشيد الرابع: المقطع ١.

لنفرض أن سورة من الغضب ، ومن الرغبة في الانتقام من الخالق استولت على لوتريامون ، فإنه ، عبر كزكزة اسنانه ، وشحنة توتره يدمج العبارات في موجة واحدة يجرفها زخمه الوجداني ، الذي تنبثق لدى انطلاقه ، وتهمد بخموده ، تومض معه ، ومعه تنطفىء ، متدفقة بين ضفتيه ، حيث تبقى متماثلة مع نفسها دائماً .

كما أن العقل هو الذي يتولى احياناً أخرى مهمة الربط بين فقرتين : كأن تقرر مثلاً الأولى حقيقة ما ، فتستطرد الثانية : وانى لهذا الأمر أن يحصل لولا حدوث هذا الفعل أو ذاك . نعم أن حَبك المفردات في نسيج واحد يتطلب احياناً منطقاً صارماً ، وفكراً متماسكاً . وخير مثال على ذلك نجده في أول مقطع من « الاناشيد »، الذي هو جملة طويلة واحدة مؤلفة من سبعة اجزاء :١°) رجاء -٢°) لماذا نلح في هذا التضرع ؟ لأنه يترتب على عدم تحققه عواقب وخيمة -٣°) لماذا ينتج عن إهمال هذا الالتماس كل هذه الأضرار الجسيمة -٤°) ما هو الإجراء الواجب إتخاذه على ضوء هذا الواقع ، ولتلافي هذه المطبات الخطرة -٥°) تكرار هذا القرار نظراً لحتميته واهميته -٦°) مقارنة اولى للخطة المزمع تنفيذها -٧°) تشبيه ثان لها (وهذا المجاز الأخير يتفرع بدوره إلى عدة تشعبات متشابكة) .

إن الكاتب الحق هو الذي يعرف في بيانه أن يعلو ويهبط كالأمواج . هو الذي تنبؤه غريزته متى يوقف المد البلاغي ، ومتى يكمله . هو الذي تتكوَّن الجملة في رأسه أولاً على شكل نغمة ، تُجبره أن يملأ المسافة الروحية التي ترسمها قدامه بعبارات ؛ وعلى صورة حركة يقذفها امامه ويتبعها سابحاً على العماء إلى أن يصل إلى آخر مدى يؤدي إليه هديرها الداخلي ، ويتحسس بيديه بر الامان ، مضطراً في بعض المرات إلى إضافة الفاظ كان في غنى عنها ، عندما تنذره حاسته الايقاعية ، بأن عليه أن يضع أيضاً أربع أو خمس كلمات قبل أن يقفل الوصلة لأن رئة النص تقتضي ذلك .

وهكذا يُخيل إلينا احياناً أن فصاحة لوتريامون هي لسعات سوط ، يرسلها أمامه ، لا بهدف أن يجلد احداً بها . بل للذة الاستماع إلى تموجاتها المرنانة في الاثير . إذ أنه قد يعمد ، لاعطاء اللحن امتداده الطبيعي ، إلى تضخيم اسم الفاعل إلى سبع كلمات ليسد الفراغ بينه وبين الفعل ، الذي لو أنه حدد مرتكبه بكلمة واحدة ، لما كان الزخم النغمي استوفى حقه من الترجيع ، ولكان النَفَس

الشعري انقطع في نصف الطريق ، واختنق صوت المغني . وسندرس الآن ثمانية انماط من الجُمل الطويلة في « الاناشيد » لنقف على سر تركيبها :

ـ ١°) **الجملة الاستفهامية** : إننا ، لكي نجمع الفقرات ، يجب أن نخلق بينها قاسماً مشتركاً ، يصهرها كلها ، في ذهن القراء ، في نفس الدفقة ، ويلفت نظرهم نحو مركزها الاستقطابي ، والمحور الثابت ، الذي تدور حوله بحركاتها المتعددة . ففي مطلع النشيد الثاني تذوب عشر جُمل ببعضها لتشكيل نواة واحدة ، وذلك بفضل هذا الاستفهام : أين ذهب نشيد مالدورور الأول ؟ الذي يصبح هكذا السلك الخفي ، الذي يلمّ الحبّات المتفرقة في مسبحة متجانسة : ١°) يستفسر ـ ٢°) يحدّد موعد إختفاء الأثر الضائع ، الذي يبحث عنه ـ ٣°) يكرّر السؤال ـ ٤°) يجيب بأنه ليس على إلمام بمكان احتجاب القصيدة المفقودة ـ ٥°) يتكهن : إذا كنت أنا لا اعرف ، فمن عساه يعلم. ليست الاشجار ولا الرياح هي التي احتفظت بالمخطوطة التائهة ـ ٦°) يتساءل : إذا كانت عناصر الطبيعة هذه لا تدري ، فمن تراه يفعل : علم الاخلاق ؟ ٧°) إن هذا الأخير ليس لديه الخبر اليقين هو أيضاً ـ ٨°) يعلن سبب هذا الجهل ـ ٩°) يحدثنا عن النتيجة المترتبة على هذه الغفلة ـ ١٠°) يُطلعنا على العبرة التي يمكن إستخلاصها بعد تعذر العثور على الصفحات المتوارية . من هنا هذه النغمة الشجية التي تضرب اذننا ، ونحن نقرأ هذه السحبة المديدة المكوَّنة من عشرة اقسام متداخلة متمازجة ، المتهدهدة بنا فوق مدها وجزرها . وأنى لها ذلك لو لم تكن اجزاؤها مترابطة ، إذ أن تفكك الحركة يعني إلغاءها .

٢°) **الجملة الندائية** : في المقطع العاشر من النشيد الثاني تلتئم الجُمل عبر منادى مشترك هو « علم الرياضيات ». وكأنها كلها اضمومة زهر مرفوعة إليه . إنها صوت واحد ، بما أنها موَّجهة نحو نفس الأذن . إنها خطاب مفرد ، بما أنها تحاور ذات المستمع ، الذي يظل راسخاً على حاله لا يعتوره تبدل . إنه الخلود وسط الزمان ، والبقاء في خضم الفناء . إنه الثبات في غمرة التغير ، واللازمة التي تتكرر هي إياها ، لتذكرنا اننا بصدد نشيد واحد مترابط الاجزاء ، نتقدم ونتقدم في فيافيه ، دون أن نتخطى حدوده .

في مطلع المقطع الثاني عشر من النشيد الثاني يشعر لوتريامون أنه مضطر إلى إنهاء الجملة ، قبل أن يكون الزخم الانفعالي المؤلد لها قد خمد فيه ، فيتحول إلى صيغة المنادى ، كما ليعني : اسامع أنت ما قلته ؛ إن كل ما تقدم كان معمولاً

كي تعيه أنت أيها الكائن الذي ادعوه ، وكل كلامي السابق لم يكن إلا باقة من الورد اودعها تحت اقدامك ، وتوطئة لافتح معك الحوار . كان لا بد من بعض الأفكار التمهيدية والايضاحات تهيىء لك السبيل كي تفهمني ، رأيت لزاماً عليَّ أن أُبديها امامك ، قبل الشروع في الحديث معك . وبذلك يصبح كل ما سلف متحداً منصهراً بهذه العبارة الهتافية الجديدة ، بما أنها تحضير له ، وكأنها تعلن : إن السطور التي طالعتموها آنفاً لم تكن سوى هوامش على المتن ، سوى مقبلات للاخبار الشائقة التي سأرويها عليكم الآن . الحاصل ، في الخلاصة، ما همنا ما ورد أعلاه ، دعونا نولي انتباهنا الآن للأمر الضروري ، وننسى التوافه ، وندشن مباحثاتنا الجدية ، التي لم تكن مفاوضاتنا الماضية بالنسبة لها سوى نوافل ، ودوزنات اوتار قبل إطلاق المعزوفة الحقيقية . وبما أن المرافعة الفعليـة تبدأ في هذه اللحظة ، فإن المداولات السابقة لم تنتهِ ، بل أُرجىء البت بها إلى جلسة الاستئناف ، التي نفتتحها الآن . وأول بادرة عليك القيام بها للشروع في حديث مع شخص هو أن تدعوه باسمه مسبوقاً باداة النداء « يا »، التي هي بدء المحاورة الصحيح المؤجل ، الذي يشد ويجذب إليه كل ما تقدمه من جُمل ، يجمعها ، يمنعها من التلاشي ، ويُبقيها صامدة إلى أن تلتحم به ، ويحافظ على ديمومتها إلى أن تلتقي بموعده .

٣°) الجملة الشرطية : في مطلع المقطع السادس من النشيد الرابع تتحالف ثماني جُمل بفضل الصيغة الشرطية : ١°) يعرض خَدَره الحسي ـ ٢°)، يحكي عن ملاحقة نعامة في الصحراء ـ ٣°) إذا كان المطارد هو الذي سيقرؤه فإنه سيدرك ما هو تخشب الاعضاء التي يعاني منها كاتب السطور ـ ٤°) لكن إذا كان الذي سيطالعه شخصاً آخر هو غريق في البحرِ ـ ٥°) إذا لم يبقَ من كل طاقم الملاحة غير هذاالهالك على الطوف ـ ٦°) إذا أُرجح الموج هذا المنكوب ـ ٧°) إذا لمحت فرقاطة هذا المستغيث ـ ٨°) فإن هذا الأخير سيفهم أيضاً حالة التبلّد التي يمر بها الشاعر . إننا نبقى متلهفين إلى معرفة ماذا سيحدث في حال حصل هذا الأمر أو ذاك أو ذيالك . إن الفقرات هنا تلتحم ببعضها بواسطة كلمة « إذا » وتتمحور كلها حول هذه الاداة الصغيرة ، التي نظل معلّقين بها ، محمولين على اجنحة طيرانها البعيد المدى ، والتي كانت واقفة على بداية الشوط ، بمثابة السبب وسؤال الشرط ، وتستمر جاثمة على نهايته بمثابة النتيجة وجواب الشرط. وكل ما يحدث بين نقطتي الانطلاق والوصول المتماثلتين هاتين هو

واحد . لأن الابدية ، التي ينبثق منها الزمن ويفضي إليها ، هي التي تجمع ذراته المختلفة ، التي كانت لتتبعثر بدونها ، وتضمحل ، وتنحل إلى لا شيء . من هنا أن عنصر التوحيد بين العبارات هو اشبه بالسرمدية ، التي تصبح بفضل الحدين الثابتين ، اللذين تضعهما على مطلع وختام الحركة شرط قيامها ، وعلة وجودها .

في المقطع التاسع من النشيد الثاني يحَبُك ثماني جُمل بفضل كلمة « طالما » : ١°) ينادي القملة ليقول لها : ٢°) طالما أن الانهار ستصّب . . . ٣°) طالما أن الكواكب ستدور . . . ٤°) طالما ان الفراغ لن يكون له أفق . . . ٥°) طالما ان الانسانية ستمزق . . . ٦°) طالما ان العدالة ستقذف . . . ٧°) طالما ان الانسان سيتجاهل . . . ٨°) فإن سلطانكِ سيكون مضموناً . . . عندما تناهى إلينا النداء بتنا نترقب أن يفصح عما يريد أن يقوله لهذه الحشرة . لكنه يرجىء إطلاعها على هذا الأمر حتى نهاية الحوار . ويروح يعدّد على مسمعها ست حالات سينجم عن استمرارها بالنسبة لمخاطبته وضع لن يبوح لها به إلا في الفقرة الأخيرة . كم نرتاح عندما نصل إلى القفلة الختامية ، إلى قرارة الموجة ، الى هذه القمة التي كانت العبارات منذ مستهلها تتوجه نحوها ، وتجهد لبلوغها .

وفي آخر المقطع الثامن من النشيد الثاني تتآلف ست جُمل حول كلمة « عندما » : ١°) عندما تسمعون الجُرف يهوي . . . ٢°) . . . اللبوءة تتشكى . . . ٣°) . . . العاصفة تحقق مصيرها . . . ٤°) المحكوم بالاعدام يجأر . . . ٥°) . . . الاخطبوط يروي . . . ٦°) قولوا الحقيقة . إن موسيقية هذه الجملة التي تبدأ بأداة الظرف « عندما » (سؤال الشرط)، وتنتهي بفعل الأمر : « قولوا » (جواب الشرط) تضفي رونقاً على فحواها . بنوع اننا لا نكاد نصل إلى التتويج النهائي : « . . . أليست اجمل من ضحك الانسان . »، حتى يتضاعف شعورنا بعظمة الفكرة ، وإستهوالنا لبشاعة الابتسامة البشرية ؛ ونصبح مهيئين ، بفضل المواكبة النغمية التي رافقت هذا العرض المستفيض منذ مستهله ، للموافقة على كل ما ورد فيه ، والاعجاب بعمقه ، والتأثر بمفعوله . وكأن رجع الصدى المتجاوب من ذيل هذه الجملة المتلاحمة - التي لوتفتتت لتحولت إلى لا شيء ؛ والتي ما انفكت ، منذ إنبثاقها ، تقذفنا وتقذفنا إلى الذروة ، وهناك أي علو نحس اننا ارتقيناه من طول وزخم الدفع - هو العطر الزكي المنبعث من باقة ورد مستترة ، اودعتها يد خبيرة عند طرف البستان .

٤°) **الجملة الحالية** : في المقطع التاسع من النشيد الأول تمتد جملة طويلة مكوَّنة من سبع صيَغ حالية بين حدين : أ) **بدايتها** : « عندما تتقدم » ب) **نهايتها** : « فإننا نرى ». وجميع العناصر التي تأتي لتتراكم بين هذين التخمين تتوحد . لاننا منذ أن انبثقت اداة الظرف « عندما » عند نقطة الانطلاق بتنا نتلهف إلى النتيجة ، ونترقب أن يعلن لنا اخيراً ماذا يحصل في حال تحققت كل هذه الأمـور : ١°)ـ عندمـا تتقدم وقنـزعتك عـالية ومخيفـة. . . ٢°) محاطـاً بتثنياتك . . . ٣°) ممغنطاً وعاتياً. . . ٤°) مدحرجاً امواجك. . . ٥°) واعياً قدر نفسك. . . ٦°) وأنت تدفع هذا الخوار الأخرس. . . ونظل هكذا حابسين انفاسنا نريد أن نعرف ما هي العواقب المترتبة على بروز كل هذه الاوضاع . وأخيراً بعد طول انتظار ، وبعد رحلة مديدة عبر تيار الكلمات ، نصل إلى المحجة : ٧°) فإني ارى إذ ذاك اني . . . حتى ليخيل إلينا عندما نتنشق هواء عبارة « خوار اخرس » بعد أن لجمنا لهاثنا كل هذه المدة ، اننا نسمع رنة موسيقية تتجاوب من هاتين المفردتين . وان هذه الجأرة البكماء التي تنبثق من اغوار المحيط ، إنما تنبعث من اعماق صدرنا نحن المحمولين على امواج الالفاظ ، التي تصبح بفضل إنشدادها إلى بعضها غنية بالاصداء ، فنتهدهد بها ، ونعلو ونهبط على مدها وجزرها .

٥°) **الجملة الاحتمالية** : احياناً يأخذ لوتريامون شيئاً ويقارنه بثلاثة ترجيحات : إما كذا . . . وإما كذا . . . وإما كذا. . . . فتندغم الفقرات الثلاث ببعضها بفضل وحدة المشبَّه . اما في المقطع الثالث من النشيد الخامس فإنه يصبّ جملة من اربعة فروع في القالب الاحتمالي : ١°) البجعيات اربعة اجناس ـ ٢°) هذه الصفة لا تنطبق على الصنف الأول . ٣°) وتلك لا تتوافق مع النوع الثاني ٤°) وهاتيك لا تتناسب مع النموذج الثالث . والنتيجة الحتمية لكل ذلك هو أن ما نراه امامنا لا يمكن أن يكون ، بعد دحض التكهنات المذكورة اعلاه ، سوى من الفصيلة الرابعة . ـ

٦°) **الجملة المحورية** : في المقطع الثامن من النشيد الأول تتمحور تسع عشرة جملة حول كلمة « ضد »، عندما يروح الشاعر يذكر لنا الأشياء ، التي تنبح الكلاب ضدها ، معدِّداً هكذا جميع المشاهد ، التي تعمر بها جوانب الليل ، وكل الجمالات التي تتألف منها روعة الدجى : فهذه الحيوانات توِّجه عواءها بالتناوب ضد : ١°) كل من الجهات الاربع التي تنتثر فيها النجوم ـ

٢°) القمر ـ ٣°) الجبال ـ ٤°) الهواء ـ ٥°) صمت الليل ـ ٦°) البوم الاصمع ـ ٧°) الارانب ـ ٨°) اللص . ـ٩°) الثعابين ـ ١٠°) نباحاتها بالذات ـ ١١°) الضفادع ـ ١٢°) الاشجار ـ ١٣°) العناكب ـ ١٤°) الغربان ـ ١٥°) الصخور ـ ١٦°) النيران التي تظهر عند صواري السفن ـ ١٧°) صخب الامواج الأصم ـ ١٨°) المستنقعات ـ ١٩°) الانسان الذي يستعبدها . ـ وكل واحدة من هذه الكلمات التسع عشرة تنبسط إلى جملة مفًصلة ، مرتبطة بفضل اللازمة التمهيدية « ضد » ببقية وحدات السلسلة ، التي يجمع بينها قاسم مشترك هو ان نباح الكلاب يتردد هو إياه عبر كل حلقاتها ، وهذا مما يؤآلفها كلها في نغمة واحدة ، والتي ما إن نخرج من نفقها الطويل حتى نشعر اننا ندخل في مرحلة جديدة ، وندشن عهداً حديثاً ؛ اننا ننتقل إلى بلد آخر ، ونتنشق هواءً مختلفاً تستقبله رئتانا بترحاب ، وكأنه دعوة إلى الانطلاق في نزهة طريفة ، والتنفس بعد ضغط الاختناق ، الذي ابقانا فيه تسعة عشر شهيقاً متواصلاً ، والذي لا يكاد يفلتنا فجأة حتى يكون قد صار لدينا زخم لطفرة بكر ، واكتسبنا حق الدخول إلى مناخ نغمي مغاير ، يوحي إلينا أن ديمومتنا مملوءة بشرائح زمانية متمايزة واضحة المعالم . فقط عندما نكظم نبضات صدرنا طويلاً نقدّر قيمة أن نزفر من جديد ، وفقط عندما نظل محصورين امداً بعيداً ندرك ما هي لذة أن نعبّ الهواء النقي ثانية ، وان نطفر إلى العراء .

في المقطع الثالث من النشيد السادس تدور اربع جُمل حول مركز مشترك هو عبارة « جميل ك . . . » ١°) جميل كأنقباضية المخالب . . . ٢°) أو أيضاً كتردد الحركات . . . ٣°) أو بالاحرى كفخ الفئران (هذه المقارنة ذاتها تتفرع إلى عدة تشعبات) . . . ٤°) وخاصة كاللقاء . . . الحديث يبدأ باستعارة ننتظر أن تنتهي كي نختم الحوار ، ونعتبره ناجزاً.لكن هذا التشبيه يمتد على مدى اربع نفدات متتالية . عدا كون هذه المجازات مربوطة الواحدة إلى الاخرى بخيط واحد هو « جميل ك . . . »، فإن الشاعر يشدها إلى بعضها مزيداً ، بأن يضع على مطلع كل منها ادوات وصل اضافية من نوع : « أو أيضاً » . . . « أو بالاحرى . . . » . . . « وخاصة ».

في المقطع السابع من النشيد الثاني تلتف ست جُمل حول نقطة استقطاب متماثلة هي حرف « ب ». كلها تنبجس من نفس النبع : « استحلفك ب . . . » وتتدفق نحو ذات المصب : « ان لا تمس ». والاجزاء التي لها بداية

ونهاية متطابقة ، تشكل كياناً واحداً : ١°) استحلفك بروح المغامرة . . . ٢°) بالعذابات . . . ٣°) بوطنك . . . ٤°) بفرسك . . . ٥°) بالكرامة . . . تناشده بكل هذه الأمور من أجل ماذا ؟ اننا نظل منتظرين الحكم عبر كل هذه الحيثيات إلى أن يصدر اخيراً : ٦°) ان لا تمس بيدك . . .

٧°) **الجملة المتوازية** : في المقطع الخامس من النشيد الثالث يأخذ لوتريامون ثلاث جُمل مزدوجة ، شق كل منها الأول يبدأ بسين المضارع ، علامة المحاولة ، والثاني يعترض عليه بكلمة « لكن »، دليلاً على الفشل . وكلها تتناغم فيما بينها ، بما انها ثلاثتها مبنية على نفس الايقاع ، وتحتوي على ذات الفحوى : سيجرب ان يهرب ، لكن لن يستطيع : سيقوم بالمسعى الفلاني ، إنما ستواجهه هذه العقبة المحددة ـ فيعمد إلى اسلوب آخر ، يصطدم بعائق معين هو أيضاً ـ وإذ ذاك يستعمل وسيلة ثالثة لا يكون نصيبها بدورها سوى الإخفاق : ١°) أ ـ سيذهب ليخفي حزنه . . . ب ـ لكن حفيف الأوراق سيغني له موَّشح الندم . . . ٢°) أ ـ سيتوجه نحو حصى الشاطىء . . . ب ـ لكن المد الصاعد سيخبره انه لا يجهل ماضيه . . . ٣°) أ ـ سيدفع ركضه نحو رأس الشاطىء . . . ب ـ لكن المنارات ستلاحقه . . . إذن نقطة انطلاق ووصول واحدة ، وبين هذين الحدين عدة إستهلالات وختامات متماثلة فيما بينها ، ومتطابقة مع هذه البداية والنهاية الشاملة ، تتآزر على تشكيل نواة زمانية متجانسة متماسكة .

في المقطع الأول من النشيد الرابع تتكاتف ثلاث جُمل كل منها مبني على مقارنة بين وضعين أ) ـ بعض عناصر الطبيعة من حيوان ونجوم وانسان . ب) ـ حالة الشاعر ، تأتي النتيجة دائماً لصالح الحد الأول : ١°) أ ـ طنين اجنحة الزنابير . . . ب ـ ليست بشيء مع طنين اجنحة ألمي ـ ٢°) أ ـ النجم المذنَّب لا يعي غيابه ثمانين عاماً عن منطقة ما من السماء . . . ب ـ بعكس ما هو حاصل بالنسبة لي . ٣°) أ ـ النوتي يأوي إلى سريره بعد تأدية نوبة حراسته الليلية . . . ب ـ بينما أنا محروم من هذه التعزية .

في المقطع الرابع من النشيد الخامس تتأرجح ثلاث جُمل بين هذين القطبين أ ـ لقد اراد هذا الأمر . . . ب ـ فحدث ذاك : ١°) أ ـ لقد شاء أن يمسك بأعنة الكون . . . ب ـ لكنه لا يعرف ان يحكم . . . ٢°) أ ـ لقد شاء ان يصبح

موضوع رعب . . . ب ـ ولقد افلح في ذلك . . . ٣°) أ ـ لقد شاء ان يبرهن . . . ب ـ وهذا ما اخطأ به .

في المقطع السابع من النشيد السادس تتضافر ثلاث جُمل مزدوجة بفعل تكرار كلمة « ها » في وسط كل منها : ١°) أ ـ انه يقوده إلى المطعم . . . ب ـ وها هما يأكلان . . . ٢°) أ ـ انهما يذهبان إلى الخياط . . . ب ـ وها المحمي انيق الملبس كأمير . . . ٣°) أ ـ انهما يدقان على باب عمارة . . . ب ـ وها المجنون يقيم في شقة فخمة .

٨°) **الجملة الممددة** : طويل كل ما نهايته نائية عن بدايته . إذن المباعدة بين نقطتي الانطلاق والوصول هي وسيلة لتمديد الجملة ، التي تدوم بنسبة ما نرجىء خاتمتها . وهذا الاسلوب يلجأ إليه لوتريامون احياناً ، كما في المقطع السادس من النشيد السادس ، حيث يمد حبلاً بين أول كلمة : « اليوم » وآخر عبارة : « اجدني جميلاً »، وبين هذين الوتدين تأتي عدة الفاظ لتأخذ مكانها . كان من المفروض أن يتبع الفعل مباشرة موعد حدوثه ، لكن الشاعر أقصى الانجاز عن تاريخ حصوله . حتى إذا ما تحقق اخيراً المشروع الذي حدد لنا النص منذ البدء زمن تنفيذه ، شعرنا بفرح ، وربطنا بين أول اللحن وآخره ، فيكتمل هكذا العقد ، ويصدق الرجاء ، ويتم اللقاء المنتظر بين طرفيّ الدائرة . انه يعلن « اليوم »، فنتوقع ان يعلمنا ماذا حصل في هذا الظرف بالذات . لكنه يتريث في ذلك ، ويضع فاصلاً يملوءه بعدة انغام : ـ تحت تأثير الجراح ـ بفعل قدرية ولادتي ـ مُرهقاً بعواقب سقوطي ـ شاهداً عـديم الاحساسٍ ـ ألقي نظرة . . . ثم يكشف لنا اخيراً ماذا حدث في هذا النهار : « اجدني جميلاً ». اننا منذ إستهلال هذه الجملة ندرك انها لم تبلغ حدها ، طالما انها لم تخبرنا بعد ماذا جرى خلال هذا الوقت ، الذي رهنتنا به . وهذا مما يُبقي فقراتها معلّقة حتى صدور الايضاح الشافي .

وهكذا غالباً ما تكون عدة عوامل قد هيأت لبروز العبارة ، التي ما إن تظهر على هذا النحو ، بعد أن نكون قد تلّهفنا إليها طوال هذه المدة ، حتى نبتهج لذلك ، وكأننا نقابل شخصاً مأمولاً ، يوافينا إلى اللقاء المتفق عليه ، في المهلة المضروبة . فلكي تبدأ هذه المرحلة جيداً ، يجب أن يكون الطور السابق عليها قد انتهى بشكل مُرض هو أيضاً ، قد احتجزنا ضمن نطاقه لفترة مديدة ، حتى إذا اطلق سَراحنا اخيراً ، شعرنا اننا نُقلع ثانية ، ونجوس في

مجاهل ارض عذراء . يجب أن نشعر اننا ننتقل من درجة إلى أخرى ، وهذا لا يتم إلّا إذا كانت الشحنة السابقة قد خلقت توتراً ، قد عوَّدتنا على جو معين ، نحس عندما نغادره اننا نتحول إلى مناخ آخر ، قد دامت ردحاً كافياً ، ونجحت هكذا في أن تخلق لنفسها قواماً متميزاً ، وكياناً متفرداً ، نلمس عندما نهجره اننا نحط في اقليم مغاير .

عندما يكون الدفق الشعري طبيعياً ، ومنهله صافياً ، تكر موجته بطلاقة وسهولة ، ولا نحس أن هناك عوائق تعترض تياره ، ولا حواجز بالتالي تقف بين جُمله ، وتمنعها من الانصهار ، والاندفاع بزخم كلها معاً نحو مصبّها . من هنا انه يخيل إلينا ونحن نقرأ لوتريامون ، اننا نشهد انبجاسات نبع سلسبيل . لقد كتب يافعاً ، مما اكسب شعره شباباً روحياً ونضارة فكرية فريدة من نوعها . الكلمة عنده لم تتعهر بعد بكثرة التداول . انه يستعملها لأول مرة ، وهي في كامل بكارتها . انه لا يزال مفتوناً بها كعاشق يشاهد عروسته ، وهي تتعرى امامه ليلة الدخلة . لكن مع العادة تفقد تقاطيع جسد الزوجة كل جاذبية وفتنة وإغراء في عين قرينها ؛ انها الولادة الأولى ، وباكورة العطاء ، عندما تكون الأرض بعلاً ينبت فيها الزرع بقوة وخصوبة ؛ انها نكهة الخمر البتول قبل أن يفسدها الادمان المتمادي على السكر ، وتفتق البراعم اللفظية في عز روائها ورونقها في الذهن قبل افول ربيعه .

ـ « من أجل تمشيط جُملي ، ساستعمل إضطراراً المنهج الطبيعي ، متقهقراً حتى المتوحشين ، كيما يعطوني دروساً . اسياد بسطاء وجليلون ، فإن فمهم الظريف يضفي النبل على كل ما يسيل من شفاههم الموشومة[١] » .

لهذا السبب قد يجد البعض اسلوب لوتريامون ساذجاً ، غير مدركين ما ينطوي عليه من عمق . إذ انه لا يراعي الشكليات ، ولا يهمه سوى شرح افكاره ، التي تخفى عظمتها على القارىء العادي ، والتعبير عن مغامرته الروحية الفريدة ، متجرِّداً من المظاهر السطحية والمتشككة للعبارات المستعملة عادة في الحديث والكتابة . (فالشعر الحقيقي هو الذي يرفض اللغتين المدوَّنة والمحكية ، من أجل أن يخلق بدلهما قاموساً اصيلاً خاصاً به لا يمت اليهما بصلة) . لكنه إذ

---

(١) النشيد السادس: المقطع ٢

يرفض الاستعمال العادي والدارج للكلمة ، لا يقع في النقيصة المضادة : خطأ التصنع والتكلف ، انه اذكى من ان يسقط في مثل هذا الفخ . انه ينجح هكذا في ان يخلق نمطاً إنشائياً غير شائع ولا مألوف ، وبذات الوقت طبيعي وبسيط .

إن الاسترسال إلى اللاوعي ، وتعطيل قوة الرقابة التي يمارسها المنطق على الوجدان هما تسهيل لعملية الابداع . من هنا ان لوتريامون يستسلم احياناً كلية لامواج الهذيان ، كما في المقطع الثاني من النشيد الرابع ، حيث يروح ينفي في التصريح الثاني ما سبق وأدلى به في الأول ، ويصفّ النعوت إلى جانب بعضها ، وكأنه فقد العقل ، والقدرة على التمييز ، وبات عاجزاً عن اختيار الصفة المناسبة . . . ثم يقطع السياق ليعود إلى فكرة اضطر إلى بترها تحت ضغط الاضطراب الذهني . . . وها هو ينفي كل شيء بمعنى انه فقد ملكة الاستدلال والادراك كلية ، وبالتالي الطاقة على إبداء رأي ، ولسان حاله يقول : هذا اقصى ما استطيعه ، وما تتيحه لي حالة الوعي الطفيفة التي لا ازال محتفظاً بها . لكأنه يريد ان يُنهي الموضوع ، ان يسير في إتجاه وإن خاطىء ليحسم الجدل ، لان حالة التضعضع الفكري ، التي يعاني منها ، لم تعد تسمح له بالمماحكة . لقد دخل طور الخبل . انه سكير ليس مسؤولاً عن فحوى ما يصدر عنه من تعتعات . حتى ليخيل الينا في ختام هذا المقطع انه يكتب في سورة من الجنون . خاصة عندما يضرب البرجين باثنين فيكون المحصول اربعة . وإذا كان هو ذاته لا يتبين ضرورة هذه العملية الحسابية ، فكم بالحري يجب أن لا يجد احد ممكناً ، عندما يمر في هذا الموضع ، ان يضاعف ارقام هذين الصرحين . لكن دهشتنا تبلغ ذروتها ، حين يعلن انه لن يعود قط الى العبور في هذا الوادي ، حيث ترتفع وحدتا العدد المضروب !

● ● ●

- ١٠ -

يؤكد لوتريامون في « اشعار ـ ٢ » ان هدف الشِعر صعب للغاية ، وهو يتمثل في إكتشاف العلاقات العامة الموجودة بين المبادىء الأولى ، ووقائع الحياة الثانوية ، بالاضافة إلى القوانين التي ترتكز عليها التربية والقضاء والاقتصاد وعلم النفس والسياسة العملية . انه بهذا المفهوم يسدي انفع خدمة للمجتمع . انه شبيه بكرازة الانبياء ، الذين كانوا يموتون جوعاً ، ويتعرضون للاضطهاد ،

من اجل تبليغ البشرية رسالة روحية ما . من هنا هذا الجو الميتافيزيقي ، الذي تغرق فيه « الاناشيد »، حيث ينتقل الشاعر من حوار مالدورور مع حفار القبور إلى تأملات حول الموت ، ومن نعش ولد في العاشرة يسير نحو المقبرة إلى مهاجمة مبدأ خلود النفس ، والتهكم على الوهم الديني ، الذي يعلّلنا بأن الوفاة هي بمثابة إنعتاق وخلاص وراحة من المتاعب الدنيوية ، واستعداد لاستقبال مباهج الآخرة ، حيث سيتاح لنا أن نقابل من جديد اهلنا واحبابنا . فالقصيد الحقيقي هو الذي يطرح التساؤلات الفلسفية الكبرى ، ويذهب إلى الحدود القصوى في البحث عن اسرار الوجود ؛ والذي لا تستطيع ان تستخدمه ترجماناً لخواطر تافهة، إذ انه لا يترعرع إلّا في مناخ ذهني عالي خاص به . ان اعمق درجات الكثافة الفكرية والعاطفية تولِّد بالضرورة اشد حالات الزخم التعبيري . رأي سطحي شعور سخيف يعني كلمة مبتذلة وبالتالي غير شعرية .

المواضيع الجديدة ؟ من قال انها غير موجودة. كل شاعر عظيم يخترع حصيلة منها تنضاف إلى الارصدة السابقة ، مبرهناً هكذا ان هناك ثمة زهرة ما كانت لتتفتح إلا تحت انامله هو بالذات . ففي حين كان لامرتين يبكي أمام صفحة البحيرة هجران حبيبته الفير ، وفيكتور هوغو ينوح في ارجاء الطبيعة ، متتبعاً آثار اقدام عشيقته الغائبة المطبوعة فوق اديم الغابة ، حيث كان يتم لقاؤهما الغرامي ، كان هناك شاعر اسمه لوتريامون يبتكر مضامين طريفة ، ويعبِّر عن انفعالات وخلجات بال غير مألوفة . كان يأخذ الشِعر من يده مبتعداً به عن ارجاء الريف ، التي اعتاد معاصروه الرومنطيقيون ان يهيموا فيها ، ويقتاده إلى ازقة باريس الضيقة . كان يعالج ، بعنف ووقاحة وإباحية ، قضايا كانت تعتبر محرَّمات لا تمت إلى الفن بصلة ، مع انها تعكس مأساة انسانية مؤثرة وصادقة يعاني منها الكثير من البشر . إن كل فحوى مبتكر يستلزم بالضرورة شكلاً ثورياً . مضامين الرومنطقيين متشابهة ، إذن قوالبهم متماثلة . غياب الحبيبة عالجه كل من لامرتين وهوغو وموسيه وفيني بنفس الروح تقريباً ، وبالتالي بذات الاسلوب . أما إذا قارنا إنتاجهم بعطاء لوتريامون فإننا لا نصدق انه يكاد ان يكون معاصراً لهم : هناك مسافة ألف سنة تفصل بينه وبينهم. من هنا تقرير فيليب سوبولت :

ـ « إن الظاهرة التي كانتها « اناشيد مالدورور » هي شبيهة بطوفان ادبي ،

لا يبقى بعده شيء أو يكاد[1] ».

وإعلان فرنسيس بونج :

- « إفتح لوتريامون ! وها ان الادب بكامله يقوم ويقعد كمظلة ! إغلق لوتريامون ! وكل شيء يعود ، للتو ، إلى مكانه[2] ».

إن الشاعر المجدِّد ينقذ نفسه . فهو بابداعه عملاً طريفاً انما يعطي قيمة ومبرراً لوجوده . إذ أي معنى لمجيئه إذا كان يريد أن يكرر ما تقدمه إليه الغير ، وما سبق لنا أن عرفناه وتذوقناه . كما انه عربون نجاة بالنسبة للزملاء ، الذين جاؤوا قبله : انه عندما لا يكتب مثلهم ، يضفي عليهم نوعاً من الفرادة : لم يعد ممكناً الآن تحقيق إنجاز شبيه بتحفهم ، وهذا مما يجعلنا ننظر إليها بحنين ، بما انها شيء نادر ثمين لا يمكن تقليده أو سحب نسخة عنه . فاستحالة استرجاع القديم واحيائه ، هي التي تكسبه الرونق والبهاء والاهمية التي لا تُقدّر . بينما الاديب الذي ينسج على منوال اسلافه انما يثير اشمئزازنا منهم ، ويُحيل إرثهم إلى فعل روتيني ، وبالتالي ممل ، لفرط ما هو شائع ومُعاد ، ويلقي في روعنا ان ذخائرهم ليست نفيسة ولا فريدة المثال ، طالما انه يظل بوسعنا ان نطبع صورة عنها الى ما لا نهاية ؛ وان السلع التي يطرحونها للبيع ليست مقطوعة من السوق ، بما اننا نستطيع ، ساعة نشاء ، ان نصنع نموذجاً يضاهيها تماماً ، وهذا مما يدنّي من سعرها ، وفقاً لقانون العرض والطلب ، إذن الخلّاق يسدي أكبر خدمة للتراث ، بينما المجتر يلحق به افدح الاذى . فسحر رواية لدوستويفسكي يكمن في تنكّب بروست عن محاكاة اسلوبها ، مما يبعث فينا الحنين إلى تقنيتها المسلية ، وعقدتها الشائقة ، وابطالها المثيرين، بالمقارنة مع الفن القصصي الحديث الخالي من أي حبكة حافلة بالاحداث الغريبة والشخصيات العجيبة . وعذوبة لوحة لرافائيل تتمثل في إستنكاف بيكاسو عن الرسم من وحي جماليتها ، مما يزيدنا تعلّقاً بماضيها الذي ذهب إلى غير رجعة ، وتحسراً على الوانها المريحة ، وخطوطها المنسجمة ، التي لم تعد المذاهب العصرية توِّفرها لنا ، لكن للاسف الرجوع إلى الوراء ممنوع .

---

(١) **Philippe Soupault:** Lautréamont (Ed. Seghers 1960 p. 30)

(٢) **Marcelin Pleynet:** Lautréamont (Ed. Seuil 1974 p. 180)

إن لوتريامون لا يقتدي بأحد ، لكنه بذات الوقت لا يسمح لأي شخص بمحاكاته . لأن الدرب الوعرة ، التي سار عليها ، لا تغري أي مغامر بمتابعته . انه يملك معجبين عديدين ، إنما ليس لديه مقلّد واحد . انه ليس تلميذ بودلير، كما انه ليس استاذ اندريه بريتون ، الذي يقول بهذا الصدد :

- « مهما حاولت ، قليل من الناس يهتدون اليوم إلى طريقهم بفضل هذا الضياء الذي لا يُنسى : فور إغلاق « مالدورور » و « اشعار »، هذا الضياء الذي لا يجب أن تكون قد عرفته كيما تجروء حقاً ان تقدم نفسك، وان تكون[1]».

كما يصرّح هنري ميشو :

- « لوتريامون مع ذلك استحوذ عليّ : لدرجة اني اضطررت ان اتخلص منه . لم يكن يتركني اعيش . بفضله كتبت . حتى ذلك الحين لم يكن عندي رغبة شديدة في ذلك ولم اكن لاجروء . عندما قرأت « اناشيد مالدورور » وعلمت ان المرء يستطيع ان يكتب وينشر ما يملكه في داخله من خارق حقاً ، فكرت انه يوجد مكان لي[2] ».

كانت الآثار الادبية في العهود الغابرة تحظى على التو بشعبية كبيرة ، بعكس ما هو حاصل في الزمان الحاضر ، حيث هناك قطيعة بين المبدع والجمهور . فاسطورة الشاعر الملعون ، الذي أُسيء فهمه ، لأنه يسبق عصره باشواط ، لم تظهر إلّا ابتداءً من اواسط القرن التاسع عشر ، حين صارت معظم القصائد الكبرى إبتداءً من « ازهار الشر » وحتى ايف بونفواي ، غير مألوفة او شائعة إلّا بالنسبة لحلقة من الخبراء يتناقص عددها باستمرار . ولا يوجد من جسّد مصير العبقري المنبوذ بأفضل مما فعل لوتريامون ، الذي قال عنه اندريه بريتون :

- « إذا وضعنا على حدة شخصاً واحداً : لوتريامون ، فإني لا أرى اشخاصاً آخرين لم يتركوا أثراً ملتبساً عن عبورهم[3]. . ».

والذي لا نعرف لـه صورة واحـدة ، مما حمـل المتحمسين لـه من

(١) المصدر السابق صفحة ١٨٠.

(٢) **Robert Brichon:** Michaux (gallimand 1959 p. 208)

(٣) **André Breton:** Manifeste du Surréalisme (gallimard 1963 p. 80)

السورياليين ، كسلفادور دالي مثلاً ، إلى رسمه من المخيلة ؛ والذي مات مغموراً كلية ، إذ أن الأثر الوحيد ، الذي طبعه ، لم يتم توزيعه اثناء حياته . فلقد افلس لاكروا ، وآل « اناشيد مالدورور » المجمَّد في مستودعاته إلى شركة أخرى ، وضعته في التداول سنة ١٨٧٤ أي اربعة اعوام بعد وفاة مؤلفه . لكن الناشر الأول ، وقد قدَّر قيمة الكتاب ، لم ينسه بهذه السهولة ، فاقنع احد اصدقائه باعادة إصداره عام ١٨٩٠ في طبعة ثانية ، مرت مجهولة كلية تقريباً . إلّا أن ريمي دي غورمون نوَّه بها ، مما حدا بالرمزيين إلى التحدث عنها لبضعة اشهر ، وإلى نقل النشيد الأول منها في مجلتهم . ومن معاصري تلك الحقبة ، المحبّذين للوتريامون : فاليري لاربو وليون بول فارغ ، اللذان كرَّسا له عام ١٩١٢ بعض المقالات ، واندريه جيد ، الذي اعترف فيها بعد :

- « إن قراءة رامبو ، ونشيد مالدورور السادس تجعلني اخجل بمؤلفاتي[1] » .

اما « اشعار » فإن ريمي دي غورمون هو أول من اكتشف نسخة من طبعتها الاصلية ، بعد ابحاث قام بها في المكتبة الوطنية في باريس ، التي ذهب إليها فاليري لاربو عام ١٩١٢ ليستنسخ هذه المخطوطة . وهذا ما فعله أيضاً عام ١٩٢٠ اندريه بريتون ، الذي اصدر الجزء الثاني منها في مجلته « ادب ». إذ بالنسبة له ، ولأتباع المدرسة السوريالية ، لا يوجد عبقرية يمكن مقارنتها بلوتريامون ، الذي غدا إلاههم ، منذ ان اكتشفوه إنطلاقاً من طبعة « اناشيد مالدورور » الثالثة ، التي اصدرها بليزسندرار عام ١٩٢٠ . ألا يجاهرون في شخص زعيمهم :

- « حتى اليوم انا عاجز تماماً عن التبّصر برباطة جأش في هذه الرسالة الساطعة التي يبدو لي انها تتجاوز من كل الجوانب الامكانات البشرية[2] . . الاسم الوحيد المقذوف عبر الاجيال الذي يشكل تحدياً لكل ما هو غبي دنيء ومقرف على الأرض : مالدورور[3] . . » .

---

(١) **Marcelin Pheynet:** Lautréamont (Ed. Seuil 1974 p. 180)

(٢) **André Breton:** Entretiens (gallimard 1978 p. 48)

(٣) **André Breton:** Manifeste, du Surréalisme (gallimard 1964p. 127)

وعلى لسان لويس آراغون :

ـ « اننا لا نكاد نتذوق « مالدورور » حتى يصبح كل شِعر تافهاً بعض الشيء ومدبَّراً[1] »

ومن خلال فيليب سوبولت :

ـ « اننا لا نحكم على لوتريامون . اننا نتعرف إليه ونحن نعبر فنحييه حتى الأرض . اني أُعطي حياتي لذاك أو لتلك الذي يجعلني انساه إلى الأبد[2] ».

وعبر جوليان غراك :

ـ « إن « رجال الله »، قديسي كرومويل يحكمون في لندن ، ويدهم موضوعة على مؤلَف يكاد يضاهي بالنضارة غير المتوقعة والعنف « اناشيد مالدورور »، ويُسمى التوراة[3] »

وهذا مصداق لنبؤة لوتريامون :

ـ « إن اكبر عباقرة المستقبل سيُظهرون لي عرفاناً صادقاً بالجميل . . . سيكون هناك في اناشيدي ، برهان هائل على القوة ، ليحتقر هكذا الآراء الشائعة . انه ينشد لنفسه وحدها وليس لأشباهه . انه لا يضع عيار إلهامه في الميزان البشري . لقد جاء حراً كالعاصفة ، يرسب ، ذات يوم ، على الشواطىء الجموحة لارادته الرهيبة ! انه لا يخشى شيئاً ، إن لم يكن ذاته ![4] ».

---

(١) Rarcelin Pleynet: Lautréamont (Ed. Seuil 1974 p. 180)

(٢) المصدر السابق صفحة ٤٨ .

(٣) المصدر السابق صفحة ١٧٩ .

(٤) النشيد الرابع : المقطع ٢ .

النشيد الأول

- ١ -

نرجو السماء ان يهتدي القارىء ، المتجاسر وقد اصبح مؤقتاً ضارياً اسوة بما يقرؤه، دون ان يتوه ، إلى طريقه الوعر والمهجور ، عبر المستنقعات الموحشة لهذه الصفحات الكامدة والمليئة بالسم ؛ لأنه إذا لم يجلب إلى قراءته منطقاً صارماً وحصر ذهنٍ مساوياً على الأقل لريبته ، فإن الفيوض المميتة لهذا الكتاب ستبلل روحه كما تفعل الماء بالسكر . ليس حسناً ان يقرأ الجميع الصفحات التي ستلي؛ البعض فقط سيتذوقون هذه الثمرة المرة دون خطر . لذلك ، أيها الروح الحيية ، قبل ان تتوغل ابعد من ذلك في اراضٍ بائرة غير مكتشفة من هذا النوع ، وجِّه عقبيك إلى الوراء وليس إلى الأمام . إسمع جيداً ما اقوله لك : وجِّه عقبيك إلى الوراء وليس إلى الامام ، كعينيّ ابن تشيحان باحترام عن التأمل المهيب للوجه الامومي ؛ أو بالاحرى ، كزاوية على مد البصر من طيور الكركي السريعة التأثر بالبرد ، الكثيرة التأمل ، التي تطير ، خلال الشتاء ، بقوة عبر الصمت ، ناشرة كل اجنحتها ، نحو نقطة محددة من الأفق ، من حيث تنطلق فجأة ريح غريبة وقوية ، مؤذنة بالعاصفة . طائر الكركي الأكبر سناً والذي يشكل لوحده الطليعة ، إذ يرى هذا الأمر ، يهز رأسه كشخص عاقل ، وبالنتيجة منقاره أيضاً الذي يجعله يصطك ، وليس سعيداً (أنا ، أيضاً ، ما كنت لاكون سعيداً لو كنت محله)، بينما يتحرك عنقه العجوز ، المعرّى من الريش والمعاصر لثلاثة اجيال من طيور الكركي ، في تموجات متوترة تنذر

بالاعصار الذي يقترب أكثر فأكثر . انه بعد أن ينظر برباطة جأش عدة مرات في كل الجهات بعيون تحوي الخبرة ، يغيّر باحتراس ، قبل الجميع (لأنه هو الذي يملك امتياز إظهار ريش ذنبه امام باقي طيور الكركي الادنى منه ذكاءً) بصرخة خفير كئيب متيقظة ، بغية دفع العدو المشترك ، إنه يغيّر بمرونة اتجاه رأس الشكل الهندسي (هذا ربما مثلث ، لكننا لا نرى الضلع الثالث الذي تشكله في الفضاء هذه الطيور المهاجرة العجيبة) إما عن ميسرة السفينة ، أو ميمنتها ، كربّان ماهر ؛ ومديراً اجنحة لا تبدو أكبر من اجنحة عصفوردوري، لأنه ليس غبياً ، يسلك هكذا طريقاً فلسفية اخرى وأكثر ضماناً .

- ٢ -

ايها القارىء ، لعلك تريدني أن ابتهل إلى الحقد في مستهل هذا المؤلف! من يقول لك إنك لن تستنشق منه ، مستحماً في شهوات حسية لا تحصى ، قدر ما تشاء ، بمنخاريك الأبيين ، الواسعين والضامرين ، وأنت تنقلب على بطنك كسمك القِرش ، في الهواء الجميل والأسود ، كما لو انك كنت تفهم ، ببطء وجلال ، اهمية هذا الفعل ، والاهمية التي لا تقل عنه لشهيتك المشروعة ، الفيوض الحمراء ؟ اؤكد لك ، انها ستُبهج الثقبين المشوَّهين لخطمك الشنيع ، ايها المسخ ، هذا إذا دأبت آنفاً على ان تتنفس ثلاثة آلاف مرة متتالية الوعي اللعين بالخالق . إن منخاريك ، اللذين سيتسعان بافراط من إكتفاء فائق للوصف ، من نشوة جامدة ، لن يطالبا الفضاء ، وقد صار مضمَّخاً كما بعطور وبخور ، بما هو أفضل ؛ لانهما ، سيشبعان فرحاً كاملاً، كالملائكة التي تسكن روعة وسلام السماوات الظريفة .

- ٣ -

سأثبت في بضعة اسطر كيف أن مالدورور كان طيباً خلال سنواته الأولى ، حين عاش سعيداً ؛ انتهى . لقد ادرك فيما بعد انه وُلد شريراً : قدر خارق ! أخفى طبعه قدر ما استطاع ، خلال عدد كبير من الاعوام ؛ لكن ، في النهاية ، بسبب هذا التركيز الذي لم يكن طبيعياً فيه ، كان الدم يصعد إلى رأسه كل يوم ؛ إلى أن ارتمى بتصميم ، عاجزاً عن احتمال حياة من هذا القبيل ، في مهنة الشر . . . جو لطيف ! من كان ليقول انه عندما كان يُقبِّل ولداً صغيراً ، متورِّد الوجه ، فإنه كان ليوِّد أن يقتلع له وجناته بموسى ، وكان ليفعل ذلك غالباً جداً ، لولا أن « العدالة »، بموكبها الطويل من العقوبات ، كانت تمنعه من ذلك

كل مرة ، لم يكن كذّاباً ، كان يعترف بالحقيقة ويقول انه كان قاسياً . ايها الآدميون ، هل سمعتم ؟ انه يجروء ان يقول ذلك من جديد بهذه الريشة التي ترتعش ! هكذا إذن يوجد ثمة قدرة هي اقوى من الارادة . . . ياللعنـة! الحجر قد يوّد أن يتملّص من قوانين الجاذبية ؟ مستحيل . مستحيل ، إذا كان الشر يريد أن يتحالف مع الخير . هذا ما كنت اقوله اعلاه .

- ٤ -

يوجد من يكتبون بحثاً عن التصفيقات البشرية ، بفضل صفات القلب النبيلة التي تخترعها المخيلة أو التي قد يملكونها . أنا ، أريد تسخير عبقريتي لوصف ملذات القساوة! ملذات ليست عابرة ولا اصطناعية ؛ بل، قد بدأت مع الانسان ، وستنتهي معه . ألا تستطيع العبقرية أن تتحالف مع القساوة في القرارات السرية للعناية الالهية ؟ أم اننا لا نستطيع ، لاننا قساة ، ان نملك عبقرية ؟ سنرى البرهان على ذلك في عباراتي ؛ انه رهن بكم وحدكم ان تسمعوني ، إذا تكرمتم بذلك . . . عفواً ، لقد خُيل إليَّ أن شعري يقفّ فوق رأسي ؛ لكن ، هذا ليس بشيء، لاني ، بيدي ، توصلت بسهولة ان أعيده إلى وضعه الأول . إن الذي ينشد لا يدعي ان الحانه هي شيء مجهول ؛ بالعكس ، انه يغبط نفسه على ان افكار بطله المتعالية والشريرة هي موجودة في كل البشر .

- ٥ -

لقد رأيت ، طوال حياتي كلها ، البشر ، الضيِّقي الاكتاف ، دون أن استثني منهم واحداً ، يقومون بأعمال غبية وعديدة، يبلِّهـون اشباههم ، ويُفسدون الارواح بشتى الوسائل . انهم يسمٍّون دوافع افعالهم : المجد . وانا أرى هذه المشاهد ، اردت أن اضحك كالآخرين ؛ لكن ، هذا ، ياللمحاكاة الغريبة ، كان مستحيلاً . اخذت سكيناً لشفرتها حد مفوِّلذ ، وشققت بها لحومي في المواضع التي تلتقي فيها الشفتان . للحظة ظننتني بلغت هدفي . نظرت في المرآة إلى هذا الفم المدمَّى بمحض ارادتي ! كانت غلطة ! الدم الذي كان يسيل بغزارة من الجرحين كان يمنعني على كل حال ان اتبّين فيها إذا كان هذا هو حقاً ضحك الآخرين . لكن ، بعد بضع لحظات من المقارنة ، رأيت جيداً ان ضحكي لا يشبه ضحك الآدميين ، أي اني لم اكن اضحك . رأيت البشر ، ذوي الرأس القبيح والعيون الرهيبة المغروزة في المحجر المعتم ، يجاوزون جمودة الصخر ، صلابة الفولاذ المذوَّب ، قساوة سمك القِرش ، وقاحة الشباب ،

هيجان المجرمين الاخرق ، خيانات الخبيث ، اعجب المهرجين ، قوة طبع الكهنة ، الكائنات الأكثر إستخفاءً من الخارج ، الأكثر بروداً في العوالم وفي السماء ؛ يُعيون الكتّاب الاخلاقيين في اكتشاف قلبهم ، وإستمطار غضب الاعالي العنيد عليهم . لقد رأيتهم كلهم معاً ، احياناً موِّجهين اقوى قبضاتهم نحو السماء ، كما يوِّجه طفل ضال منذ الآن قبضته ضد امه ، وقد هيَّجهم روح ما من الجحيم ، وعيونهم مثقلة بندم كاوٍ وحقود في آن معاً ، في صمت صقيعي ، لا يجرؤون الإفصاح عن التأملات الرحبة والعقوقة التي ينطوي عليها صدرهم ، لفرط ما كانت مليئة بالظلم والفظاعة ، ويُحزنون بالشفقة إله الرحمة ؛ ورأيتهم ، احياناً ، في كل لحظة من النهار ، منذ بداية الطفولة حتى نهاية الشيخوخة ؛ وهم يصبّون لعنات لا تُصدق ، ليس لها الحس المشترك ، ضد كل ما يتنفس ، ضدهم هم انفسهم وضد العناية الإلهية ، يعهِّرون النساء والاولاد ، ويفضحون هكذا اعضاء الجسم المكرَّسة للحشمة . عندئذ ترفع البحار مياهها ، تبتلع في لججها الواح الخشب ؛ تقلب الاعاصير والهزات الارضية البيوت ؛ يستأصل الطاعون ، والأمراض المختلفة العائلات المصلِّية . لكن البشر لا يدركون ذلك . رأيتهم يحمّرون ، يصفرّون خجلاً من سلوكهم على هذه الأرض ؛ فيما ندر . ايتها العواصف ، ياشقيقات الاعاصير ؛ ايتها السماء الزرقاء ، التي لا اعترف بجمالها ؛ ايها البحر الخبيث ، يا صورة قلبي ؛ ايتها الارض ، الغامضة الحضن ؛ يا سكان الافلاك ؛ ايتها العوالم بكاملها ؛ ايها الإله ، الذي خلقها بروعة ، انت هو من أبتهل إليه : دلني على انسان يكون صالحاً ! . . . لكن ، فلتضاعف بركتك قواي الطبيعية عشر مرات ؛ لاني ، لدى مشاهدة هذا المسخ ، استطيع ان اموت من الدهشة : اننا نموت بسعر اقل .

- ٦ -

يجب أن نترك اظافرنا تنمو خلال خمسة عشر يوماً اواه ! ما احلى ان ننزع بفظاظة من السرير طفلاً ليس له بعد شيء على الشفة العليا ، وان نتظاهر ، بعيون مفتوحة جيداً ، اننا نمرر يدنا بلذة على جبينه ، ونحن نعطف إلى الوراء شعره الجميل . ثم ان نغرز ، فجأة ، في اللحظة التي يتوقعنا فيها أقل ، اظافرنا الطويلة في صدره الرخو ، بنوع ان لا يموت ؛ لانه إذا مات انحرمنا فيها بعد من منظر عذاباته . بعد ذلك ، نشرب الدم ونحن نلعق الجراح ؛ وخلال هذا

الوقت ، الذي يجب أن يدوم بقدر ما تدوم الابدية ، الطفل يبكي . ليس ثمة ما هو اطيب من دمه ، المستخرج بالطريقة التي شرحتها ، والذي لا يزال ساخناً بعد ، إن لم يكن دموعه ، المرة كالملح . ايها الانسان ، الم تتذوق دمك قط ، عندما تكون بالصدفة قد جرحت اصبعك ؟ ما اطيبه ، اليس كذلك ؛ لانه ليس له أي طعم . بالاضافة إلى ذلك ، ألا تذكر انك رفعت ، ذات يوم ، اثناء تأملاتك المفجعة ، يدك ، المحفورة في جوفها ، إلى وجهك المريض المبلَّل بما كان يتساقط من عينيك ؛ تلك اليد ، التي كانت بعد ذلك تتوَّجه بصورة محتومة نحو فمك ، الذي كان يغترف في جرعات طويلة ، من هذه الكأس ، المرتعشة كأسنان التلميذ ، الذي ينظر بمواربة إلى ذاك الذي وُلد ليضطهده ، الدموع ؟ كم هي طيبة ، أليس كذلك ؛ لأن لها طعم الخل . لكأنها دموع تلك التي تحب أكثر من الجميع ؛ لكن دموع الطفل هي أفضل بالنسبة لحنكي . هو ، لا يخون ، بما انه لا يعرف الشر بعد : تلك التي تحب أكثر من الجميع تخون عاجلاً أو آجلاً . . . هذا ما احزره بطريق القياس ، مع اني اجهل ما هي الصداقة ، ما هو الحب (من المحتمل اني لن اقبلهما قط ؛ على الأقل ، من قِبَل الجنس البشري) إذن ، بما ان دمك ودموعك لا تثير قرفك ، تغذَّ ، تغذَّ بثقة من دموع ودم المراهق . إعصب له عينيه ، فيما ستكون آخذاً في تمزيق لحومه المختلجة ؛ وبعد أن تكون قد سمعت خلال ساعات طويلة صراخاته السامية ، الشبيهة بالحشرجات الحادة التي ترسلها في معركة حناجر جرحى محتضرين ، حينئذ ، إذ تكون قد ابتعدت كجرُف ثلجي ، ستسارع من الغرفة المجاورة ، وستتظاهر بانك تهبّ لنجدته . ستحّل يديه ، المتوَّرمتي الاعصاب والاوردة ، سترّد النظر إلى عينيه التائهتين ، وانت تعاود لعق دموعه ودمه . كم الندم صادق عندئذ ! ان الشرارة الالهية الموجودة فينا ، والتي نادراً ما تبرز ، تُظهر نفسها ؛ متأخراً جداً ! كم يمتلىء القلب بالقدرة على تعزية البريء الذي تسببنا في أذاهِ : « ايها المراهق ، الذي عانيت لتوك آلاماً قاسية ، من إذن استطاع أن يرتكب ضدك هذا الجرم الذي لا اعرف بأي اسم أنعته ! يا لك من شقي ! كم يجب أن تتألم ! ولو ان امك عرفت بذلك ، فإنها ما كانت لتكون قريبة من الموت ، الممقوت جداً من المذنبين ، أكثر مما أنا حالياً . للأسف ! ما هو إذن الخير والشر ! هل هما شيء واحد نُظهر بواسطته بحنق عن عجزنا ، وعن الشهوة إلى بلوغ اللانهاية حتى بأكثر الوسائل الخرقاء ؟ أم هل هما شيئان مختلفان ؟ نعم . . . فليكونا بالاحرى شيئاً واحداً . . . وإلّا فماذا سيصير بي يوم الدينونة ! ايها المراهق ،

اغفر لي ؛ إن ذاك الذي يقف امام وجهك النبيل والمقدس ، هو الذي حطم عظامك ومزق لحومك التي تتدلى من مواضع مختلفة من جسدك . هل هو هذيان لعقلي المريض ، هل هي غريزة خفية لا تتعلّق باستدلالاتي المنطقية ، شبيهة بغريزة النسر وهو يمزق فريسته ، دفعتني إلى ارتكاب هذا الجرم ؛ ومع ذلك فاني كنت اتألم ، بمقدار ضحيتي ! ايها المراهق ، اغفر لي . بعد خروجنا من هذه الحياة العابرة ، اريد أن نكون متخاصرين خلال الابدية ، ان لا نشكل سوى كائنٍ واحد ، فمي ملصق على فمك . حتى بهذه الطريقة ، لن يكون قصاصي كاملاً . عندئذ ، ستمزقني ، دون ان تتوقف قط ، بالاسنان والأظافر معاً . سازيِّن جسدي باكاليل مضمَّخة ، لهذه المحرقة التكفيرية ؛ وسنتعذب كلانا معاً ، انا لاني اتمزق ، انت ، لانك تمزقني . . فمي ملصق على فمك . ايها المراهق ، الاشقر الشعر ، الحلو العينين ، هل ستفعل الآن ما انصحك به ؟ غصباً عنك ، اريدك ان تفعله ، وستجعل ضميري سعيداً ». بعد تكلمك هكذا ، فانك ستكون ، بذات الوقت ، قد فعلت الشر لكائن بشري ، وستكون محبوباً من نفس الكائن : هذه أكبر سعادة يمكن تصورها . بعد ذلك ، قد تستطيع ان تضعه في المستشفى ؛ لأن الكسيح لن يتمكن من كسب رزقه . سيسمونك طيباً ، واكاليل الغار ومداليات الذهب ستخفي اقدامك العارية ، المشتتة على القبر الكبير ، الشائخِ الوجه . ايه انت ، الذي لا اريد ان اكتب اسمه على هذه الصفحة التي تكرِّس قداسة الجريمة ، اعرف ان صفحك كان رحباً كالكون. لكن، انا ، لا زلت موجوداً !

- ٧ -

لقد عقدت ميثاقاً مع الدعارة بغية ان ازرع الفوضى في العائلات . اتذكر الليلة التي سبقت هذه العلاقة الخطرة . رأيت امامي قبراً . سمعت دودة لمَّاعة ، كبيرة كبيت ، تقول لي : « اريد ان أُنيرك . اقرأ الكلام المنقوش. ان هذا الامر العالي لا يصدر عني ». ضوء فسيح بلون الدم ، اصطك لمرآه فكاي ، وسقط ذراعاي جامدين ، انتشر في الاجواء حتى الأفق . اتكأت على سور متهدم ، لاني كدت اسقط ، وقرأت « هنا يرقد مراهق مات مصدوراً : انكم تعلمون لماذا . لا تصلّوا لاجله ». كثير من البشر ما كانوا ليمتلكون شجاعة مقداري . في هذه الاثناء ، جاءت حسناء عارية تتمدد عند اقدامي . انا ، لها ، بوجه حزين : « تستطيعين ان تنهضي ». مددت لها اليد التي يذبح بها قاتل الاخت

شقيقته . الدودة اللمّاعة ، لي : « انت ، خذ حجراً واقتلها . ـ لماذا ؟ قلت لها ». هي ، لي : « انتبه » لحالك ؛ انت الاضعف ، لاني انا الاقوى . إن هذه تُسمى « دعارة » شعرت ، والدموع في عينيّ ، والحنق في قلبي ، بقوة مجهولة تولد فيَّ . اخذت حجراً ضخماً ؛ بعد جهود كثيرة ، رفعته بمشقة حتى علو صدري ؛ وضعته على كتفي بذراعيَّ . تسلّقت جبلاً حتى قمته : من هناك سحقت الدودة اللمّاعة . رأسها انغرز تحت الارض بحجم رجل ؛ الحجر وثب إلى علو ست كنائس . ذهب ليسقط ثانية في بحيرة ، انخفضت مياهها لحظة ، مدوِّمة ، وهو يحفر مخروطاً هائلاً مقلوباً . الهدوء عاد إلى الظهور على السطح ؛ ضوء الدم كفَّ عن التوهج . « واسفاه ! واسفاه ! هتفت الحسناء العارية ؛ ماذا صنعت ؟ » انا ، لها : « أُفضلكِ عليها ؛ لاني أُشفق على التاعسين . ليست غلطتكِ إذا كانت العناية الإلهية قد خلقتكِ ». هي ، لي : « ذات يوم ، سينصفني البشر ؛ لا اقول لك أكثر من ذلك . دعني ارحل ، لاذهب اخفي في غور البحر حزني اللامتناهي . لا يوجد إلّا انت والمسوخ البشعة التي تعجّ في هذه اللجج السوداء ، لا تحتقروني . انك طيب . وداعاً ، انت يامن احبني ! » انا ، لها : « وداعاً ! مرة اخرى : وداعاً ! ساحبك دائماً ! . . . منذ اليوم سأهجر الفضيلة ». لذلك ، ايها الشعوب ؛ عندما تسمعون ريح الشتاء تئن فوق البحر وقرب شطآنه ، أو فوق المدن الكبرى ، التي لبست ، منذ زمان طويل ، الحداد عليَّ ، او عبر المناطق القطبية الباردة ، قولوا : « هذا ليس روح الله الذي يمر : هذا ليس سوى تأوه الدعارة المبِّرح ، الممتزج بنواحات ابن مونتفيديو الخفيضة ». يا اولاد ، انه انا من يقوله لكم . عندئذ ، اركعوا ، مليئين بالرحمة ؛ وليقم البشر ، الأكثر عدداً من القمل ، بصلوات طويلة .

ـ ٨ ـ

في ضوء القمر ، قرب البحر ، في المواضع المنعزلة من الريف ، نرى مستغرقين في تأملات مريرة ، كل الأشياء تكتسي اشكالاً صفراء ، حائرة ، خارقة . ظل الاشجار ، حيناً بسرعة ، حيناً ببطء ، يركض ، يجيء ، يعود ، في اشكال مختلفة ، وهو ينبطح ، وهو يلتصق على الأرض . في غابر الزمان ، حينما كنت محمولاً على اجنحة الصبا ، كان هذا الامر يجعلني احلم ، يبدو لي غريباً ؛ الآن ، تعوّدت عليه . الريح تئن عبر الأوراق بالحانها الدنفة ، والبومة تغني شكواها الخفيضة ، التي تجعل شعر الذين يسمعونها يقفّ . حينئذ ، تحطم

الكلاب ، وقد اصبحت ساخطة قيودها ، تهرب من المزارع البعيدة ؛ تركض في الريف هنا وهناك ، وقد استبد بها الجنون . انها تتوقف ، فجأة ، تنظر من كل الجهات بقلق عاتٍ ، متأججة العين ؛ وكما ان الافيال ، قبل ان تموت ، تلقي في الصحراء نظرة الحيرة صوب السماء ، رافعة خرطومها بيأس ، تاركة آذانها جامدة ، كذلك الكلاب يتركون آذانهم جامدة ، يرفعون رأسهم ، ينفخون عنقهم الرهيب ، ويروحون ينبحون بالتناوب ، إما كأمرأة ستضع مولوداً ، إما كمحتضر مصاب بالطاعون في المستشفى ، إما كفتاة تغني لحناً سامياً ، ضد النجوم في الغرب ؛ ضد القمر ؛ ضد الجبال ، الشبيهة في البعيد بصخور ضخمة ، مضجعة في العتمة ؛ ضد الهواء البارد الذي يتنشقونه ملء رئتيهم ، الذي يجعل داخل منخارهم ، احمر ، ملتهباً ؛ ضد صمت الليل ؛ ضد البوم الاصمع ، الذي يجاحف بطيرانه المنحني خطمهم ، حاملاً جرذاً او ضفدعاً في منقاره ، غذاءً حياً ، لذيذاً للصغار ؛ ضد الارانب ، التي تختفي بلمحة عين ؛ ضد اللص ، الذي يهرب على عدو حصانه بعد ان يكون قد ارتكب جريمة ؛ ضد الثعابين التي تجعل ، وهي تحرك الخلنجات ، جلدهم يقشعر ، واسنانهم تصرّ ؛ ضد نباحاتهم بالذات ، التي تخيفهم هم انفسهم ؛ ضد الضفادع ، التي يسحقونها بضربة فك جافة (لماذا ابتعدت عن المستنقع ؟) ؛ ضد الاشجار ، التي تشكل اوراقها المتأرجحة برخاوة مقداراً من الاسرار الخفية ، التي لا يفهمونها ، التي يحاولون ان يكتشفوها بعيونهم الجامدة ، الذكية ؛ ضد العناكب ، المعلّقة بين قوائمهم الطويلة ، التي تتسلق الاشجار لتنجو بنفسها ؛ ضد الغربان ، التي لم تجد ما تأكله خلال النهار ، والتي تعود إلى مأواها متعبة الجناح ؛ ضد صخور الشاطىء ؛ ضد النيران ، التي تظهر عند صواري السفن اللامنظورة ؛ ضد صخب الامواج الاصمّ ؛ ضد الاسماك الكبيرة ، التي تسبح ، تُبرز ظهرها الاسود ، ثم تغطس في اللجة ؛ وضد الانسان الذي يستعبدهم . بعد ذلك يروحون من جديد يركضون في الريف ، متواثبين ، بقوائمهم المدمّاة ، فوق الخنادق ، الدروب ، الحقول ، الاعشاب والاحجار الوعرة . لكأنهم مصابون بداء الكَلَب ، يبحثون عن مستنقع رحب لإرواء عطشهم . إن نباحاتهم المتمادية تُرعب الطبيعة . ويل للمسافر المتأخر ! إن اصدقاء المقابر سينقضّون عليه ، سيمزقونه ، سيأكلونه بفمهم ، الذي يتساقط منه الدم ؛ لأن اسنانهم ليست تالفة . الحيوانات المتوحشة ، إذ لا تجروء ان تقترب لتشارك في غذاء اللحم ، تهرب على مدى البصر ، مرتجفةً . بعد بضع

ساعات ، الكلاب وقد انهكهم الركض هنا وهناك ، ينقضّون ، شبه ميتين ، ولسانهم خارج فمهم ، الواحد على الآخر ، لا يعلمون ما يفعلون ، ويمزقون بعضهم ألف نتفة ، بسرعة لا تُصدق . إنهم لا يتصرفون هكذا عن قساوة . ذات يوم ، قالت لي امي ، بعيون كابية : « عندما تصبح في سريرك ، وتسمع نباحات الكلاب في الريف ، اختبىء في لحافك ، لا تستهزىء بما يفعلونه : إن لديهم عطشاً لا يُروى إلى اللانهاية ، مثلك ، مثلي ، مثل بقية الآدميين ، الشاحبي والطويلي الوجه . أُعدك ، حتى ، بأن اضعك امام النافذة لتتأمل هذا المشهد ، السامي بعض الشيء ». منذ ذلك الوقت ، أُحترم رغبة المتوفاة . انا ، كالكلاب ، اشعر بالحاجة إلى اللانهاية . . . لا استطيع ، لا استطيع ان أُشبع هذه الحاجة ! اني ابن الرجل والمرأة ، بحسب ما قالوه لي . هذا يثير دهشتي . . . كنت اظنني أكثر من هذا القدر ! ومع ذلك ، ماذا يهمني من اين جئت ؟ انا ، لو كان الأمر يتعلّق بمشيئتي ، لكنت اود بالاحرى أن اكون ابن انثى القِرش ، التي جوعها صديق العواصف ، والنمر المعروف بقساوته : لن اكون قاسياً إلى هذا الحد . انت ، يا من تنظر إليَّ ، إبتعد عني ، لأن لهاثي يزفر نفثاً مسموماً . لم يرَ احد بعد تجاعيد جبيني الخضراء ؛ ولا عِظام وجهي الهزيل النافرة ، الشبيهة باحساك ثمة سمكة كبيرة ، او بالصخور التي تغطي شواطىء البحر، أو بجبال الألب الوعرة، التي غالباً ما كنتُ أجتازها، حين كان على رأسي شعر من لون مختلف . وعندما ارود حول مساكن البشر ، خلال الليالي العاصفة ، وعيوني ملتهبة ، وشعري تجلده ريح العواصف ، منعزلاً كحجر وسط الطريق ، اغطي وجهي المتجعِّد ، بقطعة من المخمل ، سوداء كالسخام الذي يملأ جوف المداخن : لا يجب ان تكون العيون شاهدة على البشاعة التي وضعها فيَّ بابتسامة حقد جبارة ، الكائن الأعلى . كل صباح ، عندما تطلع الشمس بالنسبة للآخرين ، وهي تنشر الفرح والحرارة الشافية في كل الطبيعة ، بينما لا يتحرك ايٌ من ملامحي ؛ أرضّ بيديَّ الجبارتين صدري الممزق ، ناظراً بثبات إلى الفضاء المليء بالظلمات ، مقرفصاً في اعماق كهفي الحبيب ، في يأس يسكرني كالنبيذ . مع اني اشعر اني لست مصاباً بداء الكَلَب ! مع اني اشعر اني لست الوحيد الذي يتألم ! مع اني اشعر اني اتنفس ! كمحكوم بالاعدام يجرّب عضلاته ، وهو يفكر بمصيرها ، وسيصعد قريباً إلى المقصلة ، أُدير ببطء ، واقفاً على سريري القش ، مغمضاً عيوني ، رقبتي من اليمين إلى الشمال ، من الشمال إلى اليمين ، خلال ساعات كاملة ؛ لا اسقط جثة هامدة . من وقت إلى

آخر ، عندما لا يعود عنقي قادراً على مواصلة الدوران في نفس الاتجاه ، ويتوقف ، ليستأنف الدوران في الاتجاه المعاكس ، انظر فجأة إلى الأفق ، من خلال الفجوات النادرة التي تتركها الاشواك الكثيفة التي تغطي المدخل : لا ارى شيئاً ! لا شيء . . . إن لم يكن الارياف التي ترقص في زوابع مع الاشجار والارتال الطويلة من العصافير التي تعبر الاجواء . هذا يخض لي دمي ودماغي . . . من إذن ، يكيل لي ، على رأسي ، ضربات قضيب حديد ، كمطرقة تدق على سندان ؟

- ٩ -

اني انوي ، دون ان اكون متأثراً ، ان أُنشد بصوت كبير المقطع الرصين والبارد الذي ستسمعونه . انتم ، انتبهوا لما يحتوي عليه ، وحاذروا الانطباع المكدر الذي لا بد ان يتركه ، كتدنيس ، في مخيلاتكم المتعكرة . لا تظنوا اني صرت على وشك ان اموت ، لاني لم اصبح بعد هيكلاً عظمياً ، والشيخوخة ليست مُلصقة على جبيني . لنُبعد بالتالي كل فكرة مقارنة مع البجع ، آن يُولي ، ولا تنظروا امامكم سوى مسخ ، يسعدني انكم لا تستطيعون رؤية وجهه ؛ مع انه اقل شناعة من روحه . غير اني لست مجرماً . . . كفى حول هذا الموضوع . لم ينقض زمن طويل منذ ان رأيت البحر ثانية ووطئت جسر السفن ، وذكرياتي حية كأني غادرته البارحة . كونوا مع ذلك ، إذا استطعتم ، هادئين مثلي خلال هذه القراءة التي بدأت اندم لاني اهديتها اليكم ، ولا تحمرّوا حين تفكرون بماهية القلب البشري . ايها الاخطبوط الحريري النظر ! انت يا مَن نفسك غير منفصلة عن نفسي ؛ انت يا اجمل سكان الكرة الارضية ، والذي تأمر سرايا من اربعمئة محجم ؛ انت يا من تستقر فيك بنبل الفضيلة الناعمة المعُدية ، واللطافات الإلهية ، وكأنها في محل اقامتها الطبيعي ، باتفاق طرفيٍّ علاقة لا تنقطع ، لماذا لست معي ، وبطنك الزئبقي على صدري الألوميني ، جالسين كلانا على صخرة ما من الشاطىء ، نتأمل هذا المشهد الذي اعبده !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، البللوري الامواج ، انك تشبه نسبياً تلك العلامات اللازوردية التي نراها على ظهر الازباد المرضوض ؛ انك زرقة رحبة ، ملصقة على جسد الأرض : أُحب هذه المقارنة . وهكذا ، أول مرآك ، تمر نفثة

متطاولة من الحزن ، نخالها وشوشة هوائك اللذيذ ، تاركة علامات لا تُمحى ، على الروح المهزوزة من الاعماق ، وانت تعيد إلى ذاكرة عشاقك ، دون ان نلاحظ ذلك دائماً ، بدايات الانسان القاسية ، حين تعرُّف إلى الألم ، الذي لم يعد يهجره مطلقاً . احبيك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إن شكلك الكروي بانسجام ، الذي يُفرح وجه علم الهندسة الرزين ، يذكرني كثيراً بعيون الانسان الصغيرة ، الشبيهة بعيون الخنزير البري من حيث الضآلة ، وعيون طيور الليل من حيث كمال استدارة المحيط . مع ذلك ، ظن الانسان نفسه جميلاً في كل العصور . أنا ، افترض بالاحرى أن الانسان لا يؤمن بجماله إلا بداعي الكبرياء ؛ لكنه ليس جميلاً حقاً وانه يشك في هذا الأمر. إذ لماذا ينظر إلى وجه شبيهه بكل هذا الاحتقار؟ أحبيك ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، انت رمز للتطابق : معادل لنفسك دائماً . انك لا تتغير بصورة جوهرية ، وإذا كانت امواجك في جهة ما في هيجان ، فإنها في منطقة اخرى أبعد في اتم هدوء . انت لست كالانسان ، الذي يتوقف في الشارع ، ليرى كلبيّ بولدوغ يتماسكان بالعنق ، لكنه لا يتوقف عندما تمر جنازة : الذي هو هذا الصباح لينّ الجانب وهذا المساء سيء المزاج ؛ الذي يضحك اليوم يبكي غداً . اني احبيك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، قد لا يكون هناك ثمة استحالة في انك تخبىء في احشائك فوائد مقبلة للانسان . لقد وهبته حتى الآن الحوت . انك لا تدع عيون العلوم الطبيعية الشرهة تحزر بسهولة آلاف اسرار تنظيمك الحميم : انك متواضع . الانسان يتبجح دون انقطاع ، ومن أجل تفاصيل تافهة . احبيك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إن مختلف اجناس السمك التي تغذيها لم تتعاهد

على الإخاء فيما بينها كل جنس يعيش في ناحيته . الطبائع والتشكلات التي تختلف في كل منها ، تفسر ، بصورة مُرضية ، ذاك الأمر الذي يبدو لأول وهلة شذوذاً . وهكذا الحال مع الانسان ، الذي لا يملك نفس الاعذار . أويحتل ثلاثون مليوناً من الكائنات البشرية قطعة ارض ، فإنهم يرون انفسهم ملزمين بالا يمتزجوا بجيرانهم ، الثابتين كجذور على قطعة الأرض التي تلي . نزولاً من الأكبر إلى الأصغر، كل انسان يعيش كمتوحش في وِجاره، الذي نادراً ما يخرج منه لزيارة شبيهه، المقرفص بالمثل في وِجار آخر. إن عائلة الآدميين الكونية الكبرى هي فكرة طوباوية خليقة بارداً منطق. علاوة على ذلك، فانه يبرز من مشهد اثدائك الخصبة مفهوم العقوق؛ لأننا نفكر لدى مرآه باولئك الأهل العديدين، العقوقين بما فيه الكفاية تجاه الخالق، ليتخلوا عن ثمرة إقترانهم البائسة. اني أحييك، أيها الأوقيانوس الشيخ!

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إن ضخامتك المادية لا يمكن مقارنتها إلّا بالمقياس الذس نتصور أن القوة الفاعلة قد احتاجت إليه كيما تخلق مجموع كتلتك . لا يمكن الإحاطة بك بلمحة نظر . يجب على حاسة البصر كيما تتأملك أن تدير مِقرابها ، في حركة متواصلة ، نحو اربع جهات الأفق ، كما يترتب على عالم الرياضيات كيما يحلّ معادلة جبرية ، أن يفحص كلاً على حدة مختلف الاحتمالات الممكنة ، قبل أن يحسم الصعوبة يأكل الانسان مواد مغذية ، ويقوم بجهود اخرى ، أكثر فعالية ، حتى يبدو سميناً . فلتنتفخ قدر ما تشاء هذه الضفدعة الفاتنة . إطمئن ، انها لن توازيك من حيث البدانة هذا ما افترضه ، على الأقل . احييك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إن مياهك مُرَّة . هذا هو بالضبط نفس مذاق الضغينة التي يقّطرها النقد على الفنون الجميلة ، على العلوم ، على كل شيء . إذا كان احدهم يملك عبقرية ، فإنهم يجعلوننا نعتبره احمق ؛ إذا كان واحد آخر جميل الجسد ، فإنه احدب بشع . لا شك أن على الانسان ان يشعر بقوة بنقصه ، الذي هو مسؤول على كل حال عن ثلاثة ارباعه ، كيما يتمكن من إنتقاده على هذا الشكل ! احييك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إن البشر رغم جودة مناهجهم ، لم يتوصلوا حتى

الآن ، بمساعدة وسائل البحث العلمي ، إلى سبر غور لجك المثيرة للدوار ؛ انك تملك منها ما اقرَّت اطول واثقل المسابر بأنه لا يُطال . هذا مسموح به . . . للسمك : لا للبشر . غالباً ما تساءلت ايها اهون على الاستكشاف : غور البحر او غور القلب البشري ! غالباً ما كنت ، رافعاً يدي نحو جبيني ، واقفاً في السفن ، فيما يتأرجح القمر بين الصواري بشكل غير منتظم ، غاضاً النظر عن كل ما ليس الهدف الذي اسعى إليه ، افاجىء نفسي وانا ابذل جهدي كي احلّ هذه المشكلة العويصة ! نعم ايهما اعمق ، أي الاثنين غير قابل للفهم أكثر : الاوقيانوس ام القلب البشري ؟ إذا كانت ثلاثون سنة من إختبار الحياة تستطيع إلى حد ما ان تُميل الميزان إلى هذا او ذاك من هذين الحلين، فليُسمح لي ان اقول انه ، رغم عمق الاوقيانوس ، فإنه لا يستطيع أن يقف على خط واحد ، من حيث المقارنة حول هذه الخاصية ، مع عمق القلب البشري . لقد كنت على علاقة مع اناس كانوا فاضلين . كانوا يموتون في الستين من العمر ، وكان كل واحد لا يتمالك ان يصيح : « لقد عملوا الحسنات على هذه الأرض ، يعني انهم زاولوا المحبة : هذا كل شيء ، وهذا ليس بالأمر الصعب ، كل واحد يستطيع أن يعمل مثلهم » . من يفهم لماذا يبتعد عاشقان كانا يتدلهان ببعضهما البارحة ، بسبب كلمة أُسيء فهمها ، ويتوَّجهان الواحد شرقاً ، والآخر غرباً ، مع مناخس الحقد ، الانتقام ، الحب والندم ، ولا يعودان يتقابلان ، وقد تجلبب كل منهما في كبريائه المنعزلة . إنها اعجوبة تتجدد كل يوم ، وليست لهذا السبب بأقل إعجازية . من يفهم لماذا نستلذ ليس فقط مصائب اشباهنا العامة ، بل أيضاً مصائب اعز اصدقائنا الخاصة ، بينما نحزن لذلك بذات الوقت ؟ مثال لا جدال فيه كي اختم السلسلة : الانسان يقول بخبث نعم ويفكر لا . لهذا السبب يثق خنانيص الانسانية ببعضهم وليسوا انانيين . يبقى على علم النفس الكثير من التقدم برسم الإنجاز . احييك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، إنك قوي لدرجة ، ان البشر قد تعلموا ذلك على حسابهم الخاص . ولئن استعملوا كل موارد عبقريتهم . . . فإنهم عاجزون ان يسيطروا عليك . لقد وجدوا سيدهم . أقول إنهم وجدوا شيئاً اقوى منهم . هذا الشيء له اسم . هذا الأسم هو : الاوقيانوس ! الخوف الذي توحيه لهم كبير بشكل انهم يحترمونك . رغم ذلك ، فأنت تجعل اثقل آلاتهم ترقص

الفالس بلطافة ، اناقة وسهولة . إنك تجعلهم يقومون بقفزات رياضية حتى السماء ، وبغطسات رائعة حتى قعر مناطقك : إن بهلواناً كان ليصاب بالحسد منها . سعداء هم ، عندما لا تلّفهم نهائياً في طياتك الفائرة ، ليذهبوا ، بدون سكة حديد ، في احشائك المائية ، يرون كيف حال الاسماك ، وخاصة كيف حالهم هم ذاتهم . الانسان يقول : « انا اذكى من الاوقيانوس ». هذا جائز ؛ هذا حتى صحيح إلى حد ما . لكن الاوقيانوس مخيف للانسان أكثر مما الانسان مخيف للاوقيانوس : وهذا ما ليس بحاجة إلى برهان . إن هذا البطريرك المراقب ، معاصر أول عهودنا كرتنا المعلّقة ، يبتسم إشفاقاً ، عندما يحضر المعارك البحرية للامم . هو ذا مئة من التنائن خرجت من ايدي الانسانية . اوامر الرؤساء المفخّمة ، صرخات الجرحى ، طلقات المدفع ، هذه ضجة مصنوعة خصيصاً لتدمير بضع ثوانٍ . يبدو أن الفاجعة انتهت ، وان الاوقيانوس وضع كل شيء في بطنه. الشدق هائل . يجب ان يكون كبيراً نحو الاسفل ، في اتجاه المجهول . واخيراً لتتويج المهزلة الغبية ، التي ليست حتى مثيرة للاهتمام ، نرى ، وسط الاجواء ، لقلقاً ما ، وقد أخرّه التعب ، يأخذ يصرخ ، دون أن يوقف بسطة جناحي طيرانه : « عجباً ! . . . اني اجدها رديئة ! كان هناك في الاسفل نقاط سوداء ؛ اغلقت العينين ! اختفت ». احييك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

ايها الاوقيانوس الشيخ ، ايها العازب الكبير ، عندما تجوب العزلة الاحتفالية لممالكك البلغمية ، فإنك تفتخر عن حق بعظمتك الطبيعية ، وبالمدائح الصادقة التي أسارع في إزجائها اليك ، إنك تنشر ، متأرجحاً بشهوانية بفعل الدفقات الرخوة لبطئك الجليل ، الذي هو الاعظم بين كل الصفات التي وهبتك إياها السلطة العليا ، إنك تنشر ، وسط سر معتم ، على كل مساحتك السامية ، امواجك التي لا تُضاهى ، مع الشعور الهادىء بقدرتك الخالدة . هذه الامواج تتتابع بشكل متوازٍ ، مفصولة عن بعضها بفسحات ضيقة . لا تكاد الواحدة تنقص ، حتى تذهب اخرى إلى مقابلتها وهي تتضخم ، يصاحبهما الصخب الكئيب للزبد ، الذي يذوب ، لينذرنا بأن كل شيء زبد . (وبالمثل ، الكائنات البشرية ، تلك الامواج الحية ، تموت الواحد بعد الآخر ؛ لكن دون ان تخلّف صخباً مزبداً). الطائر المهاجر يرتاح فوق الامواج بثقة ، ويترك نفسه

يستسلم لحركاتها ، المليئة بجاذبية أبية ، إلى أن تكون عِظام اجنحته استعادت نشاطها المعتاد لتواصل الحج الهوائي . اريد للمهابة البشرية ان لا تكون سوى التجسيد الحي لانعكاس مَهابتك . اني اطلب الكثير ، وهذا التمني الصادق فخر لك. إن عظمتك الخُلقية ، صورة اللانهاية ، هي واسعة كتفكير الفيلسوف ، كحب المرأة ، كالجمال الإلهي للعصفور ، كتأملات الشاعر . انت اجمل من الليل . جاوبني ، ايها الاوقيانوس ، هل تريد ان تكون أخاً لي ؟ تحرَّك بعنف . . . أكثر . . . أكثر ايضاً إذا كنت تريد ان أقارنك بانتقام الله ؛ مُد مخالبك الدكناء ، وانت تشق لنفسك طريقاً فوق صدرك بالذات . . . هذا حسن . إنشر امواجك الرهيبة ، ايها الاوقيانوس البشع ، المفهوم مني وحدي ، والذي اسقط امامه ، ساجداً تحت اقدامك . إن مَهابة الانسان مستعارة ؛ انه لن يفرض نفسه عليَّ : انت ، بلى . آه ! عندما تتقدم ، وقنزعتك عالية ومخيفة ، محاطاً بثنياتك المتعرجة كما بحاشية ، ممغنِطاً وعاتياً ، مدحرِجاً امواجك البعض فوق الآخر ، واعياً قدر نفسك ، فيما انت تدفع ، من اعماق صدرك ، وكأنه رازح تحت وطأة ندمٍ حادٍ لا استطيع ان اكتشفه ، هذا الخوار الاخرس السرمدي الذي يخشاه البشر كثيراً ، حتى وهم يتأملونك ، بأمان ، مرتجفين على الشاطىء ، فاني أرى إذ ذاك اني لا املك الحق العظيم بأن أدَّعي اني ندٌ لك . لهذا السبب ، في حضرة تفوّقك ، كنت لأُهبك كل حبي (ولا احد يعلم كمية الحب التي تحتوي عليها تطلعاتي إلى الجمال)، لولا انك تجعلني افكر بألم باشباهي ، الذين يشكلون معك التضاد الأكثر إثارة للسخرية ، التناقض الأكثر هزلية الذي رآه الناس قط في الخليقة : لا استطيع أن احبك ، اني امقتك . لماذا ارجع اليك ، للمرة الألف ، نحو ذراعيك الصديقتين ، اللتين تنفتحان ، لتداعبا جبيني الملتهب ، الذي يرى الحمَّى تتوارى لدى ملمسهما ! لا اعرف مصيرك المخبوء ؛ كل ما يتعلّق بك يثير اهتمامي . قل لي إذن إذا كنت بيت امير الظلمات . قُله لي . . . قُله لي ايها الاوقيانوس (لي انا وحدي ، كي لا تُحزن الذين لم يعرفوا بعد سوى الاوهام ،)، وإذا كان نَفَسُ الشيطان يخلق العواصف التي ترفع مياهك المالحة حتى الغيوم . يجب ان تقوله لي لاني سابتهج لمعرفة ان الجحيم هو جد قريب من الانسان ! اريد ان يكون هذا آخر مقطع في ابتهالي لذلك ، مرة وحيدة بعد ، اريد ان احييك واقوم نحوك بشعائر الوداع ! ايها الاوقيانوس الشيخ ، البللوري الامواج ! . . . إن عيوني تتبلل بدموع غزيرة ، ولا طاقة لي على المتابعة ؛ لاني اشعر انه قد حانت اللحظة كي اعود بين البشر

الفظاظ الهيئة ؛ لكن . . . فلنتشجع ! لنبذل مجهوداً كبيراً ، ولنحقق ، مع الشعور بالواجب ، مصيرنا على هذه الأرض . احييك ، ايها الاوقيانوس الشيخ !

- ١٠ -

لن يراني الناس ، في ساعتي الأخيرة (اكتب هذا على فراش الاحتضار) محاطاً بالكهنة . اريد ان اموت ، وموج البحر الصاخب يهدهدني ، او واقفاً على الجبل . . . العيون إلى فوق ، لا : اعرف ان فنائي سيكون كاملاً . لن يكون لي ، من جهة اخرى ، نعمة اؤمل بها . من يفتح باب غرفتي الجنائزية ؟ لقد قلت ان لا يدخلها احد . كائناً من كنت ، إبتعد ؛ لكن إذا خُيل إليك انك ترى علامة ألم او خوف على وجهي الضبعي (استعمل هذه المقارنة مع ان الضبع اجمل مني ، وامتع للنظر) إرجعْ عن ضلالك : فليقترب.إننا في ليلة شتاء ، حين تتصادم العناصر من كل الجهات ، حين يخاف الانسان ، وحين يدبِّر المراهق جريمة ضد احد اصدقائه ، إذا كان ما كنته في شبابي . ولتحملني الريح ، التي يُشجي صفيرها النائح الانسانية ، منذ ان وُجدت الريح والانسانية ، بضع دقائق قبل الاحتضار الأخير ، على عِظام اجنحتها ، عبر العالم ، المتلّهف إلى موتي . ساستمتع بعد ، في السر ، بنماذج الخبث البشري العديدة (إن أخاً ، دون ان يكون مرئياً ، يحبُّ ان يرى افعال إخوته). النسر ، الغراب ، البجع الخالد ، الاوّز الوحشي ، الكركي المسافر ، ستراني ، وقد استيقظت ، مرتجفة من البرد ، أمرّ على وميض البروق ، شبحاً مرعباً وسعيداً . لن يعرفوا ماذا يعني هذا . على الأرض، الافعى، عين الضفدع الكبيرة ، النمر ، الفيل ؛ في البحر ، الحوت ، سمك القرش ، مِطراق البحر ، الشفنين البحري البشع الشكل ، ضرس الفقمة القطبية ، ستتساءل : ماهي هذه المخالفة لقانون الطبيعة . وسيُلصق الانسان ، مرتجفاً جبينه على الأرض ، وسط تأوهاته . « نعم ، اني افوقكم جميعاً في قساوتي الفطرية ، تلك القساوة التي لم يكن أمر محوها منوطاً بي . الهذا السبب تظهرون امامي في هذه الحالة من السجود ؟ ام لعل السبب هو انكم تروني أجوب، ظاهرة جديدة ، كنجم مذنّب مفزع ، الفضاء المخضّب بالدم (يتساقط مني مطر دم من جسدي الكبير ، اشبه بغيمة قاتمة يدفعها الإعصار امامه). لا تخشوا شراً ، يا اولاد ، لا اريد ان العنكم . الاذى الذي الحقتموه بي كان كبيراً جداً ، وكبير جداً الاذى الذي الحقته بكم ،

كيما يكون إختيارياً . انتم ، سرتم في طريقكم ، انا ، في طريقي ، وكلتاهما متشابهتان ، كلتاهما منحرفتان . حتماً ، كان لنا ان نتلاقى ، في تشابه الطباع هذا ؛ الصدمة التي نتجت عن هذا التلاقي كانت مشؤومة علينا بصورة متبادلة ». عندئذ سيرفع البشر رأسهم ثانية شيئاً فشيئاً ، مستعيدين شجاعتهم ، كي يروا ذاك الذي يتكلم هكذا ، مادّاً عنقه كالحلزون . فجأة سيتغضّن وجههم المضطرم ، المتشنج ، مُظهراً اعنف الاهواء ، بشكل ان الذئاب سيعتريها الخوف ، سينتصبون كلهم معاً كزمبرك ضخم . يالها من لعنات ! يالها من تمزقات اصوات ! لقد عرفوني . ها ان حيوانات الأرض تنضم إلى البشر ، تردد على الاسماع صياحاتها الغريبة . لا حقد متبادل بعد ؛ الحقدان اديرا نحو العدو المشترك ، انا ؛ انهم يتقاربون بفعل موافقة كونية . ايتها الرياح ، التي تمسكني ، ارتفعي بي اعلى من ذلك ، اني اخشى الخيانة . نعم ، فلاختفِ شيئاً فشيئاً عن عيونهم ، شاهداً ، مرة اخرى ، على عواقب الاهواء ، راضياً تماماً . . . اشكرك ايها العمّاش لانك ايقظتني بحركة اجنحتك ، انت ، الذي يعلو انفك عنزقة لها شكل حدوة حصان : اني اتبين ، بالفعل ، انه لم يكن للاسف سوى مرض عابر ، واشعر بقرف اني اولد ثانية للحياة : البعض يقولون إنك جئت صوبي لتمتص لي ذلك القليل من الدم الذي يوجد في جسدي : لماذا هذه الفرضية ليست هي الحقيقة ! .

- ١١ -

عائلة تحيط بقنديل موضوع على الطاولة :

- يا ابني ، اعطني المقص الموضوع على هذه الكرسي .
- إنه ليس هنا يا امي .
- اذهب ابحث عنه إذن في الغرفة الأخرى . هل تذكر ذلك العهد ، ياسيدي الحلو ، حين كنا نتمنى الحصول على ولد ، نولد من خلاله ثانية ، ويكون عضداً لشيخوختنا ؟
- اذكره ، ولقد استجاب الله لرغباتنا . ليس لنا ان نتذمر من نصيبنا على هذه الأرض . إننا نبارك العناية الإلهية كل يوم لأفضالها . إن ابننا ادوارد يملك كل مفاتن امه .
- وصفات والده الرجولية .
- هذا هو المقص ، يا امي ؛ لقد وجدته أخيراً.

إنه يستأنف عمله . . . لكن شخصاً ما ظهر على باب المدخل ، وراح يتأمل خلال بضع لحظات ، اللوحة المعروضة امام عينيه :

ـ ماذا يعني هذا المشهد ! يوجد اناس كثيرون هم اقل سعادة من هؤلاء . ما هو المنطق الذي يعتمدونه كي يحبوا الوجود ؟ إبتعد ، يا مالدورور ، عن هذا البيت الآمن ؛ إن مكانك ليس هنا .

لقد انسحب !

ـ لا اعرف كيف يجري هذا ؛ لكني اشعر ان القوى البشرية تتصارع في قلبي . نفسي قلقة ، ودون ان اعرف لماذا : الجو ثقيل .

ـ يا امرأة ، اني اشعر بنفس انطباعاتك ؛ اني ارتعد خوفاً من ان يحدث لنا مكروه. فلنثق بالله ؛ فيه يوجد الرجاء الأعلى .
ـ امي ، اني اتنفس بالكد ؛ معي وجع رأس .
ـ انت ايضاً ، يا ابني ! سابلل لك جبينك واصداغك بالخل .
ـ لا ، يا امي الطيبة .
ـ انظروا ، انه يسند جسده على قفا الكرسي ، متعباً .
ـ ثمة شيء ينقلب فيَّ ، لا ادري له تفسيراً . الآن ، اصغر موضوع يغيظني .
ـ كم انت شاحب ! إن نهاية هذه السهرة لن تمر دون ان يغرقنا حادث مشؤوم نحن الثلاثة في بحيرة اليأس !

أسمع في البعيد صراخات طويلة لأوجع ألم.

ـ ابني !
ـ آه ! ياامي ! . . . اني خائف !
ـ قل لي بسرعة إذا كنت تتوجع .
ـ يا امي ، اني لا اتوجع . . . اني لا اقول الحقيقة .

الأب لا يثوب من دهشته :

ـ هذه صراخات نسمعها احياناً في صمت الليالي الخالية من النجوم . ومع اننا نسمع هذه الصراخات ، إلاّ ان الذي يرسلها ليس قريباً من هنا ؛ لاننا نستطيع ان نسمع هذه التأوهات عن مسافة ثلاثة فراسخ ، تنقلها الريح من

مدينة إلى اخرى . غالباً ما حدثوني عن هذه الظاهرة ؛ لكن لم تتح لي الفرصة قط ان احكم بنفسي على صدقها . يا امرأة كنتِ تحدثيني عن شقاء ؛ إن اعظم شقاء فعلي موجود خلال لولب الزمن الطويل ، إنما هو شقاء ذاك الذي يُقلق الآن نوم اشباهه . . .

أسمع في البعيد صراخات طويلة لأوجع ألم .

ـ نرجو السماء ان لا تكون ولادته نكبة على بلاده ، التي طردته من حضنها . إنه يمضي من قطر إلى قطر ، ممقوتاً في كل مكان . البعض يقولون إنه رازح تحت نوع من الجنون الفطري ، منذ طفولته . والبعض يعرفون فيما يخيل إليهم انه مغالٍ في قساوته الغريزية ، التي يخجل منها هو نفسه ، وان اهله ماتوا بسببها كمداً . ويوجد من يزعم انهم وصموه بلقب في شبابه ؛ ظل من جرائه شديد الحزن بقية حياته ، لأن كبرياءه الجريحة كانت ترى في هذا الأمر برهاناً واضحاً على خبث البشر ، الذي يظهر في السنوات الأولى ، ليتضاعف فيما بعد . هذا اللقب كان « الهامّة » ! . . .

أسمع في البعيد صراخات طويلة لأوجع ألم .

ـ يا ابني هذه اسرار نادرة ؛ أشفق على عمرك ان يكون قد سمعها ، وآمل انك لن تقلد ابداً هذا الرجل .
ـ تكلم، يا عزيزي ادوارد ؛ أجب بانك لن تقلد ابداً هذا الرجل .
ـ يا امي الحبيبة، التي أدين لها بالوجود ، أعدك ، إذا كان الوعد المقدس لطفل له ثمة قيمة ، ان لا اقلّد ابداً هذا الرجل ،
ـ هذا ممتاز ، يا ابني ؛ يجب ان يطيع المرء امه ، في أي امر كان .

لم نعد نسمع التأوهات .

ـ يا امرأة هل خلصت شغلك ؟
ـ يلزمني بعض غرزات لهذا القميص ، مع اننا أطلنا السهرة حتى ساعة متأخرة جداً .
ـ أنا ايضاً ، لم أفرغ من فصل بدأته . فلنستفد من آخر ومضات القنديل ؛ لأنه لم يعد فيه زيت تقريباً ، وليُنجز كلٌ منا عمله . . .

الولد هتف :

ـ إذا تركنا الله نعيش !

ـ أيها الملاك المتألق ، تعال إليّ ؛ ستتنزه في المرج ، من الصباح إلى المساء ؛ لن تعمل قط . إن قصري المدهش مشيًّد بحيطان من الفضة ، اعمدة من الذهب وابواب من الماس . ستنام حين تشاء ، على انغام موسيقى سماوية ، دون ان تؤدي صلاتك . عندما سوف تعرض الشمس ، في الصباح ، اشعتها البهية . وتحمل القُبّرة السعيدة ، صوتها ، على مد النظر ، في الاجواء ، فإنه يمكنك ان تبقى ايضاً في سريرك ، إلى أن يُتعبك ذلك . ستمشي فوق اثمن السجاجيد ؛ ستكون بصورة دائمة محاطاً بجو مكوًّن من الخلاصات المعطرة لازكى الورود رائحة .

ـ حان الوقت لإراحة الجسد والروح . إنهضي ، يا ام العائلة ، على عرقوبيك العَضِلين . من الحق ان تترك اصابعكِ المتيبسة إبرة العمل المبالغ فيه . لا خير في التطرف .

ـ آه ! كم ستكون حياتك لذيذة ! ساعطيك خاتماً مسحوراً ؛ عندما تدير ياقوتته الحمراء ، تصبح لا مرئياً ، كالامراء ، في قصص الخرافات .

ـ ضعي اسلحتك اليومية في الخزانة الواقية ، بينما انا ، من جهتي ، أُدبّر اموري .

ـ عندما تردّ الياقوتة إلى وضعها المعتاد ، فإنك تظهر من جديد كما كوًّنتك الطبيعة ، ايها الساحر الصغير . هذا لاني احبك واتوق إلى ان اصنع سعادتك .

ـ إذهب ، كائناً من كنت ؛ لا تأخذني من اكتافي .

ـ يا ابني ، لا تهجع قط ، مهدهداً باحلام الطفولة : الصلاة المشتركة لم تبدأ بعد وثيابك لم توضع بعد بعناية على كرسي . . . سجوداً ! ايها الخالق السرمدي للكون ، انك تُظهر طيبتك التي لا تنضب حتى في اصغر الأشياء .

ـ ألا تحب إذن السواقي الصافية ، حيث تنزلق آلاف الاسماك الصغيرة ، حمراء ، زرقاء وفضية؟ ستأخذها في شبكة جميلة لدرجة انها ستجتذب السمك من تلقاء نفسها ، إلى ان تمتلىء به . عن السطح سترى حصى لمأّعة ، مصقولة أكثر مِن الرخام .

ـ يا امي ، انظري مخالبه ؟ اني اتوًّقى منه ؛ لكن ضميري مرتاح ، لأنه

ليس عندي ثمة ما الوم نفسي عليه .

ـ إنك ترانا ، ساجدين تحت اقدامك ، رازحين تحت وطأة الشعور بعظمتك . إذا ما تسللت فكرة متكبرة إلى مخيلتنا ، فإننا نلفظها رأساً مع رضاب الاحتقار ، ونعمل لك منها التضحية التي لا تُغتفر .

ـ ستستحم مع فتيات صغيرات ، سيحتضنَّك باذرعهن . وما ان تخرج من الحمَّام حتى يضفرن لك اكاليل الزهر والقرنفل . سيكون لهن اجنحة فراشة شفافة وشعور ذات طول متموِّج ، تطفو حول لطافة جبينهن .

ـ حتى لو كان قصرك اجمل من البللور ، فاني لن اخرج من هذا المنزل لاتبعك . اعتقد انك لست سوى دجَّال ، بما إنك تكلمني بكل هذا الصوت الخافت مخافة أن يسمعك احد ، مغادرة الأهل عمل رديء . لست انا من قد يصبح ولداً عاقاً. اما عن فتياتك الصغيرات ، فإنهن لسن جميلات بمستوى عيون امي .

ـ لقد استنفدنا كل حياتنا في اناشيد مجدك : هكذا كنا حتى الآن ، وهكذا سنكون ، حتى اللحظة التي نتلقى فيها منك الأمر بمغادرة هذه الأرض .

ـ إنهن سيمتثلن لاصغر إشارة منك ، ولن يفكرن إلاّ في إرضائك . إذا اشتهيت العصفور الذي لا يرتاح قط ، لقدمنه لك . إذا اشتهيت عربة الثلج ، التي تنقل إلى الشمس بلمحة عين ، لقدمنها لك . وماذا عساهن لا يقدمن لك ! سيقدمن لك حتى طائرة الورق ، كبيرة كبرج مخبأ في القمر ، ومعلَّق بذنبه ، بوشائج من حرير ، عصافير من كل الاجناس . إنتبه لنفسك . . . إسمع نصائحي .

ـ إفعل ما تريد ؛ لا اريد ان اقطع الصلاة ، كي اطلب النجدة . ومع ان جسدك يتبخر ، عندما اريد إبعاده ، فأعلم اني لا اخشاك .

ـ امامك ، ليس ثمة ما هو كبير، إلاّ اللهم الشعلة المتصاعدة من قلب طاهر .

ـ فكّر في ما قلته لك، إذا كنت لا تريد أن تندم على ذلك.

ـ ايها الأب السماوي ، أُطرد ، أُطرد المصائب التي يمكن ان تنقضّ على عائلتنا .

ـ ألاّ تريد إذن ان تنسحب ، ايها الروح الشرير ؟

ـ إحفظ هذه الزوجة العزيزة ، التي عزّتني في فتورات همّتي . . .

ـ بما إنك ترفضني ، فإني سأجعلك تبكي وتصرّ باسنانك كالمشنوق .

ـ وهذا الولد المحب ، الذي تتفتح شفاهه العفّة بالكد لقبلات فجر الحياة .

ـ يا امي ، إنه يخنقني . . . يا ابي أغثني . . . لم اعد استطيع ان اتنفس . . . بركتكما !

صرخة سخرية عظيمة ارتفعت في الاجواء . انظروا كيف ان النسور ، طائشة، تسقط من اعلى الغيوم ، متدحرجة على نفسها ، وقد صعقها عمود الهواء تماماً .

ـ قلبه لا ينبض بعد . . . وهذه ماتت بذات الوقت مع ثمرة احشائها ، تلك الثمرة التي لم اعد لاتعرّف عليها ، لفرط ما لحقها من تشويه . . . يا زوجتي ! . . . يا ابني ! . . . اتذكر وقتاً بعيداً كنت فيه زوجاً وأباً .

لقد قال لنفسه ، أمام هذه اللوحة التي كانت معروضة امام عينيه ، بأنه لن يتحمل هذا الظلم . إذا كانت فعّالة ، القدرة التي وهبته إياها الارواح الجهنمية ، أو بالاحرى التي يستمدها من نفسه، فإن هذا الولد ، كان عليه ان يزول من الوجود قبل انقضاء الليل .

- ١٢ -

إن ذاك الذي لا يعرف ان يبكي (لانه دفع دائماً عذابه إلى الداخل) قد لاحظ انه موجود في النروج . لقد شاهد ، في جزر فورويه ، البحث عن اعشاش عصافير البحر ، في صدوع شاقولية ، وتعجب كيف ان الحبل من ثلاثمئة متر ، الذي يمسك الرائد فوق الهوة ، قد تمَّ إختياره على هذه الدرجة من المتانة . كان يرى في هذا الأمر ، مهما قيل ، مثلاً صارخاً على الطيبة البشرية ، وما كان بمقدوره أن يصدق عينيه . لو كان هو المولج بتحضير الحبل ، لكان جعل فيه حزّات في عدة مواضع ، كيما ينقطع ، ويدهوِّر الصياد إلى البحر ! ذات مساءٍ ، توَّجه نحو مقبرة ، والمراهقون الذين يجدون متعة في

اغتصاب جثث النساء الجميلات اللواتي متن منذ مدة قصيرة ، كان بامكانهم ، لو شاؤوا ، ان يسمعوا الحديث التالي ! ضائعاً في لوحة حدث سيجري في ذات الوقت .

« أليس إنك ، يا حفار القبور ، ستوّد التحدث معي ؟ حوت عنبر يصعد رويداً رويداً من اعماق البحر ، ويُبرز رأسه فوق المياه ، ليرى السفينة التي تمر في مناطق البحر المنعزلة هذه . إن الفضول وُلد مع الكون .

ـ ايها الصديق ، يستحيل عليَّ تبادل الآراء معك . طالما جعلت اشعة القمر الهادئة رخام القبور يتوهج . إنها الساعة الصامتة حين يحلم أكثر من كائن بشري بأنه يرى نساءً مكبَّلات يظهرن، ساحبات وراءهن اكفانهن ، المغطاة بلطخات من الدم ، كسماء سوداء ، من النجوم. إن الذي ينام يرسل تأوهات شبيهة بتأوهات محكوم بالاعدام إلى أن يستيقظ ، ويدرك ان الحقيقة هي ثلاث مرات اسوأ من الحلم . عليَّ الفروغ من تجويف هذه الحفرة بمعزقتي التي لا تتعب ، كيما تكون جاهزة غداً صباحاً . إننا ، كيما نقوم بعمل جديًّ ، يجب ان لا نعمل شغلتين بنفس الوقت .

ـ إنه يعتقد ان تجويف حفرة هو عمل جديّ ! اتعتقد ان تجويف حفرة هو عمل جديّ !

ـ عندما يقرر البجع الوحشي أن يقدم صدره لصِغاره كي يلتهموه، وليس له من شاهد إلّا ذاك الذي عرف ان يخلق مثل هذا الحب ، بغية ان يجعل البشر يخجلون ، ومع ان التضحية كبيرة ، فإننا نفهم هذا الفعل . عندما يرى شاب ، امرأة كان متدلهاً بها ، بين ذراعيّ صديقه ، وإذ ذاك يأخذ يدخن سيجارة ؛ لا يخرج من البيت ، ويعقد صداقة لا تنفصم عُراها مع الألم ؛ فإننا نفهم هذا الفعل . عندما يخضع تلميذ داخلي ، في مدرسة ثانوية ، خلال سنوات ، هي دهور ، من الصباح إلى المساء ومن المساء ، حتى اليوم التالي ، لحكم منبوذ من الحضارة، تظل عيونه دائماً عليه ، يحسّ ان امواجاً صاخبة من الحقد المتأصل ، تصعد ، كدخان كثيف ، إلى دماغه ، الذي يبدو له على وشك ان ينفجر . تصفرٌ له حمًى شديدة وجهه ، تقارب بين حاجبيه ، وتحفر له عيونه ، منذ اللحظة التي رموه فيها في الحبس ، حتى اللحظة ، الآخذة في الاقتراب ، التي سيخرج فيها منه ، يتفكر ، في الليل ، لأنه لا يريد ان ينام . تنطلق فكرته ، في

النهار ، من فوق حيطان مقر البلاهة، إلى أن يهرب ، او يطردوه ، كمصاب بالطاعون من هذا الدير الابدي ؟ فإننا نفهم هذا الفعل . إن تجويف حفرة يتجاوز غالباً قوى الطبيعة . كيف تريد ، ايها الغريب ، ان يقلب المعول هذه الأرض ، التي تغذينا أولاً ، ثم تعطينا سريراً مريحاً بمنجى من ريح الشتاء ، التي تصفر بغضب في هذه البلاد الباردة ، في حين ان الذي يمسك المعول ، بيديه المرتجفتين ، بعد ان يكون طوال اليوم قد جسّ باصابع متشنجة خدود الاحياء القدامى الذين يدخلون إلى مملكته ، يرى ، مساءً ، امامه ، مكتوباً باحرف من لهب على كل صليب خشب ، بيان المسألة المرعبة التي لم تحلّها الانسانية بعد : فناء او خلود النفس . خالق الكون ، لقد احتفظت دائماً بحبي له ؛ لكن إذا كنا بعد الموت ، يجب ان لا نعود موجودين ، لماذا أرى ، في معظم الليالي ، كلاً من القبور ينفتح ، وسكانها يرفعون بهدوء اغطية الرصاص ، ليذهبوا يتنشقون الهواء النقي .

ـ توّقف في عملك . الانفعال يسلبك قواك ؛ انك تبدو لي ضعيفاً كالقصب ؛ قد يكون جنوناً كبيراً أن تواصل . أنا قوي ؛ سآخذ مكانك . أنت قف على حدة ؛ ستعطيني إرشادات ، إذا كنت لا اعمل جيداً .

ـ كم ذراعاه عَضِلتان ، وكم يوجد من متعة في تأمله وهو ينكش الأرض بكل هذه السهولة !

ـ يجب أن لا يُقلق فكرك شك غير مجدٍ : إن كل هذه القبور المبعثرة في هذه الجبّانة ، كما الزهور في مرج ، مقارنة تعوزها الحقيقة ، هي جديرة بأن يقيسها الفرجار الصافي للفيلسوف . الهلوسات الخطرة يمكن أن تأتي في النهار ؛ لكنها تأتي على الاغلب في الليل . لذلك لا تعجب للرؤى الخارقة التي يبدو أن عيونك تلمحها . خلال النهار ، عندما يكون فكرك مرتاحاً ، إسأل ضميرك ؛ وسيقول لك ، بثقة ، إن الله الذي خلق الانسان بقطعة صغيرة من ذكائه ذاته يملك طيبة لا حدود لها ، وسيستقبل ، بعد الموت الأرضي ، هذه التحفة في حضنه . يا حفار القبور ، لماذا تبكي ؟ لماذا هذه الدموع ، الشبيهة بدموع امرأة ؟ تذكر هذه الحقيقة جيداً ؛ إننا موجودون على هذه السفينة المنزوعة الصواري من اجل أن نتألم . إنها لجدارة ، في الانسان ، أن يكون الله قد وجده خليقاً بالتغلب على اخطر آلامه . تكلم ، وبما اننا، بحسب اعز رغباتك لا نتألم ، قل لي مِمَ تتألف إذن الفضيلة ، ذلك المثال الأعلى الذي يجهد كل واحد

لبلوغه ، إذا كان لسانك مصنوعاً مثل ألسنة بقية البشر .

ـ اين أنا ؟ ألم يتغيَّر طبعي ؟ اشعر أن نفثة عزاء جبَّارة تمسّ جبيني الهادىء ، كما يحيي نسيم الربيع امل العجائز . من هو هذا الرجل الذي نطق لسانه السامي باشياء ما كان ليلفظها أي شخص كان ؟ أي جمال موسيقي في النغمْ الذي لا يُضاهى لصوته ! أُفضل أن اسمعه يتكلم ، على أن اسمع آخرين يغنّون . ومع ذلك ، كلما راقبته ، كلما بدا لي وجهه غير صادق . إن التعبير العام لملامحه يتناقض بشكل غريب مع عباراته التي استطاع أن يوحي بها حب الله وحده . إن جبينه المتجعد ببعض الغضون، مطبوع بندبة لا تُمحى . هذه الندبة ، التي جعلته يشيخ قبل اوانه ، هل هي جديرة بالاحترام أم شائنة ؟ هل يجب أن ننظر إلى تجاعيده بتوقير؟ هذا ما اجهله ، وما اخشى أن اعرفه . مع انه يقول ما لا يفكر به ، إلّا أني اعتقد أن لديه اسباباً ليتصرف على نحو ما فعل ، تحرِّضه البقايا السملة لمحبة مقوَّضة فيه . إنه مستغرق في تأملات هي مجهولة لدي ، ويضاعف نشاطه في عمل صعب لم يتعوَّد القيام به . العرق يبلل جلده ؛ وهو لا يلاحظ ذلك . إنه اتعس من المشاعر التي توحي لنا بها رؤية طفل في المهد . اواه ! كم هو مغتمّ ! . . . من اين تخرج ؟ . . . ايها الغريب ، إسمح لي أن المسك ، وأن تفرض يداي ، اللتان نادراً ما تشدان على ايدي الاحياء ، نفسها على نبل جسدك . مهما صار ، ساعرف بماذا اتمسك . شَعره هو اجمل شعر لمسته في حياتي . من سيكون متهوراً بما فيه الكفاية ليجادل في اني لا اعرف نوعية الشعر ؟

ـ ماذا تريد مني ، عندما احفر قبراً ؟ إن الاسد لا يتمنى أن يزعجوه ، عندما يقتات . إذا كنت لا تعرف هذه الحقيقة ، فأني أُعلمك إياها . هيا ، عجِّل ؛ أُنجز ما ترغب فيه .

ـ إن ما يرتعش لدى ملامستي ، وهو يجعلني ارتعش أنا نفسي ، هو لحم ، وهذا ما لا مجال للشك فيه . إنه صحيح . . . أنا لا احلم ! من تكون إذن ، انت ، يا من تنحني هنا لتحفر قبراً ، بينما انا ، ككسول يأكل خبز الآخرين ، لا اعمل شيئاً ؟ هذه ساعة ان ننام ، أو ان نضحي براحتنا من أجل العلم . على كل حال لا احد هو غائب عن بيته ، ويحاذر أن يترك بابه مفتوحاً ، كي لا يدع اللصوص يدخلون . إنه يعتكف في غرفته ، قدر ما يستطيع ، بينما يعرف رماد المدفأة القديمة بعد كيف يدفىء القاعة ببقية من حرارة . أنت ، لا

تفعل كالآخرين ؛ أن ثيابك تشير إلى ساكن ثمة بلد بعيد .

- مع اني لست متعباً ، فإنه من غير المجدي تجويف الحفرة أكثر من ذلك . الآن إنزع عني ثيابي ؛ ثم ، ضعني داخل الحفرة .

- إن الحديث ، الذي تبادلناه نحن الاثنين ، منذ بضع لحظات ، هو غريب لدرجة اني لا اعرف بماذا اجيبك . . . اعتقد انه يريد ان يضحك .

- نعم ، نعم ، هذا صحيح ، أريد ان اضحك ، لا تُعرْ انتباهاً بعد لما قلته .

لقد إنهار ، وحفار القبور سارع إلى إسناده .

- ما بك ؟

- نعم ، نعم ، هذا صحيح ، لقد كذبت . . . كنت متعباً عندما تركت المعول . . . هذه المرة الأولى التي كنت اؤدي فيها هذا العمل . . . لا تُعرْ انتباهاً بعد لما قلته .

- إن رأيي يأخذ قواماً أكثر فأكثر : هذا شخص لديه احزان رهيبة . فلتنزع السماء مني فكرة أن استفهمه . أفضل أن ابقى في الشك ، لفرط ما يوحيه لي من شفقة . ثم ، قد لا يوِّد أن يجاوبني، هذا اكيد : إن الكشف عن القلب وهو على هذه الحالة الشاذة هو بمثابة التألم مرتين .

- دعني اخرج من هذه المقبرة ؛ سأكمل طريقي .

- إن ساقيك لا تحملانك قط ؛ ستضيع ، فيما أنت تمشي . من واجبي أن أُقدم لك سريراً خشناً ، لست املك غيره . ثِق بي ؛ لأن الضيافة لن تطلب قط إنتهاك حرمة اسرارك .

- ايها القملة الموقرة ، أنتِ يا من جسدكِ هو مجرَّد من الاغماد ، لقد لمتيني ذات يوم ، بشدة لأني لا احب بما فيه الكفاية ذكاءك السامي ، الذي لا يسمح لاحد بإدراكه ؛ ربما كنتِ على حق ، بما أني لا اشعر بعرفان الجميل نحو هذا الرجل . يا فانوس مالدورور إلى أين تقود خطاه ؟

- عندي . لئن كنت مجرماً ، لم يأخذ احتياط غسل يده بالصابون ، بعد

ارتكاب جرمه ، ومن السهل التعرف عليه ، بفضل تفتيش يده ؟ أو أخاً تسبب في ضياع اخته ؟ أو عاهلاً مخلوعاً ما ، هارباً من ممالكه ، فإن قصري الفخم حقاً ، هو جدير باستقبالك . إنه لم يُشيَّد بالماس والاحجار الكريمة ، لأنه ليس سوى كوخ فقير ، رديء البنيان ، لكن هذا الكوخ المشهور له ماضٍ تاريخي يجدده الحاضر ويواصله دون توقف . لو كان بمقدوره أن يتكلم ، لاثار أعجابك انت الذي لا تبدو تتعجب لشيء . كم من مرة رأيت ، أنا وإياه بنفس الوقت ، نعوشاً جنائزية ، تمر امامي ، محتويةً على عِظام ، ستصبح قريباً منخورة أكثر من قفا بابي ، الذي كنت اتكىء عليه . إن اتباعي الذين لا يحصرهم عد يتزايدون كل يوم . لست بحاجة لأن اقوم ، في اوقات ثابتة ، بأي احصاء لادرك ذلك . هنا ، كما عند الاحياء ؛ كل واحد يدفع ضريبة ، تتناسب مع غِنى المقر الذي اختاره ؛ وإذا رفض ثمة بخيل أن يسلّم حصته ، لدي اوامر ، وأنا اخاطب شخصه ، بأن افعل مثل البوَّابين : لن يعدم ابناء آوى ونسور قد يرغبون بتناول غداء طيب . لقد رأيتهم ، يصطفون تحت بيارق الموت ، ذاك الذي كان جميلاً ؛ ذاك الذي ، بعد حياته ، لم يتبشع ؛ الرجل ، المرأة ، الشحاذ ، ابناء الملوك ؛ اوهام الشباب ، هياكل العجائز العظمية ، العبقرية ، الجنون ؛ الكسل ، نقيضه ؛ ذاك الذي كان زائفاً ، ذاك الذي كان صحيحاً؛ قناع المتكبر ، احتشام المتواضع ؛ الرذيلة المتوَّجة بالزهور والبراءة المغدورة .

ـ لا طبعاً ، لا ارفض مضجعك اللائق بي ، إلى أن يجيء الفجر، الذي لن يتأخر قط . اشكر لك حسن إلتفاتك . . . ياحفار القبور ، جميل أن نتأمل خرائب المدن ؛ لكنه جميل أكثر أن نتأمل خرائب الآدميين .

- ١٣ -

كان شقيق العَلَقة يمشي بخطى بطيئة في الغابة . إنه يتوقف تكراراً ، وهو يفتح فمه ليتكلم . لكن ، كل مرة يضيق حلقه ، ويدفع إلى الوراء المجهود المُجهض . إنه ، اخيراً ، يصرخ : « أيها الانسان ، عندما تصادف كلباً ميتاً مقلوباً ، متكئاً على هويس قناة يمنعه أن يذهب ، لا ترُح ، كالآخرين ، تأخذ بيدك ، الدودات التي تخرج من بطنه المنتفخ ، تتأملها بدهشة ، تفتح سكيناً ، ثم تقطع عدداً كبيراً منها ، وأنت تقول لنفسك إنك ، أنت أيضاً ، لن تكون أكثر من هذا الكلب . عن أي سر خفي تبحث ؟ لا أنا ، ولا الاربع قوائم ـ زعانف للدب البحري للاوقيانوس الشمالي ، استطعنا العثور على معضلة

الحياة . إحترس ، الليل يقترب ، وأنت هنا منذ الصبح . ماذا ستقول العائلة ، مع اختك الصغيرة ، لرؤيتك تصل متأخراً إلى هذا الحد ؟ إغسل يديك ، إسلك من جديد الطريق التي تفضي إلى حيث تنام . . . من هو هذا الكائن هناك ، عند الأفق ، والذي يجروُ أن يقترب مني ، دون خوف ، بوثبات مائلة وهائجة ؛ وأي جلال ، ممزوج برقة هادئة ! إن نظرته عميقة ، مع انها عذبة . إن اهدابه الضخمة تلعب مع النسيم ، ويبدو انها تعيش ، انه مجهول لدي . وأنا احدق في عيونه المسيخة ، يرتعش بدني ؛ هذه أول مرة ، منذ أن مصصت الاثداء الجافة لما يُسمى أماً . يوجد ما يشبه هالة باهرة من النور حوله . عندما تكلم ، كل شيء سكت في الطبيعة ، وأحسَّ برعشة كبيرة . بما انه يحلو لك أن تأتي إليَّ ، وكأنك منجذب بمغناطيس ، فأني لن اعترض على ذلك . ما اجمله ! يؤلمني أن اقول ذلك . يجب أن تكون قوياً ؛ لانك تملك وجهاً أكثر من بشري ، حزيناً كالكون ، جميلاً كالانتحار . أني أبغضك قدر ما استطيع ؛ وأفضل أن أرى افعى ملتفة حول عنقي منذ بدء العصور ، على أن أرى عيونك . . . كيف ! . . . هذا انت ايها الضفدع ! . . . ايها الضفدع السمين . . . ايها الضفدع المنكود الطالع ! . . . اعذرني ! . . . اعذرني ! . . . ماذا جئت تفعل على هذه الأرض حيث يوجد الملعونون ؟ لكن ماذا فعلت اذن ببثورك الدبقة والنتنة ، لتظهر بهذه الهيئة الناعمة إلى هذا الحد ؟ عندما نزلت من الاعالي ، بموجب امر فوقاني، لتنفيذ مهمة تعزية مختلف اجناس الكائنات الموجودة ، هويت على الأرض ، بسرعة الحدأة، وأجنحتك غيرتعبة من هذه الجولة الطويلة الرائعة ؛ لقد رأيتك ! ايها الضفدع المسكين ! بما اني كنت حينذاك افكر باللانهاية ، وبذات الوقت بضعفي . « هذا واحد إضافي متفوق على ابناء الأرض ، قلت في نفسي : هذا بفضل الإرادة الإلهية . أنا ، لِمَ لا ايضاً ؟ ما نفع الظلم ، في المراسم الفوقانية؟ هل هو احمق ، الخالق ، في حين انه الأقوى ، وغضبه رهيب ! » منذ أن ظهرت لي ، يا ملك المستنقعات والسبخات ! مسربلاً بمجد لا يملكه سوى الله ، عزيتني جزئياً ؛ لكن عقلي المترنح تَلِفَ امام كل هذه العظمة ! من انت إذن ؟ إبقَ . . . آه ! إبقَ ايضاً على هذه الأرض ! اطوِ جناحيك الأبيضين ، ولا تنظر إلى فوق ، باهداب مغتمّة . . . إذا رحلت ، فلنرحل سويةً ! » الضفدع جلس على فخذيه الخلفيين (اللذين يشبهان كثيراً افخاذ الانسان !) وفيها كانت البزّاقات ، حمير القبّان ، والحلازين تهرب لدى رؤية ألد اعدائها ، بدأ الكلام بهذه العبارات : « مالدورور ، إسمعني . إلحظْ

وجهي ، الهادىء كمرآة ، وأظن أني املك ذكاء مساوياً لذكائك . ذات يوم ، دعيتني سَند حياتك . منذ ذلك الحين ، لم أُخيِّب الثقة التي محضّتني إياها . لست سوى ساكن اعشّاب مائية بسيط . هذا صحيح ؛ لكني بفضل الاحتكاك الشخصي بك ، غير آخذٍ سوى ما كان جميلاً فيك ، إتسع عقلي ، واستطيع ان أُكلمك . لقد جئت نحوك ، كيما انتشلك من الهاوية . إن اؤلئك الذين يتلّقبون باصدقائك ينظرون اليك ، وقد صعقهم الذهول ، كلما صادفوك ، شاحباً محدودباً ، في المسارح ، في الاماكن العامة ، في الكنائس ، أو ضاغطاً ، بفخذين عصبيين ذاك الحصان الذي لا يعدو إلاّ اثناء الليل . بينما يحمل سيده - الشبح ، المتجلبب في معطف طويل اسود . إهجرْ هذه الأفكار ، التي تجعل قلبك فارغاً كالصحراء ؛ إنها مُحرقة أكثر من النار . إن روحك مريضة لدرجة انك لا تلاحظ ذلك ، وتظن انك في حالتك الطبيعية ، كل مرة يخرج فيها من فمك عبارات خرقاء ، رغم كونها مليئة بعظمة جهنمية . إيها الشقي ! ماذا قلت منذ يوم ولادتك ؟ يا بقية تعسة لذكاء خالد ، خلقه الله بحب كبير ! إنك لم تتمخض إلاّ عن لعنات ابشع من رؤية الفهود الجائعة ! أنا ، أُفضّل أن تكون لي اهداب مُلصقة ببعضها ، وجسد ينقصه ساقان وذراعان ، أن اكون قد قتلت إنساناً ، على أن اكون انت ! لأني اكرهك . لماذا تملك هذا الطبع الذي يثير دهشتي ؟ بأي حق تأتي إلى هذه الأرض ، لتستهزىء باؤلئك الذي يقطنونها ، أيها الانسان المحطمُّ المنحط ، الموّار بالارتيابية ؟ إذا كنت لست مسروراً على هذه الأرض ، يجب عليك أن تعود إلى الأفلاك التي جئت منها . إن ساكن المدن يجب أن لا يُقيم في القرى ، أشبه بغريب. نعرف انه يوجد ، في الفضاء ، افلاك ارحب من فلكنا ، نفوسها يملكون ذكاءً لا نستطيع حتى أن نتصوره . حسناً ، إذهب إليها ! . . . إنسحب من هذه التربة المتحركة ! . . . أُظهر اخيراً جوهرك الإلهي ، الذي اخفيته حتى الآن ، وبأسرع ما يمكن ، وّجه طيرانك المتصاعد نحو الفلك ، الذي لا نرغب فيه ، أيها المتكبر ! لأني لم اتوصل إلى معرفة فيما إذا كنت إنساناً أو أكثر من انسان ! وداعاً إذن ، لا تؤمل بعد أن تعثر من جديد على الضفدع لدى مرورك . لقد كنت سبب موتي . أنا ، ارحل إلى الأبدية ، من أجل ان التمس لك المغفرة ! ».

- ١٤ -

إذا كان من المنطقي احياناً أن نفوّض الأمور إلى مجلى الظواهر ، فإن

النشيد الأول ينتهي هنا . لا تكن قاسياً على ذاك الذي لا يفعل بعد سوى أن يجرِّب قيثارته : إنها تُسمع نغماً غريباً جداً ! إلا إنك ، إذا اردت أن تكون منصفاً، ستكتشف منذ الآنِ سَمة قوية ، وسط الشوائب . اما فيما يختص بي ، فإني ساعود إلى العمل ، لأُصدر نشيداً ثانياً ، خلال مدة من الزمن لا تكون متأخرة جداً . إن نهاية القرن التاسع عشر ستشاهد شاعرها (إلّا انه ، في البداية ، لا يجب ان يبدأ بُطرفة رائعة ، بل أن يتبع قانون الطبيعة) ؛ لقد وُلد على الشواطىء الاميركية ، على مصبّ « البلاتا »، حيث شعبان متخاصمان فيما مضى ، يجهدان حالياً لأن يتجاوزا بعضهما بالتقدم المادي والخُلقي . بيونس ايرس ، ملكة الجنوب ، ومونتفيديو ، المغناج، تمدان لبعضهما يداً صديقة ، عبر مياه مصبّ النهر الفضية . لكن الحرب الأزلية نصبت سيادتها الهدّامة فوق الارياف ، وهي تحصد بفرح ضحـايا عديدة . وداعاً ، ايها العجوز ، وفكّرْ بي ، إذا كنت قد قرأتني . انت ، ايها الشاب، لا تيأس قط ؛ لانك تملك صديقاً في شخص الهامّة ، رغم رأيك المناقض . وإذا حسبنا قمل العلّ الذي ينتج الجَرَب ، سيكون عندك صديقان !

(نهاية النشيد الأول)

النشيد الثاني

- ١ -

اين ذهب نشيد مالدورور الأول هذا، منذ أن تركه فمه، المليء بأوراق الأطْرُب، يفلت، عبر ممالك الغضب، في لحظة تفكير؟ اين ذهب هـذا النشيد. . . لا نعرف بالضبط. ليست الأشجار، ولا الرياح هي التي احتفظت به. وعلم الاخلاق، الذي كان يمر في هذا الموضع، إذ حدس انه لا يملك، في هذه الصفحات المتأججة، مُدافعاً نشيطاً، رآه يتوجه، بخطوة ثابتة ومستقيمة، نحو الخبايا المعتمة والألياف الخفية من الضمائر. ما هو على الأقل مُكتَسب بالنسبة للعلم، هو ان الانسان، الضفدعي الوجه، لم يعد، منذ ذلك الوقت يتعرَّف إلى نفسه، وصار يقع احياناً في ثورات من الجنون تجعله يشبه وحشاً من الغابات. هذه ليست غلطته. في كل الأزمان، ظنَّ، واهدابه مطوية تحت خزام التواضع، إنه ليس مكوَّناً إلاّ من الخير ومن كمية طفيفة من الشر. فجأة، لقنّته، وأنا اكتشف في وضح النهار قلبه وانسجته، إنه، بالعكس، ليس مكوَّناً إلاّ من الشر، ومن كمية طفيفة من الخير يلاقي المشترعون صعوبة في أن لا يتركوها تتبخر. قد أُود أن لا يشعر، وأنا لا أُلقنه شيئاً جديداً، بخجل ابدي بسبب حقائقي المرَّة؛ لكن تحقق هذه الرغبة لن يكون مطابقاً لقوانين الطبيعة. بالفعل، أني أُنزع القناع عن وجهه الخائن والمليء بالوحل، وأُسقط واحدة واحدة، ككرات من العاج فوق حوض من الفضة، الاكاذيب السامية التي يخدع بها نفسه: إنه لمن المفهوم إذن، ان لا يأمر الهدوء بأن يلمس وجهه مُبارِكاً، حتى

عندما يبدِّد العقل ظلمات الغرور. لهذا السبب، فإن البطل الذي اضعه على المسرح قد جذب على نفسه حقداً لدوداً، وهو يهاجم الانسانية، التي كانت تظن نفسها معصومة، من خلال ثغرة خطبات محالة مختصة بحب البشر؛ إنها متراكمة كحبات رمل، في كتبه، التي أهمُّ احياناً، عندما يهجرني العقل، أن أقدِّر جانبها الهزلي المضحك جداً، إنما المضجر. هذا ما تنبأ به. لا يكفي أن ننحت تمثال الطيبة على جبهية الأرقاق التي تحتوي عليها المكتبات. إيه أيها الكائن البشري! هأنتذا، الآن، عارٍ كدودة، في حضرة سيفي الماسي! تنازل عن منهجك: لم يعد وقت التظاهر بالكبرياء: أني ارفع نحوك صلاتي، في حالة السجود. يوجد احد ما يراقب ابسط حركات حياتك المذنبة؛ إنك مطوَّق بشبكات نفوذ بصره الحاذقة. لا تثق به، عندما يدير الأعنَّة؛ لأنه ينظر إليك، لا تثق به، عندما يغلق عينيه؛ لأنه ينظر إليك ايضاً. من الصعب الافتراض، فيما يمس المكائد والخبث، أن يكون قرارك الرهيب هو أن تتجاوز طفل مخيلتي. إن ابسط ضرباته تصيب الهدف. من الممكن، مع تحفظات، تلقين ذاك الذي يظن انه يجهل هذه الحقيقة أن الذئاب واللصوص لا تفترس بعضها: هذه ربما ليست عادتها. إذن إلقِ إليه، دون خوف، مقاليد امر وجودك: سيقوده بطريقة يعرفها. لا تؤمن بنيّته في اصلاحك التي يجعلها تلمع في الشمس، لأن اهتمامه بك هو دون المتوسط، كي لا اقول إنه أقل من ذلك، وحتى عندئذٍ لا اكونَ اقتربت من الحقيقة الشاملة، التي هي قياس فحصي المتسامح. لكن هذا لأنه يحبّ أن يؤذيك، من ضمن الإقناع المشروع في ان تصبح شريراً مثله، وأن ترافقه إلى هاوية الجحيم الفاغرة عندما ستدق هذه الساعة. إن مكانه محدد منذ زمان طويل، في الموضع الذي نلاحظ فيه مشنقة من حديد، تتدلى منها سلاسل واغلال. عندما سيحمله القدر إليها، فإن القُمُع الجنائزي لن يكون قد ذاق قط فريسة أَلذ، ولا هو تأمل مقراً ملائماً أكثر. يخيل إليّ أني اتكلم بطريقة ابوية عمداً، وإن الانسانية ليس من حقها أن تتذمر.

- ٢ -

اني أُمسك الريشة التي ستبني النشيد الثاني... أداة منزوعة من اجنحة ثمة عُقاب شطٍ اصهب! لكن... ما بها إذن اصابعي؟ المفاصل تبقى مشلولة، ما إن إبدأ عملي. مع ذلك، أنا بحاجة إلى كتابة فكرتي: لي الحق، مثل غيري، في أن أخضع لهذا القانون الطبيعي... لكن لا، لكن لا، الريشة تظل جامدة!

خذوا، إنظروا، عبر الارياف، إلى البرق الذي يومض في البعيد. العاصفة تجوب الفضاء. إنها تمطر... إنها تمطر دائمًا... شد ما تمطر!... الصاعقة انفجرت... لقد سقطت على شباكي نصف المفتوح، وطرحتني على البلاط، مصاباً في الجبين. أيها الشاب المسكين! إن وجهك كان قبلاً مُطرّياً بما فيه الكفاية بالتجاعيد المبكرة والتشوّه بالولادة، كي لا يكون بحاجة، بالاضافة إلى ذلك، إلى هذه الندبة الكبريتية الطويلة! (لقد افترضت لتوي أن الجرح قد شُفي، وهذا ما لن يحصل عما قريب). لماذا هذه العاصفة، ولماذا شلل اصابعي؟ هل هذا تنبيه من الأعالي لمنعي من الكتابة، ولأتبصر أكثر فيما اتعرَّض إليه، حين أقطّر لعاب فمي المرَّبع. لكن هذه العاصفة لم تسبب لي الخوف. ماذا يهمني فيلق من العواصف. إن مأموري الشرطة السماوية هؤلاء يؤدون واجبهم الشاق بحمية، إذا حكمت على ذلك بإيجاز من خلال جبيني المجروح. ليس لي أن اشكر العلي-القدير على مهارته الجديرة بالملاحظة. لقد ارسل الصاعقة بنوع أن تقطع بدقة وجهي إلى شطرين، إبتداءً من الجبين، وهو الموضع الذي كان فيه الجرح أكثر خطورة: فليُهنِّئه أحد غيري! لكن العواصف تهاجم شخصاً اقوى منها. هكذا إذن أيها الخالق الشنيع، الافعواني الوجه، كان يجب، غير مكتفٍ بانك وضعت روحي بين حدود الجنون وخواطر الهيجان التي تقتل بصورة بطيئة، ان تعتقد، بالاضافة إلى ذلك، مؤآتياً لجلالك، بعد فحص دقيق، ان تُخرج من جبيني كأساً من الدم!... لكن، الحاصل، من يقول لك شيئاً؟ إنك تعرف أني لا احبك، وأني، بالعكس اكرهك: لماذا تصرّ؟ متى سيكف سلوكك عن التغلّف بمظاهر الغرابة؟ تحدَّث إليّ بصراحة، كما إلى صديق: ألّا يراودك الشك، اخيراً، بأنك تتبدى، باضطهادك القبيح، عن تعجل ساذج، لن يجروء، أحد من ملائكتك على إبراز معنى هزليته كاملًا! أي غضب يستبد بك؟ إعلمْ إنك لو تركتني اعيش بمنجى من ملاحقاتك، فإني سأكون مديناً لك بعرفان الجميل... هيا، يا «سلطان»، خلّصني، بلسانك، من هذا الدم الذي يوِّسخ ارضية الغرفة. التضميد انتهى: جبيني وقد انقطع سيلانه غُسل بالماء المالحة، ولقد صالبت العصائب عبر وجهي. النتيجة ليست لا نهائية: اربعة قمصان مليئة بالدم ومحرمتان. قد لا نصدق للوهلة الأولى، ان مالدورور يحتوي على كل هذا القدر من الدم في شرايينه؛ إذ، على وجهه لا تتوهج سوى انعكاسات الجثة. لكن، الحاصل، هذه هي الحال. لعل هذا تقريباً هو كل الدم الذي يمكن أن يحتوي عليه جسده، ومن الأرجح أنه لم يبق فيه الكثير منه. كفى، كفى، أيها الكلب

الشره؛ إترك ارضية الغرفة كما هي؛ لقد امتلأ بطنك. يجب أن لا تستمر في الشرب؛ لإنك قد لا تتأخر في الإستفراغ. إنك شبعان كفاية، إذهب واضجع في وجارك؛ إعتبرْ نفسك تسبح في الفرح؛ لإنك لن تفكر بالجوع، خلال ثلاثة أيام طويلة، بفضل الكريات التي انزلتها إلى حلقومك، برضىً جليّ للعيان بشكل احتفالي. أنت، يا ليمان، خذ مكنسة، قد أُود انا ايضاً أن آخذ واحدة، لكني لا املك القدرة على هذا الأمر. إنك تفهم، أليس كذلك، أني لا املك القدرة على هذا الأمر؟ أعدْ دموعك إلى غمدها؛ وإلّا، فاني قد اظن انك لا تملك الشجاعة على ان تتأمل، برباطة جأش، الندبة الكبيرة، التي تسبب بها عذاب ضائع منذ الآن بالنسبة لي في ليل الازمنة الغابرة. ستذهب لتجلب عن العين دلويّ ماء. وحين تغسل ارضية الغرفة، ستضع هذه البياضات في الغرفة المجاورة. إذا عادت الغسالة هذا المساء، كما يجب ان تفعل، فانك ستعطيها إياها؛ لكن بما ان الدنيا امطرت كثيراً منذ ساعة، وانها تستمر في المطر فاني لا اعتقد انها ستخرج من بيتها؛ في هذه الحال، ستأتي غداً صباحاً. إذا سألتك من اين جاء كل هذا الدم، لست ملزماً بأن تجاوبها. اواه! كم انا ضعيف! ما هم، ستكون لي، مع ذلك، القوة على رفع مسكة الريشة، والشجاعة على قدح زناد فكري. ماذا استفاد الخالق من إرباكي، كما لو كنت طفلاً، بعاصفة تحمل الصاعقة؟ اني اظل ثابتاً على قراري في الكتابة. إن هذه العصائب تضايقني، وجو غرفتي يتنفس الدم . . .

- ٣ -

عسى ان لا يجيء اليوم، حين سنمرّ، لوهنغرين وانا، في الشارع، الواحد إلى جانبِ الآخر، دون ان نلتفت إلى بعضنا، متماسينّ بالمرفق، كعابريّ سبيل مستعجلينّ. آه، دعوني اهرب إلى الأبد بعيداً عن هذا الافتراض! الخالق خلق العالم كما هو: انه قد يُظهر الكثير من الحكمة لو انه، خلال الوقت الضروري بدقة لتحطيم رأس امرأة بضربة مطرقة، نسي جلاله الكوكبي، كيما يكشف لنا عن الأسرار التي يختنق وسطها وجودنا، كسمكة في جوف قارب. لكنه كبير ونبيل؛ انه يتفوق علينا بعظمة مفاهيمه؛ انه اذا تفاوض مع البشر، فإن كل المخازي سترتد على وجهه. لكن. . . يا لك من شقي! لماذا لا تحمرًّ؟ لا يكفي ان يكون جيش الآلام الجسدية والمعنوية الذي يحاصرنا، قد تم توليده: إن سر قدرنا الرث ليس مباحاً لنا. أعرفه، العلي- القدير. . . وهو، ايضاً يجب

ان يعرفني. اذا، بالصدفة، مشينا على نفس الدرب، فإن نظره الثاقب يراني آتياً من بعيد: إنه يسلك طريقاً مختصرة، كيما يتحايد نَبلة البلاتين المثلّثة التي منحتني إياها الطبيعة بمثابة لسان! ستسبب لي سروراً، ايها الخالق، اذا تركتني أفيض مشاعري. اني أنذرك، مستعملاً السخريات الرهيبة، بيد حازمة وباردة، أن قلبي يحتوي منها ما يكفي، كي اهاجمك، حتى نهاية حياتي. سأضرب هيكلك العظمي الفارغ؛ انما بقوة، لدرجة اني اتكفل بأن استخرج منه اجزاء الذكاء الصغيرة الباقية التي لم تشأ أن تعطيها للانسان، لانك كنت لتغار من ان تجعله مساوياً لك، والتي خبأتها بصفاقة في إمعائك ايها اللص الماكر، كما لو انك لم تكن لتعرف اني في يوم او في آخر سأكون قد اكتشفتها بعيني المفتوحة دائمًا، وانتشلتها، وتقاسمتها مع أشباهي. لقد فعلت كما اتكلم، والآن، لم يعودوا يخشونك؛ انهم يتعاملون معك على مستوى واحد من القدرة. أمِتني، تكفيراً عن جرأتي: اني اكشف عن صدري وانتظر باتضاع. إظهري إذن، ايتها الإتساعات الساخرة لعقوبات مؤبدة!... ايتها الانتشارات المفخمّة لخاصيات ممجّدة للغاية! لقد أظهر عن العجز في توقيف دورة دمي التي تحتقره. مع ذلك، لديَّ براهين بانه لا يتردد في إخماد، في زهرة العمر، انفاس آدميين آخرين، حين يكونون بالكد قد تذوقوا ملذات الحياة. هذا بكل بساطة فظيع؛ انما، فقط، وفقاً لضعف رأيي! لقد رأيت الخالق، مُستنهضاً قساوته اللامجدية، يُشعل حرائق يهلك فيها العجائز والاطفال! لست انا الذي يبدأ الهجوم؛ انه هو الذي يجبرني ان اجعله يدور، كخذروف، بالسوط الفولاذيَّ الحبال. أليس هو الذي يمدني بالاتهامات ضد نفسه. عسى ان لا تنضب قريحتي المريعة قط! انها تتغذى من الكوابيس الخرقاء التي تُضني سُهاداتي. إن ما سبق قد تم كتابته بسبب لوهنغرين؛ فلنرجع إذن إليه. مخافة ان يصبح فيما بعد مثل بقية البشر، قررت بادىء الامر ان اقتله بطعنات السكين، حين سيكون قد تجاوز عمر البراءة. لكني تفكرت، وتخليت بحكمة عن قراري في الوقت المناسب. إنه لا يشك ان حياته كانت في خطر خلال ربع ساعة. كل شيء كان جاهزاً، والسكين كان قد تمَّ شراؤها. هذا الخنجر كان ظريفاً، لاني احب اللطافة والاناقة حتى في ادوات الموت؛ لكنه كان طويلاً ومروَّساً. جرح واحد في العنق، وانا اطعن بحرص احد الشرايين السباتية، واعتقد ان هذا كان ليكون كافياً. إني مسرور من سلوكي، كنت لأندم فيما بعد. إذن، يا لوهنغرين، إفعل ما تريد، تصرَّف كما يحلو لك، إحبسني كل حياتي في سجن مظلم، مع عقارب بمثابة رفاق لأسري، او إقتلع لي عيناً الى ان

تقع على الارض، فاني لن اوجه لك ادنى ملامة؛ إني لك، إني ملك لك، إني لم اعد اعيش من اجل نفسي. إن الالم الذي ستسببه لي لن يكون قابلاً للمقارنة مع فرح ان اعرف، ان ذاك الذي يجرحني، بيديه المجرمتين، هو منقوع في جوهر اكثر إلهية من جوهر أشباهه! نعم، انه لجميل ايضاً ان نعطي حياتنا من اجل كائن بشري، وان نحتفظ هكذا بالأمل بأن كل البشر ليسوا اشراراً، بما انه قد وُجد واحد، اخيراً، عرف كيف يجتذب، بالقوة، نحوه، النفورات الحذرة لتعاطفي المرّ!...

- ٤ -

إنه منتصف الليل؛ لم يعد يُرى عربة واحدة من «الباستيل» إلى «المادلين». اني اخطىء؛ هذه واحدة تظهر على حين غرة، وكأنها خارجة من تحت الارض. البضعة من المارة المتأخرين ينظرون إليها بانتباه؛ لانها يبدو انها لا تشبه اي عربة اخرى. يجلس في طبقتها العلوية، رجال عينهم جامدة، كعين سمكة ميتة. انهم مكبوسون فوق بعضهم، ويبدو انهم فقدوا الحياة؛ مع ذلك، العدد النظامي لم يتم تجاوزه. عندما يكيل الحوذي لسعة سوط لجياده، يُخيل الينا ان السوط يحرّك الذراع، لا الذراع السوط. ماذا عساه يعني هذا التجميع لكائنات غريبة وخرساء؟ هل هم من سكان القمر؟ احياناً يراودنا مثل هذا الظن: لكنهم يشبهون بالاحرى جثثاً. العربة العامة تلتهم المدى، مستعجلة للوصول إلى المحطة الاخيرة، وتجعل البلاط يقرقع... إنها تهرب!... لكن كتلة لا شكل لها تلاحقها بعناد، متعقبة آثارها، وسط الغبار. «توّقفوا، ارجوكم؛ توّقفوا... لقد توّرمت ساقاي من المشي طوال اليوم... لم آكل منذ البارحة... اهلي تخلّوا عني... لا ادري ما افعل... لقد قررت العودة الى البيت، ولكنت اصل اليه بسرعة، لو انكم تمنحوني مطرحاً... اني ولد صغير في الثامنة من العمر، وانا اثق بكم...» إنها تهرب!... إنها تهرب!... لكن كتلة لا شكل لها تلاحقها بعناد، متعقبة آثارها وسط الغبار. احد هؤلاء الرجال الباردي العين، يلكع جاره بكوعه، ويبدو انه يُعرب له عن استيائه من هذه التأوهات، ذات الرنة الفضية، التي تصل إلى اسماعه. الآخر يخفض رأسه بطريقة غير محسوسة، بمثابة موافقة، ويغرق من جديد بعد ذلك في سكون انانيته، كسلحفاة في قوقعتها. كل شيء يشير في ملامح بقية المسافرين إلى نفس مشاعر هذين الأولين. الصراخات تظل مسموعة ايضاً لمدة دقيقتين او ثلاث، اكثر حدة من ثانية إلى اخرى. نرى

نوافذ تُفتح على الجادة، ووجهاً مذعوراً، حاملاً ضوئاً بيده، يغلق من جديد الدرفة بعنف، بعد ان يلقي نظرة على قارعة الطريق، كي لا يعود إلى الظهور ثانية... إنها تهرب!... إنها تهرب!... لكن كتلة لا شكل لها تلاحقها بعناد، متعقبة آثارها، وسط الغبار. وحده، شاب، مستغرق في حلم اليقظة، وسط هؤلاء الاشخاص المقدودين من حجر، يبدو انه يحس بالشفقة حيال الشقاء. إنه لا يجروء ان يرفع صوته لنصرة الولد، الذي يظن انه يستطيع بلوغه بساقيه الصغيرتين المتألمتين، لان الرجال الآخرين يحدجونه بنظرات احتقار وتسلّط، وهو يعرف انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً ضد الجميع. انه يتساءل، سانداً مرفقه على ركبته، ورأسه بين يديه، مبهوتاً، إذا كان هذا هو حقاً ما يُسمى بالمحبة البشرية. فيدرك عندئذ ان هذه ليست سوى كلمة فارغة، لم نعد نعثر عليها حتى في قاموس الشعر، ويعترف صراحة بخطأه. انه يقول لنفسه: «بالفعل لماذا نهتم بولد صغير؟ فلنتركه جانباً». غير ان دمعة حارة كرجت على خد هذا المراهق، الذي جدَّف لتوه. انه يمرر يده بمشقة على جبينه، كما لينّحي غيمة تحجب عتامتها النور عن ذكائه. انه يكدّ، انما عبثاً، في هذا العصر، الذي قُذف به إليه، والذي يشعر فيه ان ليس في مكانه، ومع ذلك لا يستطيع الخروج منه. سجن رهيب! قدر بشع! لومبانو، اني مسرور منك منذ ذلك اليوم! لم اكف عن مراقبتك، فيما كان وجهي يتنفس ذات اللامبالاة التي أبداها بقية المسافرين. المراهق ينهض، في حركة سخط، ويريد ان ينسحب، كي لا يشارك، حتى لا إرادياً، في عمل رديء. اني اشير إليه، فيعود إلى جانبي... إنها تهرب! إنها تهرب!... لكن كتلة لا شكل لها تلاحقها بعناد، متعقبة آثارها، وسط الغبار. الصراخات تتوقف بغتة؛ لان الولد اصطدمت رجله ببلاطة ناتئة، وأصيب بجرح في رأسه، وهو يقع. العربة العامة اختفت عند الأفق، ولم نعد نرى سوى الشارع الصامت... إنها تهرب!... إنها تهرب!... لكن كتلة لا شكل لها لم تعد تلاحقها بعناد، متعقبة آثارها، وسط الغبار. انظروا لمّام الخِرق هذا الذي يمر، منحنياً على مصباحه الشاحب؛ يوجد فيه من القلب أكثر مما في جميع أشباهه ركاب العربة العامة. لقد التقط الولد لتوه؛ وكونوا اكيدين انه سيشفيه، ولن يتخلى عنه، كما فعل اهله. إنها تهرب!... إنها تهرب!... لكن من الموضع الذي هو موجود فيه، يلاحقها نظر لمّام الخِرق بعناد، متعقباً آثارها، وسط الغبار!... ايها الجنس الغبي والاحمق! ستندم لانك تصرفت على هذا الشكل. انا اقوله لك. ستندم لذلك، رُحْ! ستندم لذلك. إن شِعري لن يرتكز إلّا على

مهاجمة، بشتى الوسائل، الانسان، ذلك الوحش الكاسر، والخالق، الذي ما كان يجب ان يلد حشرة مماثلة. المجلدات ستتراكم فوق المجلدات، حتى نهاية حياتي، ومع ذلك لن يظهر فيها إلاّ هذه الفكرة الوحيدة، الحاضرة في ذهني ابداً!

- ٥ -

وانا اقوم بنزهتي اليومية، كل يوم كنت أمرّ في شارع ضيق؛ كل يوم، كانت فتاة صغيرة هيفاء في العاشرة من العمر تتبعني، عن مسافة، باحترام، على طول هذا الشارع، وهي تنظر إليّ باهداب جذابة وفضولية. لقد كانت كبيرة بالنسبة لعمرها وفارعة القوام. شعر غزير اسود، مفروق من الوسط على الرأس، كان يتساقط ضفائر مستقلة على اكتافها المرمرية. ذات يوم، كانت تتبعني كالمعتاد؛ فأمسكتها من شعرها ذراعا امرأة من الشعب عَضِلتان، كما تمسك الزوبعة الورقة، وطبعت صفعتين فظتين على وجنة أبية وصامتة، وأعادت إلى البيت هذا الضمير الشارد. عبثاً ما كنت أبدي اللامبالاة، فإنها لم تكن تتوانى ابداً عن ملاحقتي بحضورها الذي اصبح غير مناسب. عندما كنت اعبر إلى شارع آخر لأكمل طريقي، كانت تقف على آخر هذا الشارع الضيق، جامدة كتمثال الصمت، ولا تكف عن النظر امامها، إلى ان اتوارى. ذات مرة، سبقتني هذه الفتاة الصغيرة إلى الشارع وجعلتني أحتذي خطاها. إن سرت انا بسرعة لأتجاوزها، ركضت هي، تقريباً لتحفظ المسافة متساوية؛ لكن اذا ابطأت انا الخطى، كيما يكون هناك فاصل في الطريق كبير بما فيه الكفاية بيني وبينها، فانها كانت عندئذٍ تباطىء خطواتها هي ايضاً، وتضع فيها سحر الطفولة. وحين وصولها الى آخر الشارع، استدارت ببطء، بنوع ان تقطع عليّ الطريق. لم يتسنَ لي الوقت كي اتسلل؛ ووجدتني امام وجهها. كانت عيونها متورمة وحمراء. كنت ارى بسهولة انها تريد ان تكلمني، ولا تعرف كيف تبادر إلى ذلك. سألتني، وقد اصبحت فجأة شاحبة كجثة: «هل تتفضل وتقول لي كم هي الساعة؟» قلت لها اني لا احمل ساعة، وابتعدت بسرعة. منذ ذلك اليوم، ايتها الطفلة ذات الخيال القَلِق والمبكر النضج، ما عدتِ رأيتِ، في الشارع الضيق، الشاب الغامض الذي كان يتسكع بمشقة، بنعله الثقيل، فوق بلاط مفارق الطرق المتعرجة. إن ظهور هذا النجم المذنّب الملتهب لن يلمع بعد، كموضوع تاعس لفضول متعصب، على واجهة مراقبتكِ الخائبة الظن؛ ولسوف تفكرين غالباً، غالباً جداً، ربما دائماً، في ذاك الذي لم يكن يبدو انه يشغل باله بشرور، ولا خيرات

الحياة الحاضرة، والذي كان يمضي بلا تبصّر، بوجه ميت بفظاعة، شعر منتفش، مشية مترنحة، واذرع تسبح بعماء في مياه الاثير الهازئة، كما لتبحث عن فريسة الامل الدامية، المرتجة باستمرار، عبر مناطق الفضاء الرحبة، بفعل ريح القدر الصرصر العنيدة. إنكِ لن تريني بعد، وانا لن اراكِ! . . . من يعلم؟ لعل هذه الفتاة لم تكن ما تُظهره. لعلها كانت تخبىء تحت غلاف ساذج، مكراً عظيمًا، ثقل ثمانية عشر عاماً، وسحر الرذيلة. لقد رأينا بائعات هوىً يهاجرن بمرح من الجزر البريطانية، ويعبرن المضيق. كن ينشرن اجنحتهن، حائمات، في جماعات مذهَّبة، حول الضوء الباريسي؛ وعندما كنت تلمحهن، كنت تقول: «لكنهن لا زلن طفلات؛ ليس لهن من العمر أكثر من عشر او اثنتي عشرة سنة». في الحقيقة لقد كن في العشرين. اواه! إذا صح هذا الافتراض، فلتكن عطفات هذا الشارع الغامض ملعونة! فظيع! فظيع! ما يحدث هناك. اعتقد ان أمها ضربتها لانها لم تكن تؤدي مهنتها بمهارة كافية. جائز انها لم تكن إلّا طفلة، وفي هذه الحال فإن الام هي مذنبة اكثر. انا لا اريد ان اؤمن بهذا الافتراض، الذي ليس إلّا ظنية، وأفضّل ان أحب، في هذا الطبع الخيالي، روحاً تنكشف باكراً للغاية. . . آه! اترين، ايتها الفتاة الصغيرة، ادعوكِ ان لا تعودي إطلاقاً إلى الظهور امام عيني، إذا مررتُ قط ثانية في الشارع الضيق. إن هذا قد يكلفك غالياً! الدم والحقد يتصاعدان منذ الآن إلى رأسي، في امواج فوّارة. انا، كائن سَمِح بما فيه الكفاية كي أُحب أشباهي! لا، لا! لقد قررت ذلك منذ يوم ولادتي! انهم لا يحبوني، هم! سترون العوالم تتقوّض، والصوّان ينزلق، كالبجع، على صفحة الأمواج، قبل أن امسَّ اليد الدنيئة لكائن بشري. إلى الوراء. . . إلى الوراء، هذه اليد! . . . ايتها الفتاة الصغيرة، انتِ لستِ ملاكاً، وستصبحين إجمالاً، مثل باقي النساء. لا، لا، ارجوكِ، لا تعودي إطلاقاً إلى الظهور امام حاجبيَّ المقطبين والمريبين. في لحظة ضلال، قد آخذ ذراعيكِ، الويهما كبياض مغسول يعصرون منه الماء، او اكسرهما بقرقعة، كغصنين يابسين، واجعلكِ بعد ذلك تأكلينهما، مستعملاً العنف. قد أغرز، آخذاً رأسكِ بين يديّ، بهيئة متملِّقة ولطيفة، اصابعي الشرهة في فلقات دماغكِ البريء، لاستخرج منه، والابتسامة على شفتي، شحمًا فعّالاً يغسل عيوني، المتألمة بسبب سهاد الحياة الأبدي. قد احرمكِ، إذ أخيط اهدابك بابرة من مشهد الكون، واضعك في حالة استحالة العثور على طريقكِ؛ لست أنا من قد يكون لكِ مرشداً. قد امسككِ من ساقيكِ، رافعاً جسدكِ البكر بذراع من حديد، اجعلكِ

تتدحرجين حولي، كالمقلاع، أركز قواي وأنا أرسم آخر دائرة، وأقذفكِ على الحائط. كل قطرة ستتفجر من جديد على صدر بشري، لتُرعب البشر، ولتضع أمامهم النموذج عن قساوتي! سيتناتشون دون مهادنة مِزَقاً ومِزَقاً من اللحم؛ لكن نقطة الدم تظل لا تُمحى، في نفس الموضع، وستتوهج كالماسة. كوني مطمئنة، سأصدر الأوامر لنصف دزينة من الخدم بأن يصونوا بقايا جسدكِ الموّقرة من جوع الكلاب الشرهة. لا شك، أن الجسد بقي ملتصقاً على الحائط، كإجاصة ناضجة، ولم يسقط على الأرض؛ لكن الكلاب تعرف أن تقوم بوثبات عالية، إذا لم يتم الاحتياط للأمر.

- ٦ -

هذا الولد، الجالس على مقعد في حديقة التويلري، ما أُلطفه! عيونه الجريئة تحدج شيئاً لا منظوراً، بعيداً، في الفضاء. لا يجب ان يكون له من العمر اكثر من ثماني سنوات، ومع ذلك، لا يمرح، كما يليق به. كان خليق به على الأقل أن يضحك ويتنزه مع صديق ما، بدل ان يبقى وحده؛ لكن هذا ليس طبعه.

هذا الولد، الجالس على مقعد في حديقة التويلري، ما أُلطفه! ثمة رجل يأتي، مدفوعاً بتصميم مستتر، ويجلس قربه، على نفس المقعد، بهيئة مبهمة. من هو؟ لست بحاجة لأن اقوله لكم، لانكم ستتعرفون إليه من خلال حديثه الملتوي. فلنسمعهما، دعونا لا نزعجهما.

-بماذا كنت تفكر ايها الولد؟

-كنت افكر بالسماء.

-ليس ضرورياً ان تفكر بالسماء؛ انه لمما يكفي ان نفكر بالارض. هل انت تعبان من الحياة، انت الذي بالكد وُلدت لتوك؟

-لا، لكن كل واحد يفضِّل السماء على الارض.

-حسناً، ليس انا. لانه، بما ان السماء صنعها الله، وكذلك الأرض، فثق انك ستقابل فيها نفس الشرور الموجودة في الدنيا. انك بعد موتك، لن تُجازى وفقاً لمزاياك؛ لانهم اذا كانوا يرتكبون المظالم ضدك على هذه الارض (كما ستبلو ذلك، بالتجربة، فيما بعد)، ليس ثمة حجة لان لا يرتكبوا المظالم ضدك؛ في الآخرة ايضاً. إن افضل شيء تعمله، هو ان لا تفكر بالله، وان تنصف نفسك

بنفسك، بما انهم يرفضون إنصافك. إذا اهانك احد رفاقك، الن يُسعدك ان تقتله؟

ـلكن هذا ممنوع.

ـليس ممنوعاً إلى الحد الذي تتصوره. جل ما في الأمر عليك ان لا تتركهم يقبضون عليك. العدالة التي تقدمها القوانين لا تساوي شيئاً؛ ما يهم انما هو قضاء المُهان. إذا كنت تكره احد رفاقك، الن تكون تعيساً لفكرة ان صورته ستكون ماثلة امام عينيك في كل دقيقة؟

ـهذا صحيح.

ـهوذا إذن واحد من رفاقك سيجعلك تعيساً كل حياتك؛ لانه عندما يرى ان حقدك ليس إلاّ سلبياً، سيستمر في إزدرائك، والتسبب في إيذائك دون عقاب. ليس إذن ثمة إلاّ وسيلة لوضع حد لهذا الموقف؛ هو التخلص من عدونا. هذا ما كنت اريد الوصول إليه، لاجعلك تفهم على أي اسس بُني المجتمع الحاضر. كل واحد يجب ان ينصف نفسه بنفسه، وإلا فانه ليس سوى احمق. إن الذي يحرز الانتصار على أشباهه، انما يكون هو الأكثر دهاءً وقوة. الن ترغب ذات يوم ان تسيطر على أشباهك؟

ـنعم، نعم.

ـكن إذن الأكثر قوة ودهاءً. إنك لا تزال صغيراً جداً كيما تكون الأقوى؛ لكنك تستطيع، منذ اليوم، ان تستعمل الدهاء، اروع أداة في يد العباقرة. عندما أصاب الراعي داوود العملاق غوليات في جبينه بحجر مقذوف من المِقلاع، أليس مدهشاً ان نلاحظ ان داوود غلب خصمه بالدهاء فقط، ولو انهما بالعكس تماسكا من وسط الجسم، لكان العملاق سحقه كذبابة؟ وهكذا الحال بالنسبة لك. في حرب مفتوحة، لن يمكنك ابداً ان تغلب البشر، الذين تودّ ان تفرض عليهم ارادتك، لكنك بفضل الدهاء، تستطيع ان تكافح وحدك ضد الجميع. انك تشتهي الثروات، القصور الجميلة والمجد؟ ام انك خدعتني عندما أكدت لي على هذه الطموحات النبيلة؟

ـابداً، ابداً، لم اكن اخدعك. لكني أود الحصول على ما اشتهيه بوسائل اخرى.

ـإذن لن تحصل على شيء. الوسائل الفاضلة والطيبة لا تؤدي إلى شيء. يجب تشغيل عتلات أنشط وحبكات اذكى. قبل ان تصبح مشهوراً بفضيلتك وتبلغ هدفك، سيتسنى الوقت لمئة شخص غيرك ان يظهروا خفة ومهارة من وراء

ظهرك، وان يصلوا في نهاية الطريق قبلك، بنوع ان لا يبقى ثمة مطرح لافكارك الضيقة. يجب ان نعرف كيف نحتضن، بعظمة اكبر، أفق الزمن الحاضر. الم تسمع قط، مثلاً، عن المجد الضخم الذي تجلبه الانتصارات؟ ومع ذلك فإن الانتصارات لا تتم من تلقاء نفسها. يجب إراقة الدماء، الكثير من الدماء، من اجل توليدها وإيداعها تحت اقدام الغزاة. وبدون الجثث والاعضاء المبعثرة التي تلمحها في السهل، حيث تمت المجزرة بحكمة، ما كان ليكون هناك حرب، وبدون حرب ما كان ليكون هناك انتصار. انك ترى انه على المرء، إذا ما اراد ان يصبح مشهوراً، ان يغطس في أنهار من الدم، يغذيها لحم المدفع. الغاية تبرر الوسيلة. ان اول شيء، كيما تصبح مشهوراً، هو ان تملك المال. وبما انك لا تملك المال فيجب ان تقتل كي تحصل عليه؛ لكن بما انك لست قوياً بما فيه الكفاية لتستعمل الخنجر، إعمل لصاً، بانتظار ان تكون اعضاؤك قد نمت. ولكي تنمو اعضاؤك بسرعة أكبر، انصحك ان تقوم بالرياضة البدنية مرتين في اليوم، ساعة صباحاً، وساعة مساءً. بهذه الطريقة، ستتمكن من تجريب الجريمة، مع بعض النجاح، في سن الخامسة عشرة، بدل ان تنتظر حتى العشرين. ان حب المجد يغتفر كل شيء، وربما، فيما بعد، عندما تصبح سيداً على أشباهك ستعمل لهم من الخير بقدر ما عملت لهم من الشر في البداية!...»

مالدورور يلاحظ ان الدم يغلي في رأس مخاطبه الصغير؛ أن منخاره متورّم، وأن شفاهه تلفظ زبداً ابيض. إنه يجسّ نبضه؛ النبضات متسارعة. الحمّى قد اجتاحت هذا الجسد الرقيق. إنه يخاف عواقب كلماته؛ انه ينسحب، الشقي، مغتاظاً لانه لم يتمكن من محادثة هذا الولد لمدة اطول من ذلك. إذا كنا في سن الرشد نلاقي صعوبة كبيرة في السيطرة على اهوائنا، متأرجحين بين الخير والشر، فماذا عساها تكون الحال بالنسبة لنفس لا تزال مليئة بالغرارة؟ واي كمية من الطاقة النسبية لا يلزمها زيادة عنا؟ الولد لن يعاني إلّا من ملازمة الفراش لمدة ثلاثة ايام. نرجو السماء ان تجلب الملامسة الامومية السلام إلى هذه الوردة الحساسة، الغلاف السريع العطب لروح جميلة.

- ٧ -

هنا، في غيضة محاطة بالزهور، ينام الخنثاوي، مستسلماً لنعاس عميق فوق الأرض المعشبة، المبللة بدموعه. القمر حرَّر اسطوانته من كتلة الغيوم، وراح يداعب باشعته الشاحبة الوجه الناعم لهذا المراهق، الذي تعبِّر ملامحه عن اكثر

الطاقات رجولة، وبذات الوقت عن لطافة عذراء إلهية. لا شيء يبدو طبيعياً فيه، حتى ولا عضلات جسده، التي تشق لها طريقاً عبر الحدود المنســجمة لأشكال أنثوية. انه يملك ذراعاً مثنية على جبهته، واليد الأخرى مُسندة على الصدر، كما لتكظم دقات قلب مغلق على كل بوح، ومثقل بالعبء الباهظ لسر ابدي. تعبان من الحياة، وخجلان ان يمشي بين مخلوقات لا تشبهه، اليأس بلغ روحه، وهو يمضي وحيداً كشحاذ الوادي. كيف يدّبر لنفسه اسباب البقاء؟ نفوس رؤوفة تسهر عن قرب عليه، دون ان يفطن إلى هذه المراقبة، ولا يتركونه: انه طيب جداً! انه مستسلم جداً! انه يتكلم احياناً بطيبة خاطر مع اؤلئك الذين يملكون طبعاً حساساً، دون ان يمس يدهم، ويقف على مسافة، مخافة خطر وهمي. واذا ما سألوه لماذا اتخذ الوحدة رفيقاً، ترتفع عيونه نحو السماء، وتحبس دمعة عتاب ضد القدر؛ لكنه لا يجيب على هذا السؤال الطائش، الذي يبث، في ثلج جفونه، إحمرار الوردة الصباحية. انه يصبح قلقاً، إذا ما طالت المقابلة، يدير عيونه في اربع جهات الأفق، كما ليحاول ان يهرب من حضور عدوٍ لا منظور آخذ بالاقتراب، يشير بيده علامة وداع مفاجىء، يبتعد على اجنحة خَفَره الحذِر، ويختفي في الغابة. إنهم غالباً ما يعدّونه مجنوناً. ذات يوم، انقضّ عليه اربعة رجال مقنّعين، تلقوا اوامر، وربطوه بوثاق متين، بنوع انه ما عاد بامكانه ان يحرِّك ساقيه. السوط أهال سيوره الخشنة على ظهره. وقالوا له ان يتوّجه دون إبطاء نحو الطريق المؤدية إلى «بيسيتر». طفق يبتسم وهو يتلقى الضربات، وحدثهم بعاطفة كبيرة، بذكاء عن كثير من العلوم الانسانية التي درسها، والتي كانت تُظهر ثقافة عظيمة في ذاك الذي لما يتجاوز بعد مرحلة الشباب، وعن مصائر البشرية حيث كشف عن نبل روحه الشاعرية كاملاً، حتى ان حراسه، وقد روّعهم حتى الدم العمل الذي ارتكبوه، فكوا اعضاءه المحطمة، ابتهلوا اليه راكعين، طالبين الصفح الذي حصلوا عليه، وابتعدوا، مع دلائل تبجيل لا يحظى البشر بمثله عادة. ومنذ تلك الحادثة، التي تداولتها الالسن كثيراً، حزر الجميع سره، لكنهم تظاهروا بالجهل، لكي لا يزيدوا من آلامه؛ والحكومة تمنحه نفقة محترمة، لكي تُنسيه انهم في لحظة ما ارادوا إدخاله بالقوة، دون اي فحص مسبق، إلى مصحة للمجانين. هو، يستعمل نصف ماله؛ الباقي، يعطيه للفقراء. عندما يرى رجلاً وامرأة يتنزهان في ممر دُلب ما، يشعر ان جسده ينفلق إلى اثنين من اسفل إلى اعلى، وكل قسم جديد يذهب ليعانق احد المتنزّهين؛ لكن هذه ليست سوى هلوسة، والعقل لا يلبث ان يستعيد سلطانه. لذلك لا

يمزج حضوره، لا بين الرجال، ولا بين النساء؛ لان حشمته الزائدة، التي انبثقت من فكرة انه ليس سوى مسخ، تمنعه ان يهب تعاطفه الحار لكائن من كان. وإلا لظن انه يدنس نفسه، ولظن انه يدنس الآخرين. إن كبرياءه تردد عليه هذه البديهة: «فليبق كل واحد في طبيعته». كبرياؤه، قلت. لانه يخشى فيما لو قرن حياته إلى رجل او إلى امرأة، ان يلوموه عاجلاً او آجلاً، على تشكل جسمه، كما لو كان غلطة ضخمة. حينئذ يتخندق في حبه لذاته، وقد أهانه هذا الافتراض الكافر، الذي لم يصدر إلّا عنه، ويثابر على البقاء وحيداً، وسط اوجاعه، وبدون تعزية. هنا، في غيضة محاطة بالزهور، ينام الخنثاوي، مستسلمًا لنعاس عميق فوق الأرض المعشبة، المبللة بدموعه. العصافير، المستيقظة، تتأمل، بافتتان هذا الوجه الكئيب، عبر اغصان الشجر، والعندليب لا يريد ان يُسمع الحانه البللورية البسيطة. الغاب صار مهيباً كقبر، بفضل الحضور الليلي للخنثاوي المنكود الطالع. ايه ايها المسافر التائه، استحلفك بروح المغامرة، التي جعلتك تهجر اباك وامك، منذ اطرى سنوات العمر؛ بالعذابات التي سبّبها لك العطش، في الصحراء؛ بوطنك الذي تبحث عنه ربما، بعد ان تشرّدت طويلاً، منفياً، في بلاد غريبة؛ بفرسك، صديقك المخلص، الذي تكبّد معك، المنفى وتقلّب المناخات، التي كان مزاجك الجوّال يحملك على الطواف بها؛ بالكرامة التي تمنحها للانسان الاسفار فوق الاراضي البعيدة والبحار غير المكتشفة، وسط الجليد القطبي، او تحت تأثير شمس محرقة، استحلفك ان لا تمس بيدك، كما برعدة النسيم، ضفائر الشعر هذه، المنتثرة على اديم الثرى، والممتزجة بالعشب الأخضر. هذا الشعر مقدس؛ الخنثاوي ذاته اراد ذلك. إنه لا يريد لشفاه بشرية أن تقبّل بورع ديني هذا الشعر، الذي عطرّته انفاس الجبل، ولا جبهته، التي تتألق، في هذه اللحظة، كنجوم السماء. لكن ما هو احرى بالاعتقاد ان نجمة بذاتها نزلت من مدارها، وهي تجتاز الفضاء، على هذه الجبهة الجليلة، التي تحيطها بسنائها الماسي، كما بهالة. الليل، منحيّاً بالاصبع تعاسته، يرتدي كل جمالاته ليحتفي برقاد هذا التجسيد الحي للحشمة، هذه الصورة الكاملة لبراءة الملائكة: ان طنين الحشرات هو اقل قابلية لان تدركه الحواس. الاغصان تحني فوقه اوراقها العالية الكثيفة، لتحميه من الندى، والنسيم، مرجّعاً اصداء اوتار قيثارته الشجية، يرسل انغامه الفرحة، عبر الصمت الكوني، نحو اهدابه المسبَلة، التي يخيل اليها انها تشهد، جامدة، الحفلة الموسيقية الموّقعة للعوالم المعلّقة. انه يحلم انه سعيد؛ ان طبيعته الجسدية قد تغيرت؛ او انه، على الأقل،

طار على غيمة ارجوانية، نحو كوكب آخر، تسكنه مخلوقات من نفس طبيعته. واسفاه! فليستمر وهمه حتى يقظة الفجر! انه يحلم ان الزهور ترقص من حوله في دائرة، كأكاليل ضخمة مجنونة، وتنفذ اليه بعطورها الشذية، فيما هو يغني نشيد حبٍ، بين ذراعيّ كائن بشري سحريّ الجمال. لكن ما يضمه بين ذراعيه ليس سوى بخار غسقي، وعندما سوف يستيقظ لن تضمه ذراعاه بعد. لا تستيقظ، ايها الخنثاوي؛ لا تستيقظ بعد، ارجوك. لماذا لا تريد ان تصدقني؟ إهجعٍ... اهجع بعد. فليرتفع صدرك، وهو يتابع الأمل الخيالي في السعادة، هذا أسمح لك به؛ لكن لا تفتح عينيك. آه! لا تفتح عينيك! اريد ان اغادرك هكذا، كي لا اكون شاهداً على يقظتك. ربما ذات يوم بفضل كتاب ضخم، في صفحات متأثرة، سأحكي قصتك، مرتاعاً لما تحتوي عليه، وللدروس التي تُستخلص منها. حتى الآن، لم اتمكن من القيام بهذه المهمة؛ لاني كلما اردت ذلك، كانت دموع غزيرة تتساقط على الورق، وكانت اصابعي ترتعش، دون ان يكون ذلك بداعي الشيخوخة. لكني اريد في النهاية ان املك هذه الشجاعة. اني مغتاظ لأنه ليس لي اعصاب اكثر من امرأة، ولانه يُغمى عليَّ، كفتاة صغيرة، كلما فكرت في شقائك الكبير. إهجع... إهجع دائماً؛ ألا إياك ان تفتح عينيك. آه! إياك ان تفتح عينيك! وداعاً ايها الخنثاوي! لن يفوتني، كل يوم، ان أُصليّ للسماء من أجلك (لوكان من اجلي، لما كنت أُصلي لها). فليكن السلام في احشائك.

- ٨ -

عندما ترسل امرأة، ذات صوت نديّ، علاماتها الموسيقية المؤثرة والشجية، فإن عيوني، لدى الاستماع إلى هذا التآلف النغمي البشري، تمتلىء بشعلة مستترة وتقذف شرارات مؤلمة، بينما يبدو ان ناقوس خطر القصف المدفعي يدوي في آذاني. من اين يمكن ان يأتي هذا النفور العميق من كل ما يتعلق بالانسان؟ إذا تطايرت التساوقات من اوتار آلة، فإني اسمع بشهوة حسية هذه العلامات الموسيقية المجوّهرة التي تفلت بايقاع عبر موجات الجو المرنة. إن الادراك الحسي لا ينقل الى سمعي سوى انطباع يحتوي على عذوبة قمينة بتذويب الاعصاب والفكر؛ غفوة فائقة الوصف تغلّق بخشخشاتها السحرية، كما بستارة تخفِّف من وهج نور النهار، القدرة الفعّالة لحواسي والقوى الحية لخيالي. يحكون اني وُلدت بين ذراعيّ الصمم! في اول عهود طفولتي، لم اكن اسمع ما يقولونه لي. عندما توصلوا، مع اكبر الصعوبات، إلى تعليمي النطق،

فإني لم اكن اتمكن من إيصال خيط افكاري، بدوري، إلا فقط بعد ان اكون قد قرأت على ورقة ما كان احدهم يكتبه. ذات يوم، يوم مشؤوم، كبرت في الجمال والبراءة؛ وكل واحد كان يعجب بذكاء وطيبة المراهق الإلهي. كثيرون من الضمائر كانوا يحمرّون عندما كانوا يتأملون هذه الملامح الصافية حيث ركّزت روحه عرشها. لم يكونوا يقتربون منه إلا بتوقير، لانهم كانوا يلاحظون في عيونه نظرة ملاك. لكن لا، كنت اعرف بزيادة ان الورود السعيدة للمراهقة ما كان لها ان تزهر بلا انقطاع، مضفورة في اكاليل نزقة، على جبينه المتواضع والنبيل، الذي كانت تقبله بجنون جميع الامهات. كان قد بدأ يتهيأ لي ان الكون، بقبته المكوكبة بكرّات عديمة الحس ومزعجة، لم يكن ربما اكثر ما كنت احلم به فخامة. ذات يوم، إذن، وقد تعبت من ان اتعقب بقدمي درب الرحلة الارضية الوعر، وان امضي، وانا اترنح كرجل سكران، عبر دياميس الحياة المظلمة، رفعت ببطء عيوني السوداوية، المحاطة بدائرة كبيرة زرقاء، نحو تجويف القبة الزرقاء، وتجرأت ان اخرق، انا، اليافع إلى هذا الحد، اسرار السماء! حين لم اعثر على ما كنت ابحث عنه، رفعت جفني المرتاع اعلى، اعلى ايضاً، إلى ان لمحت عرشاً، مكوّناً من غائط بشري وذهب، يتربع عليه، بعجرفة بلهاء، وجسده مغطى بكفن مصنوع من شراشف مستشفى غير مغسولة، ذاك الذي يسمي نفسه الخالق! كان يمسك بيده الجذع المتعفن لرجل ميت، ويحمله، بالتناوب، من العيون إلى الانف الى الفم؛ وحين يصل إلى الفم، تحزرون ما كان يفعل به. كانت قدماه غائصتين في بركة دم ضخمة في حالة غليان، كان يرتفع على سطحها فجأة، كدودات شريطية عبر محتوى مبولة، رأسان حذران او ثلاثة، كانا ينخفضان على التو، بسرعة السهم: ركلة، مركّزة جيداً على عظمة الأنف، كانت المكافأة المعروفة على التمرد على النظام، الذي تسبّبه الحاجة إلى تنفس محيط آخر؛ لان هؤلاء البشر، اخيراً، لم يكونوا اسماكاً! حيوانات برمائية على الأكثر، كانوا يسبحون بين مائين في هذا السائل الدنس! . . . إلى أن كان الخالق، ولم يعد في يده شيء، يمسك، بمخلبيّ قدمه الاولين، غطّاساً آخر من العنق، كما بملقط، ويرفعه في الهواء، خارج الإناء المحمومر، صلصة لذيذة! كان يفعل لهذا مثل الآخر. كان يلتهم اولاً الرأس، السيقان والاذرع، وفي المقام الأخير الجذع، إلى ان لا يبقى شيء قط؛ لأنه كان يقضم له العِظام. وهكذا دواليك خلال بقية ساعات ابديته. احياناً كان يصرخ: «لقد خلقتكم؛ إذن من حقي ان افعل لكم ما أشاء. لم تفعلوا لي شيئاً، لا اقول العكس. اني أعذبّكم،

وهذا من اجل لذتي». وكان يستأنف غداءه القاسي، وهو يحرِّك فكه الاسفل، الذي كان يحرِّك لحيته المليئة بالنخاع. ايه ايها القارىء، ألاّ يجعلك هذا التفصيل الأخير تتحلَّب. لا يأكل كل من يريد من مثل هذا النخاع، الطيب للغاية، الطازج تماماً، والذي تمَّ إصطياده، منذ اقل من ربع ساعة من بحيرة السمك. لقد كنت، مشلول الاعضاء، صامت الحلق، اتأمل بعض الوقت هذا المشهد. ثلاث مرات كدت اقع على قفاي، كرجلٍ يخضع لانفعال عنيف للغاية؛ ثلاث مرات توصلت إلى الوقوف ثانية على رجليّ. ولا عصب في جسدي بقي جامداً؛ وكنت ارتجف، كما ترتجف حمم البركان الداخلية. اخيراً، وقد بات صدري المحصور عاجزاً ان يطرد بالسرعة الكافية الهواء الذي يعطي الحياة، انفتحت شفتا فمي، واطلقت صيحة... صيحة ممزقة لدرجة... اني سمعتها! عِقال اذني انحلّت بصورة مفاجئة، طبلتها قرقعت تحت صدمة هذه الكتلة من الهواء الرنان المدفوعة بعيداً عني بقوة، وحدثت ظاهرة جديدة في العضو المحكوم عليه من قِبَل الطبيعة. لقد سمعت لتوي صوتاً! حاسة خامسة كانت تتكشف فيَّ! لكن اية لذة كان يمكني العثور عليها في مثل هذا الاكتشاف؟ من بعد، لم يصل الصوت البشري إلى اذني إلا مع الشعور بالألم الذي تولِّده الشفقة على ظلم كبير. عندما كان احد ما يكلمني، كنت اتذكر ما رأيته، ذات يوم، فوق الافلاك اللامنظورة، وترجمة عواطفي المخنوقة إلى عويل عاتٍ، كانت رنته الخاصة مطابقة لرنة أشباهي! لم يكن بوسعي ان اجاوبه؛ لان التعذيبات الممارَسة على الضعف البشري، في هذا البحر الأرجواني الكريه، كانت تمر امام جبيني وهي تجأر كافيال مسلوخة، وتجاحف باجنحتها النارية شعري المتكلّس. فيما بعد، حين عرفت الانسانية أكثر، إنضم إلى هذا الشعور بالشفقة هيجان شديد ضد هذه الأُم النمرة الشرسة التي لا يعرف ابناؤها القساة سوى ان يلعنوا ويعملوا الشر. جسارة الكذب! إنهم يقولون ان الشر ليس عندهم إلا في حالة الاستثناء!... الآن، إنتهى منذ زمان طويل؛ منذ زمان طويل، لا اوِّجه الكلام الى احد. انتم، كائناً من كنتم، عندما تصبحون قربي، حذار ان تفلت اوتار مزماركم اية نبرة؛ أن تروح حنجرتكم الجامدة تجهد لتبزّ العندليب؛ وانتم ذاتكم لا تحاولوا قط ان تكشفوا عن روحكم بواسطة اللغة. إلزموا صمتاً ورعاً لا يقطعه شيء؛ صالبوا باتضاع يديكم على صدركم، ووّجهوا اهدابكم نحو الاسفل. لقد قلته لكم، منذ الرؤية التي جعلتني اعرف الحقيقة العليا، ما يكفي من كوابيس امتصت حلقي بشراهة، خلال الليالي والنهارات، لئلا يظل عندي الشجاعة على

تحديد، حتى بالفكر، الآلام التي شعرت بها في تلك الساعة الجهنمية، التي تلاحقني دون هوادة بذكراها. اواه! عندما تسمعون الجرُف الثلجي يهوي من اعلى الجبلِ البارد؛ اللبوءة تتشكى، في الصحراء القاحلة، من إختفاء صِغارها؛ العاصفة تحقق مصيرها؛ المحكوم بالاعدام يجأر، في السجن، عشية الصعود إلى المقصلة؛ والاخطبوط الضاري يروي، لامواج البحر، اخبار انتصاراته على السبّاحين والغرقى، قولوا الحقيقة، أليست هذه الاصوات الجليلة اجمل من ضحك الانسان.

- ٩ -

يوجد حشرة يغذيها البشر على نفقتهم. إنهم ليسوا مدينين لها بشيء؛ لكنهم يخشونها. إن تلك، التي لا تحب الخمر، بل تفضّل الدم، إذا لم يتم إشباع حاجاتها المشروعة، فإنها قد تكون، بفعل قدرة سرية، قمينة بأن تصبح في ضخامة فيل، وان تسحق البشر كالسنابل. لذلك يجب ان نرى كم يحترمونها، كم يحيطونها بالتوقير الكلبي، كم يضعونها باجلال فائق فوق جميع حيوانات الخليقة. انهم يعطونها رأسهم بمثابة عرش، وهي تنشب مخالبها، بمهابة، في جَذر شَعرهم. فيما بعد، عندما تصبح سمينة وتدخل في سن متقدمة، مقتدية بعادة شعب قديم، يقتلونها، ليجنّبوها الاحساس بمطاعن الشيخوخة. انهم يقيمون لها جنازة فخمة، كما لبطل، والنعش، الذي يقودها رأساً نحو غطاء القبر، يحمله على الاكتاف، ابرز المواطنين. فوق الارض الرطبة التي يقلبها حفار القبور برفشه الأريب، ينسقون الجمُل المتعددة الالوان حول خلود النفس، حول بطلان الحياة، حولَ مشيئة العناية الإلهية المتعذر شرحها، والرخام ينغلق من جديد، إلى الأبد، على هذه الحياة، المملوءة بجد، والتي لم تعد سوى جثة. الجمهور يتفرّق، والليل لا يتوانى عن تغطية اسوار المقبرة بظلاله.

لكن، تعزّوا، ايها الآدميون، عن فقدانها المؤلم. هوذه عائلتها اللاتعد، التي تتقدم، والتي أنعمت بها عليكم، بسخاء، كيما يكون يأسكم اقل مرارة، وأشبه بأن يكون ملُطفاً بفعل الحضور الظريف لهؤلاء الجهضاء الشكسين، الذين سيصبحون فيما بعد قملات رائعات، مزينات بجمال جدير بالملاحظة، مسوخاً بهيئة حكيم. لقد حضنت عدة دزينات من البيض العزيز، بجناحها الامومي، فوق شَعركم، الذي جفّفه الرشف العنيف لهؤلاء الغرباء المرعبين. لقد حلّت بسرعة الفترة، التي انفجرت فيها البيضات. لا تخشوا شيئاً، انهم لن يتأخروا

عن النمو، هؤلاء المراهقون، الفلاسفة، عبر هذه الحياة الفانية. سيكبرون لدرجة، انهم سيجعلونكم تحسون بذلك، بواسطة مخالبهم ومراشفهم.

انكم لا تعلمون، انتم، لماذا لا يلتهمون عِظام رأسكم، ويكتفون بأن يستخرجوا، بمضختهم، خلاصة دمكم. إنتظروا لحظة؛ سأقوله لكم: هذا لانهم لا يملكون القوة على ذلك. كونوا اكيدين انه، لو كان فكهم مطابقاً لمقاس رغباتهم اللانهائية، لكان النخاع، شبكية العيون، العمود الفقري، كل جسدكم قد مرَّ اليهم. كقطرة ماء. راقبوا بمجهر، على رأس شحاذ شوارع شاب، قملة تعمل؛ فانكم ستخبروني عنها العجائب. انهم للاسف صغار، لصوص الشَعر الطويل هؤلاء. انهم لا يصلحون للتجنيد، لانهم لا يملكون القامة الضرورية التي يقتضيها القانون. انهم ينتمون إلى العالم القزمي لِقصار الفخذ. والعميان لا يترددون في تصنيفهم مع متناهيي الصِغر. ويل لحوت العنبر الذي سيتصارع مع قملة. سيتم إلتهامه بلمحة عين، رغم قامته. الذَنَبُ لن يبقى ليذهب يذيع النبأ. الفيل يتركك تداعبه. القملة لا. لا انصحك بأن تجرِّب هذه المحاولة المحفوفة بالمخاطر. إياك إذا كانت يدك مُشعرة، او اذا فقط كانت مكوَّنة من عظم ولحم. قُلْ على اصابعك السلام. ستقرقع كما لو كانت تتعرّض للتنكيل. الجلد يختفي كما بسحر غريب. القمل عاجز عن إرتكاب نفس مقدار الشر الذي تدّبره مخيلته. إذا صادفت قملة على دربك، أكمل طريقك ولا تلحس لها حُليمات لسانها. سيحصل لك ثمة مكروه. هذا ما تم معاينته. ما همّ، اني منذ الآن مسرور، بكمية الاذى الذي تلحقه بك، ايها الجنس البشري؛ لكني اريدها ان تؤذيك اكثر.

الى متى ستحتفظ بالعبادة المنخورة لهذا الإله، العديم الاحساس حيال صلواتك والأضحيات السخية التي تقدمها له على شكل ذبيحة تكفيرية. انظر، انه ليس ممتنا، هذا المتَنَفِّذ الفظيع، لكؤوس الدم والنخاع الكبيرة التي تنثرها على مذابحه، مزيَّنة بأكاليل الورود بورع. . . انه ليس ممتناً. . . لان الهزات الارضية والعواصف تستمر تعيث فساداً منذ بداية الاشياء. ومع ذلك، وياله من مشهد جدير بالملاحظة، كلما اظهر اللامبالاة، كلما اعجبت به. اننا نرى انك ترتاب في الخاصيات، التي يخبؤها؛ واستدلالك المنطقي يستند إلى هذا الباعث وهو انه وحدها ألوهة ذات قدرة قصوى تستطيع ان تُظهر الكثير من الاحتقار نحو المؤمنين الذين يطيعون ديانتها. لهذا السبب يوجد، في كل بلد، آلهة متنوعة، هنا

التمساح، هناك، بائعة الهوى؛ لكن عندما يختص الأمر بالقملة، فإن كافة الشعوب، حيال هذا الأسم المقدس، يركعون معاً، مقبِّلين بالاجماع سلاسل عبوديتهم، فوق الرحبة المهيبة، أمام قاعدة تمثال الوثن المشوَّه والدموي. ان الشعب الذي قد لا يطيع غرائزه الخاصة في الدبيب، ويتظاهر بالثورة، سيختفي عاجلاً او آجلاً عن الأرض، كورقة الخريف، التي يجعلها انتقام الرب الذي لا يرحم اثراً بعد عين.

إيه ايتها القملة، ذات الحدقة الملتوية، طالما ان الانهار ستصبّ إنحدار مياهها في اغوار البحر؛ طالما ان الكواكب ستدور حول صراط مسارها؛ طالما ان الفراغ الصامت لن يكون له افق؛ طالما ان الانسانية ستمزق خواصرها بالذات في حروب مشؤومة؛ طالما ان العدالة الإلهية ستقذف صواعقها الانتقامية على هذه الكرة الانانية؛ طالما ان الانسان سيتجاهل خالقه، وسيتحداه، ليس دون وجه حق، مازجاً تحديه بالاحتقار، فإن سلطانكِ سيكون مضموناً على الكون، وسلالتكِ ستنتشر حلقاتها من جيل إلى جيل. احييك، ايتها الشمس الطالعة، ايتها المحرِّرة السماوية، انتِ، يا عدوة الانسان اللامنظورة. إستمري في إقناع القذارة بأن تتحد معه في عناقات دنسة، وان تقسم له، بواسطة عهود غير مكتوبة على الغبار؛ انها ستبقى عشيقته المخلصة حتى الابدية. قبِّلي من وقت إلى وقت ثوب هذه العاهرة الكبيرة، إكراماً للخدمات المهمة التي لن تتأخر في إسدائها اليكِ. لو انها لم تكن تغوي الانسان، باثدائها الشهوانية، فمن المحتمل انه ما كان بمقدوركِ ان توجدي، انتِ، ثمرة هذه المزاوجة العاقلة والمنطقية. إيه يا ابنة القذارة! قولي لوالدتكِ انها، اذا هجرت مضجع الانسان، لتمشي عبر الدروب المنعزلة، وحيدة وبدون سند، سترى وجودها مشبوهاً. فلتتأثر احشاؤها، التي حملتكِ تسعة اشهر بين جدرانها المعطرة، لحظة، لدى التفكير بالاخطار التي تتعرَّض لها، من جراء ذلك، ثمرتها الرقيقة، اللطيفة جداً والهادئة جداً، انما الباردة والضارية منذ الآن. ايتها القذارة، يا ملكة الامبراطوريات، صوني امام عيون حقدي مشهد التكاثر اللامحسوس لعضلات نسلكِ الجائع. انك تعرفين انه ليس امامكِ، لبلوغ هذا الهدف، إلّا ان تلتصقي بدقة اكبر بخواصر الانسان. تستطيعين ان تفعلي ذلك، دون عائق من الحشمة، لانكما، انتما الاثنان، متزوجان منذ زمن بعيد.

فيما يختص بي، إذا سُمح لي ان أُضيف بعض الكلمات الى نشيد التمجيد

هذا، فإني سأقول باني شيّدت حفرة، من اربعين فرسخاً مرّبعاً، وذات عمق نسبي. هنا يرقد، في بكارتة الدنسة منجم حي من القمل، يملأ قيعان الحفرة، ويتعرج بعد ذلك، في اوردة واسعة كثيفة، في كل الاتجاهات. إليكم كيف شيّدت هذا المنجم الاصطناعي. نزعت قملة أنثى من شعر الانسانية. لقد رأوني أضاجعها خلال ثلاث ليالي متتالية، ورميتها في الحفرة. الإخصاب البشري، الذي كان ليكون معدوماً في حالات اخرى مماثلة، تمّ قبوله، هذه المرة، من قِبَل القدر؛ وفي غضون بضعة ايام، وُلد إلى النور، الألوف من المسوخ، متحركين في عقدة متماسكة من المادة. إن هذه العقدة الشنيعة اصبحت، مع الوقت، أكثر فأكثر ضخامة، فيما هي تكتسب صفة الزئبق السائلة، وتفرّعت إلى عدة اغصان، تتغذى، حالياً، بإلتهام بعضها (إن نسبة الولادة هي اكبر من عدد الوفيات)، كلما لا اقذف لها بمثابة غذاء ابن زنا وُلد لتوه، وترغب امه في موته، او ذراعاً كنت اذهب لاقطعه لفتاة ما، خلال الليل، بفضل البنج. كل خمسة عشر عاماً تتناقص بشكل جدير بالذكر اجيال القمل، التي تتغذى بالانسان، وتتنبأ هي ذاتها، دون خطأ، بالعصر المقبل لإبادتها الشاملة. لان الانسان، وهو اذكى من عدوه، يتوصل إلى دحره. عندئذٍ، أستخرج، برفش جهنمي يضاعف من قواي، من هذا المنجم الذي لا ينضب له معين كتلاً من القمل، كبيرة كجبال، أحطمها بضربات الفأس، وأنقلها، خلال الليالي العميقة، إلى شرايين المدن. هناك، لدى الاحتكاك بالحرارة الانسانية تنحلّ كما في الايام الأولى لتكوّنها في الدهاليز المتعرجة للمنجم الديماسي، تحفر لنفسها مجرى وسط الحصباء، وتتدفق إلى سواقي بين المساكن، كارواح ضارة. حارس المنزل يعوي خِفية، لانه يخيل إليه ان فيلقاً من الكائنات المجهولة يخرق مسام الحيطان، ويحمل الرعب إلى وسادة النوم. لستم، ربما، ألا وقد سمعتم، مرة في حياتكم، هذه الانواع من النباحات المؤلمة والمتطاولة. انه يحاول، بعيونه العاجزة ان يشق ظلام الليل؛ لأن دماغه ككلب لا يفهم هذا الأمر. هذا الطنين يزعجه، وهو يشعر انه يتعرّض للغدر. الملايين من الاعداء ينقضّون هكذا، على كل مدينة، كغيوم من الجراد. وفي هذا ما يكفي لخمسة عشر عاماً. انها ستقاتل الانسان، محدثة له جراحاً كاوية. بعد هذا الردح من الزمن سأرسل غيرها. عندما افتت كتل المادة الحية، فإنه قد يحصل ان تكون قطعة اكثف من الأخرى. إن هذه الذرات تجهد بحنق لأن تفرق تكتلها لتذهب تعذّب الانسانية؛ لكن الالتحام يصمد في صلابته. انها تحدث، بفعل إختلاج فائق، مجهوداً قوياً لدرجة

ان الحجر ينقذف من تلقاء نفسه، عاجزاً عن تشتيت هذه العناصر الحية، حتى اعالي الاجواء، كما بفعل البارود، ويسقط من جديد، وهو ينغرز بصلابة تحت الأرض. احياناً يلمح فلاح حالم نيزكاً جوياً يشق الفضاء عمودياً، وهو يتوجه، من جهة الاسفل، نحو حقل ذرة. انه لا يعلم من اين يأتي الحجر. انكم تملكون الآن التفسير، الواضح والموجز، لهذه الظاهرة.

لو ان الأرض كانت مغمورة بالقمل، كما تغمر حبّات الرمل شاطىء البحر، فإن الجنس البشري كانت لتتم إبادته، فريسة لآلام رهيبة. يا له من مشهد! انا باجنحة ملاك، جامداً في الاجواء، لاتأمله.

- ١٠ -

ايتها الرياضيات الصارمة، اني ما نسيتكِ، منذ ان تسرّبت امثولاتكِ العالمة، الاعذب من العسل، إلى قلبي، كموجة منعشة. كنت اطمح غريزياً، منذ المهد، إلى ان اشرب من ينبوعك، الاقدم من الشمس، ولا زلتُ ادوس ايضاً الرحبة المقدسة لمعبدكِ الاحتفالي، انا، الأكثر ايماناً بين المطلِّعين على اسرارِكِ. كان هناك ثمة إبهام في عقلي، شيء لا ادري ما هو سميك كالدخان؛ لكني عرفت كيف اجتاز بورع ديني الدرجات التي تؤدي إلى مذبحكِ، ولقد طردتِ انتِ هذا الحجاب الغامض، كما تطرد الريح الضامة. ولقد وضعتِ، مكانه، بروداً مفرطاً، حصافة تامة ومنطقاً عنيداً. بفضل حليبكِ المقوي، نما ذكائي بسرعة، واتخذ احجاماً ضخمة، وسط هذا الوضوح الساحر الذي تهدينه، بأسراف، إلى اؤلئك الذين يحبونك حباً صادقاً. يا علوم الحساب، الجبر، الهندسة! ايها الثالوث العظيم! المثلّث الوضاء! ان ذاك الذي لم يعرفكِ هو احمق! انه يستأهل إختبار اكبر العذابات؛ لانه يوجد ثمة احتقار اعمى في إستهتاره الجاهل؛ لكن ذاك الذي يعرفكِ ويقدرك لا يعود يريد شيئاً من خيرات الارض؛ ويكتفي بمباهجكِ السحرية، ولا يعود يشتهي، محمولاً على اجنحتكِ المعتمة، سوى ان يرتفع، بطيران خفيف، وهو يبني مروحة صاعدة، نحو القبة الكروية للسموات. الأرض لا تعرض عليه سوى اوهام، واستشباحات خُلقية؛ لكن انتِ، ايتها الرياضيات المقتضبة، بفضل الترابط الدقيق لا فتراضاتكِ اللازبة ودوام قوانينكِ الحديدية، تضيئين، للعيون المبهورة، بريقاً جباراً من هذه الحقيقة العليا التي نلاحظ بصمتها في نظام الكون. لكن النظام الذي يحيط بكِ، المتمثل خاصة في التناسق الكامل للمرّبع، صديق فيتاغورس، هو ايضاً اكبر؛

لان العلي- القدير كشف عن نفسه كلية، هو وخاصياته، في هذا العمل المأثور الذي أرتكز على استخراج كنوزكِ في النظريات وإشراقاتكِ البديعة، من احشاء السديم. في العصور القديمة وفي العصور الحديثة، أكثر من خيال بشري كبير رأى عبقريته ترتاع، لدى تأمل صوركِ الرمزية المرسومة على الورق الملتهب، كعلامات غامضة، تعيش بانفاس كامنة، لا يفهمها السوقي الجاهل ولم تكن سوى الكشف الصارخ عن مسلّمات وهيروغليفيات سرمدية، كانت موجودة قبل الكون وستبقى في الحالة نفسها بعده. انه يتساءل، منحنياً فوق هوة نقطة استفهام محتومة، كيف يتأتى ان الرياضيات تحتوي على كل هذه العظمة الجليلة وكل هذه الحقيقة الاكيدة، بينما، إذا قارنها بالانسان، فإنه لا يجد في هَذا الاخير سوى تبجح خاطىء ونفاق. عندئذ، فإن هذا العقل المتفوق، المتكدر، الذي تجعله الألفة النبيلة لنصائحكِ يشعر اكثر بصَغارة الانسانية وبجنونها الذي لا يُضاهى، يُغرق رأسه، المبيَّض، في يده الناحلة ويبقى مستغرقاً في تأملات فائقة للطبيعة. انه يحني ركبه امامكِ، وتوقيره يرفع تحية إكبار إلى وجهكِ الإلهي، كما الى صورة العلي- القدير ذاتها. خلال طفولتي، ظهرتِ امامي، ذات ليلة من ايار، تحت اشعة القمر، فوق مرج مخضوضر، على ضفاف ساقية صافية، انتِ الثلاثة متساوية في الفتنة والحشمة، انتِ الثلاثة ممتلئة بالجلال كملكات. قمتِ ببضع خطوات نحوي، بثوبكِ الطويل، المتموج كبخار، وجذبتني نحو اثدائكِ الأبية، كابن مبارك. عندئذ هرعت بتعجل، ويداي قابضتان على عنقكِ الابيض. لقد تغذيت، بعرفان جميل، من مَنّكِ الخصب، وشعرت ان الانسانية كانت تكبر فيَّ، وتصبح افضل. منذ ذلك الوقت، ايتها الألهة المتخاصمة، لم اهجركِ. منذ ذلك الوقت، كم من مشاريع نشطة، كم من تعاطفات، كنت اظن اني حفرتها على صفحات قلبي، كما على الرخام، لم تمحُ ببطء، من عقلي المتحرر من الوهم، خطوط اشكالها الخارجية، كما يمحو الفجر الوليد ظلال الليل! منذ ذلك الوقت، رأيت الموت، وفي نيته، وهذا واضح للعين المجرَّدة، ان يُعمرَّ القبور، يجتاح ساحات الوغى، المسمَّدة بالدم البشري ويجعل وروداً صباحية تنبت فوق عِظام الموتى. منذ ذلك الوقت، شاهدت ثورات كرّتنا؛ الهزات الارضية، البراكين بحممها الملتهبة، إن ريح الصحراء السَموم وما تغرقه العاصفة من سفن كان لها حضوري بمثابة شاهد عديم الحس. منذ ذلك الوقت، رأيت عدة اجيال بشرية ترفع، صباحاً، اجنحتها وعيونها، نحو الفضاء، بسعادة غِرة لفراشة عذراء تلقي التحية على آخر تحوُّل لها، وتموت، مساءً، قبل غروب

الشمس، حانيةً رأسها، كزهور ذابلة يؤرجحها صفير الريح النوّاح. لكن انتِ، تبقين دائمًا على حالكِ. ولا تغير، ولا هواء موبوء يمسّ صخور تطابقكِ الوعرة ووديانه الرحبة. ان اهراماتك المتواضعة ستدوم اكثر من إهرامات مصر، تلك القرى من النمل التي شيّدتها البلاهة والعبودية. ان نهاية العصور سترى ارقامكِ القبلانية، معادلاتكِ المقتضبة وخطوطكِ النحتية، واقفة بعد فوق اطلال الازمنة، ترابط عن يمين اليد الانتقامية للعليّ- القدير، بينما ستغوص النجوم، بيأس، كأعمدة ماء، في ابدية ليلة شنيعة وكونية، وستفكر الانسانية، المكشرة، في ان تعمل حساباتها مع الدينونة الاخيرة. شكراً للخدمات اللاتعد التي أسديتها لي. شكراً، للصفات الغريبة التي اغنيتِ بها ذكائي. بدونكِ، في حربي مع الانسان، ربما كنت لانهزم. بدونكِ، بمخلب خؤون، ربما كان ليخدّ لحمي وعظامي. لكني احترست، كمصارع خبير. لقد اعطيتني البرود الذي ينبثق من مفاهيمكِ السامية المنزهة عن الاهواء. استخدمته لاطرح بإزدراء المتع العابرة لرحلتي القصيرة ولاطرد عن بابي العروض الودية، إنما الخادعة، لأشباهي. لقد اعطيتني الحصافة المتصلبة التي نقرؤها لدى كل خطوة من مناهجكِ الرائعة في التحليل، والتركيب والاستنتاج. استخدمتها لاضلل حيَل عدوي الألد المؤذية، لاهاجمه، بدوري، بمهارة، ولأغرز، في احشاء الانسان، خنجراً حاداً سيبقى إلى الابد مغروزاً في جسده؛ لانه جرح لن ينهض منه. لقد اعطيتِني المنطق، وهو في مقام الروح ذاتها من تعاليمكِ، المليئة بالحكمة؛ بقياساته التي ليست متاهتها المعقدة الا اكثر وضوحاً، فاحس ذكائي بقواه الجريئة تزداد ضعفين. بفضل هذا المساعد الرهيب، اكتشفت، في الانسانية، وانا اسبح نحو الوهاد، في مواجهة صخرة الحقد، القساوة السوداء والبشعة تتأسن وسط وخم وبيل، وهي تتأمل باعجاب سُرّتها. انا اول من اكتشف، في ظلمات احشائها، هذه الرذيلة المشؤومة، الشر! المتفوقة فيها على الخير. بهذا السلاح المسموم الذي اعرتِني إياه، أنزلت، عن قاعدة تمثاله، المشيَّدة بجبانة الانسان، الخالق ذاته! لقد صرَّف باسنانه وتكبَّد هذه الشتيمة المخزية، لانه كان له خصمًا شخص اقوى منه. لكني ساتركه جانباً، كصرة من الخيطان، كيما أُخفض طيراني... المفكر ديكارت تمخض، مرة، عن هذه الفكرة وهو انه لم يشيِّد شيء وطيد عليكِ. كانت هذه طريقة بارعة لجعل الناس تفهم ان اي شخص كان لا يستطيع للوهلة الأولى ان يكتشف قيمتك التي لا تُقدر. وبالفعل اي شيء هو اكثر صلابة من الصفات الرئيسية الثلاث التي سبق لنا ذكرها، والتي ترتفع متضافرة كاكليل واحد، على

القمة الجليلة لهندستكِ المعمارية الضخمة؟ ذلك الصرح الذي يتضخم دون توقف بالاكتشافات اليومية، في مناجمكِ الماسية، والريادات العلمية، في مناطقكِ الرائعة. إيه ايتها الرياضيات المقدسة، عساكِ تتمكنين، بفضل علاقتكِ الثابتة، من ان تعزّي بقية ايامي من قساوة الانسان وظلم الكل الأعظم!

- ١١ -

«أيها القنديل ذو المنقار الفضّي، إن عينيَّ تلمحانك في الاجواء، رفيقاً لقبة الكاتدرائيات، وتبحثان عن السبب في هذا التعليق. يقولون إن اضواءك تنير خلال الليل، تُرب اولئك الذين يأتون لعبادة العلّي ـ القدير وانك تدلّ النادمين على الطريق المؤدية إلى المذبح. إسمعْ، هذا معقول للغاية؛ لكن... هل انت بحاجة لإسداء خدمات مماثلة إلى اولئك الذين لست مديناً لهم بشيء؟ إتركْ اعمدة الكنائس الإيوانية غارقة في الظلمات؛ وعندما، هَبّة من العاصفة التي يزوبع عليها الشيطان، محمولاً في الفضاء، ستلج، معه، المكان المقدس، ناشرة فيه الذعر، انت، بدل ان تصارع، بشجاعة، ضد عصفة امير الشر المنتنة، أطفىء نفسك فجأة، تحت نفثته المحمومة، كيما يستطيع، دون ان يراه احد، إختيار ضحاياه من بين المؤمنين الساجدين. إنك اذا فعلت ذلك، تستطيع ان تقول اني سأكون مديناً لك بكل سعادتي. عندما تتوهج هكذا، وانت تنشر انوارك الحائرة، انما الكافية، لا اجرؤ ان استرسل مع ايحاءات طبعي، وابقى تحت مجاز الصحن المقدس، وأنا انظر من خلال الرتاج نصف المفتوح، إلى اولئك الذين يفلتون من قصاصي في حضن المولى. إيه ايها القنديل الشاعري! انت الذي كنت لتصبح صديقي لو كان بمقدورك ان تفهمني، عندما تطأ اقدامي نسفة الكنائس، في الساعات الليلية، لماذا تروح تشع بشكل اعترف بأنه يبدو لي خارقاً. إن اشعتك تصطبغ، عندئذ، بدرجات اللون البيضاء للضوء الكهربائي؛ العين لا تستطيع ان تشخص اليك؛ وإنك لتضيء بشعلة جديدة وقوية ادق تفاصيل وجار الخالق، كما لو كنت فريسة غضب مقدس. وعندما انسحب بعد ان اكون قد جدفت، فإنك تصبح من جديد لا منظوراً متواضعاً وشاحباً، واثقاً انك انجزت فِعل عدالة. قُلْ لي، قليلاً؛ هل لانك تعرف خفايا قلبي، تسارع، عندما يخطر لي ان اظهر في المكان الذي تسهر فيه، إلى فضح حضوري المؤذي، وإلى لفت نظر المتعبدين نحو الجهة التي جاء ليظهر منها عدو البشر؟ اني اميل نحو هذا الرأي؛ لاني، انا ايضاً، بدأت اعرفك؛ واعرف انك

ساحرة عجوز، تسهر بشكل ممتاز على المساجد المقدسة، حيث يتبختر، كعُرف الديك، سيدك العجيب. ايها الحارس المتيقظ، لقد انتدبت نفسك لمهمة جنونية. اني أُنذرك، باني سآخذك اول ما تفضحني امام احتراس أُشباهي، بواسطة زيادة اضوائك الفوسفورية، بما اني لا احب هذه الظاهرة البصرية، التي لم ينصّ عليها، على كل حال، اي كتابِ فيزياء، سآخذك من جلد صدرك، منشباً مخالبي في ندبات عنقك الاقرع، وأرميك في «السين». لا أدَّعي انك، عندما لا افعل لك شيئاً، تتصرف عن تبصر، بطريقة تكون مؤذية لي. هنا، سأسمح لك ان تشع قدر ما يحلو لك؛ هنا، ستهزأ مني بابتسامة يتعذر إخمادها؛ هنا، وقد اقتنعت بعجز زيتك المجرم، ستبوِّله بمرارة». إن مالدورو، بعد ان تكلم هكذا، لا يخرج من المعبد، ويبقى شاخص العينين نحو قنديل المكان المقدس... انه يظن انه يرى نوعاً من الاستفزاز، في هيئة هذا القنديل، الذي يثير سخطه إلى اقصى درجة، بحضوره غير المناسب. انه يقول في نفسه، انه إذا كان هناك ثمة روح محتجزة في هذا القنديل، فإنها ستكون جبانة إذا لم تردّ، بصدق، على هجومه الشريف. انه يصفع الهواء بذراعية العصبيتين ويتمنى ان يتحول القنديل إلى انسان؛ وفي هذه الحال سيجعله يقضي ربع ساعة سيئة، انه يعد نفسه بذلك. لكن، ما الحيلة لتحوِّل قنديل إلى انسان؛ هذا ليس امراً طبيعياً. انه لا يرضخ، ويذهب ليبحث، على رحبة هذا المعبد الصيني البائس، عن حصاة مسطَّحة، ذات حد مزلَّق. انه يقذفها في الهواء بقوة... السلسلة تنقطع، من وسطها، كما يقطع المنجل العشب، واداة العبادة تقع على الأرض، وهي تنثر زيتها على البلاطات... انه يتناول القنديل ليحمله إلى الخارج، لكنه يقاوم ويكبر. يُخيل اليه انه يرى اجنحة على جانبيه، والقسم الأعلى يرتدي شكل تمثال نصفي لملاك. الكل يريد ان يرتفع في الجو ليحلّق؛ لكنه يمسكه بيد حازمة. قنديل وملاك يشكلان جسداً واحداً، هذا ما لا نشاهده غالباً. انه يتعرف إلى شكل القنديل؛ انه يتعرف إلى شكل الملاك؛ لكنه لا يستطيع ان يجزئهما في فكره؛ بالفعل، انهما، في الواقع، ملتصقان الواحد بالآخر، ولا يشكلان سوى جسد مستقل وحر؛ لكنه، هو، يظن، ان ثمة غيمة قد سترت عينيه، وجعلته يفقد قليلاً رهافة بصره. بيد انه يتأهب للصراع بشجاعة، لان خصمه ليس خائفاً. الناس السذج يحكون لأولئك الذين يريدون ان يصدقوهم، ان الرتاج المقدس انغلق من تلقاء نفسه، وهو يتدحرج على مفاصله المكروبة، كي لا يتمكن احد من مشاهدة هذا الصراع الكافر، الذي ستجري

مغامراته في حَرَم هذا المحراب المنتَهك. الرجل ذو المعطف يجهد، فيما هو يتلقى جراحاً قاسية بسيف لا منظور، إلى تقريب فمه من وجه الملاك؛ انه لا يفكر إلا بهذا الأمر، وكل جهوده تنصبُّ على هذا الهدف. هذا الأخير يفقد طاقته، ويبدو انه يحدس بمصيره. انه لم يعد يكافح إلاّ بشكل ضعيف، واننا نرى اللحظة التي سيتمكن فيها خصمه من معانقته على هواه، اذا كان هذا هو ما ينوي فعله. حسناً، لقد حانت اللحظة. انه يخنق، بعضلاته، حلق الملاك، الذي لم يعد يستطيع ان يتنفس، ويقلب له وجهه، وهو يسنده على صدره، القبيح. انه متأثر لبرهة على المصير الذي ينتظر هذا الكائن السماوي، الذي كان ليجعل منه صديقاً له عن طيب خاطر، لكنه يقول في نفسه ان هذا مبعوث المولى، ولا يستطيع ان يكظم حنقه. قُضي الأمر؛ ثمة شيء فظيع سيدخل في قفص الزمن! انه ينحني، ويضع لسانه المبلل باللعاب، على هذه الوجنة الملائكية، التي ترسل نظرات متضرعة. انه يجُيل لسانه بعض الوقت على هذه الوجنة. آه... انظروا... انظروا إذن!... الوجنة البيضاء والوردية اصبحت سوداء، كالفحم! انها تصعّد روائح نتنة. انها الغنغرينة؛ لم يعد مسموحاً بالشك حول هذا الأمر. الداء الأكّال يمتد على الوجه بكامله، ومن هناك يمارس هيجاناته على الاعضاء السفلية؛ قريباً الجسد كله ليس إلاّ جرحاً واسعاً. هو نفسه، وقد ارتاع (لأنه لم يكن يظن ان لسانه يحتوي سُمّاً بهذا العنف)، إلتقط القنديل وهرب من الكنيسة. حين اصبح في الخارج، لمح في الاجواء شكلاً اسود، محـروق الاجنحة، يوجِّه طيرانه بمشقة نحو مناطق السماء. نظرا إلى بعضهما كلاهما، فيما كان الملاك يصعد نحو اعالي الخير الصافية، وهو، مالدورور، بالعكس، ينزل نحو هاويات الشر المثيرة للدوار... يالها من نظرة! لعلها تستطيع ان تحتوي بسهولة على كل ما فكرت به الانسانية منذ ستين قرناً، وما ستفكر به، خلال القرون اللاحقة، لفرط ما تحدثا به عن اشياء، في هذا الوداع الأخير! لكننا نفهم ان هذه الافكار ارفع من تلك التي تنبثق من الذكاء البشري؛ اولاً بسبب الشخصين، ثم، بسبب المناسبة. هذه النظرة ربطت بينهما في صداقة ابدية. انه يتعجب ان الخالق يمكن ان يكون عنده مرسلون في مثل نبل هذه الروح. للحظة، ظن انه اخطأ، وهو يسائل نفسه فيما إذا كان سيتحتم عليه ان يتابع طريق الشر، كما فعل. الاضطراب مضى؛ انه يثابر على قراره؛ وانه لأمر مجيد، بالنسبة له، ان يغلب عاجلاً أو آجلاً الكل- الاعظم، كيما يملك محله على الكون بكامله، وعلى جوقات ملائكة بمثل هذا الجمال. إن هذا الملاك يجعله يفهم دون

ان يتكلم، أنه سيستعيد شكله البدائي، بنسبة ما سيصعد صوب السماء؛ يساقط دمعة تنعش جبين ذاك الذي اورثه الغنغرينة؛ ويختفي رويداً رويداً، كنسر، وهو يرتفع وسط الغيوم. المذنب ينظر إلى القنديل، علة ما سبق. انه يركض كالمجنون عبر الشوارع، يتوجه نحو «السين»، ويقذف من فوق الحاجز القنديل، الذي يدوّم، خلال بضع لحظات، ويغوص نهائياً في المياه المعكرة. منذ ذلك اليوم، كل مساء، أول حلول الليل، نرى قنديلاً مشعاً ينبثق ويطفو، بلطافة، على صفحة النهر، على علو جسر «نابليون»، وهو يحمل، عوضاً عن المقبض، جناحيّ ملاك ظريفين. انه يتقدم ببطء، فوق المياه، يمر تحت عقود جسر «المحطة» وجسر «اوسترليتز»، ويواصل مخوره الصامت، فوق «السين»، حتى جسر «آلما». وما ان يصل إلى هذا الموضع، حتى يصعد من جديد بسهولة مجرى النهر، ويعود في غضون اربع ساعات إلى نقطة إنطلاقه. وهكذا دواليك، خلال الليل. إن انواره، البيضاء كالضوء الكهربائي، تمحو قناديل الغاز، التي تحاذي الضفتين، اللتين يتقدم بينهما كملكة، متوحداً، غامضاً، بابتسامة يتعذر إخمادها، دون ان ينتثر زيته بمرارة. في البدء، كانت المراكب تطارده؛ لكنه كان يُحبط جهودها الباطلة، يفلت من كل الملاحقات، وهو يغطس، كامرأة مغناج، ويعود إلى الظهور، أبعد من ذلك، على مسافة طويلة. الآن عندما يراه النوتيون المتطيّرون، فإنهم يجذّفون نحو اتجاه معاكس، ويمسكون عن إرسال اغانيهم. عندما تعبرون فوق جسر، خلال الليل، إنتبهوا جيداً؛ انتم اكيدون انكم ترون القنديل يشع، هنا أو هناك؛ انما، يُقال انه لا يظهر للجميع. عندما يعبر فوق الجسور كائن بشري يثقل ضميره شيء ما، فإن القنديل يطفىء فجأة اشعته، والمار المرتاع، ينقب عبثاً، بنظرة يائسة، صفحة وطمي النهر. انه يعرف ماذا يعني هذا الأمر. كان يوَدّ ان يؤمن انه رأى الضوء السماوي؛ لكنه يقول في نفسه ان النور يأتي من امام المراكب ومن انعكاس قناديل الغاز؛ ومعه حق... انه يعلم انه هو سبب هذا الإختفاء، فيسارع الخطى ليبلغ مسكنه، غارقاً في تأملات حزينة. عندئذ، يعود القنديل ذو المنقار الفضيّ إلى الظهور على الصفحة، ويتابع مسيرته، عبر هذه العربسات الانيقة والنزوية.

- ١٢ -

إسمعوا افكار طفولتي، عندما استيقظ، ايها الآدميون، ذوو القضيب الأحمر: «لقد استيقظت لتوي؛ لكن فكري لا يزال مخدَّراً. كل صباح، اشعر

بثقل في رأسي. اني نادراً ما اجد الراحة في الليل؛ لأن احلاماً فظيعة تعذبني، حين اتوصل إلى النوم. في النهار، يتعب فكري في تأملات غريبة، فيما تتوه عيوني على هوى الصدفة في الفضاء؛ وفي الليل، لا استطيع ان انام. متى يجب عليّ إذن ان انام. مع ذلك، فإن الطبيعة بحاجة لان تطالب بحقوقها. بما اني احتقرها، فإنها تجعل وجهي شاحباً وعينيّ ملتمعتين بالشعلة الحادة للحمّى. على كل حال، ما كنت لأطلب افضل من ان لا أُنهك عقلي في التفكير المتواصل؛ لكن، حتى لو اني ما كنت لاريد ذلك؛ فإن عواطفي الواجمة كانت تجرّني بطريقة لا تُرَدّ نحو هذا المنحدر. لقد ادركت ان بقية الاطفال هم مثلي؛ لكنهم اكثر شحوباً ايضاً، وحواجبهم مقطبة، كحواجب الرجال، اشقاؤنا الابكار. يا خالق الكون، لن اتوانى، هذا الصباح، عن تقديم بخور صلاتي الطفولية اليك. احياناً أنسى ذلك، ولقد لاحظت اني، في تلك الأيام، اشعر اني، اكثر سعادة من المعتاد؛ ان صدري يتفتح، حراً من كل ضغط، واتنشق بطلاقة اكبر، هواء الحقول المضمَّخ؛ اما عندما اؤدي الواجب الشاق، الذي يفرضه علي اهلي، في ان اوجّه اليك يومياً نشيداً مدائحياً، مصحوباً بالسأم الملازم الذي يسبّبه لي اختراعه المتكلف، فاني اكون، حينئذٍ، حزيناً وساخطاً بقية النهار، لانه لا يبدو لي منطقياً وطبيعياً ان اقول ما لا افكر به، وابحث عن بُعد العزلات الرحبة، التي لا تجاوبني، إذا ما سألتها تفسيراً عن حالة روحي العجيبة هذه. كنت أود ان أحبك واعبدك؛ لكنك جبار للغاية، ويوجد ثمة خشية في اناشيدي. اذا كنت تستطيع بفضل تجلٍ واحد لفكرتك، ان تدمر وتخلق عوالم، فإن صلواتي الضعيفة لن تكون نافعة لك؛ إذا كنت ترسل، حين يحلو لك الكوليرا تعيث فساداً في المدن، او الموت يحمل في براثنه، دون اي تمييز، اربعة اعمار الحياة، فاني لا اريد ان ارتبط بصديق مرعب إلى هذا الحد. هذا لا يعني ان الحقد يقود خيط استدلالاتي؛ لكني اخاف، بالعكس، من حقدك بالذات، الذي يستطيع، بأمر نزق، ان يخرج من قلبك ويصبح رحباً كبسطة جناحيّ صقر جبال الآنديز.
إن تسلياتك الملتبسة ليست في متناول يدي، وساكون، على الأرجح، أول ضحاياها. انت العلي- القدير؛ انا لا انازعك هذا اللقب، بما انك، انت وحدك، تملك الحق بأن تحمله، وبما ان رغباتك، ذات العواقب المشؤومة او السعيدة، ليس لها من غاية سوى انت نفسك. لهذا السبب بالضبط قد يؤلمني ان اسير إلى جانب جلبابك اللازوردي الطاغي، ليس كعبد لك، بل كمرشح لان اصبحه من لحظة إلى اخرى. صحيح انك، إذا نزلت إلى قرارة نفسك، لتسبر

غور سلوكك السني، واقام شبح ظلم غابر، ارتكبته بحق هذه الانسانية الشقية، التي اطاعتك دائماً، كاخلص اصدقائك، امامك، الفقارات الجامدة لعمود فقري ثأري، فإن عينك الزائغة تساقط دمعة الندم المتأخر المرتاعة، عندئذ تظن، مقشعر الشعر، انك تتخذ، انت نفسك، القرار في ان تعلّق، إلى الأبد، في اشواك العدم، الالعاب العجيبة لخيالك النمري، الذي كان ليكون هزلياً، لولا انه مثير للشفقة؛ لكني اعرف ايضاً ان الثبات لم يركّز في عظامك، كمخ عنيد، خُطّاف مقره الأزلي، وانك تعود إلى السقوط غالباً جداً، انت وافكارك المكسوة بالبرص الأسود للخطأ، في البحيرة الجنائزية للعنات القاتمة، التي احب ان اعتقد انها لا واعية (مع ان هذا لا يجعلها اقل احتواءً لسُمها القاتل)، وان الخير والشر، المتحدين معاً، يفيضان في وثبات عاتية من صدرك الملكي المصاب بالغنغرينة، كما يفيض السيل من الصخرة، بفعل سحر خفي لقوة عمياء، لكن لا شيء يمدني بالدليل على ذلك. لقد رأيت، احياناً كثيرة، اسنانك الدنسة تصطك حنقاً، ووجهك المهيب، المغطى بعشب الازمنة، يحمرّ، كجمرة متأججة، بسبب ثمة غلطة مجهرية ارتكبها البشر، كيما استطيع ان اتوقف، اكثر من ذلك، امام علامة إرشاد هذه الفرضية الساذجة. كل نهار، أرفع نحوك، مضموم اليدين، نبرات صلاتي المتواضعة، بما ان هذا فرض واجب؛ لكن ارجوك، فلتُغفل عنايتك الإلهية التفكير بي؛ إتركني جانباً، كدودة صغيرة تدب تحت الأرض. إعلم اني كنت لأُفضّل ان اتغذى بشراهة من نباتات بحرية لجزر مجهولة ومتوحشة، تجرّها الامواج الاستوائية في حضنها المزبد، وسط مناطق البحر هذه، على ان اعرف انك تراقبني، وانك ترفع مبضعك المستهزىء، إلى وجداني، الذي كشف لك لتوه عن مجمل افكاري، وآمل ان حصافتك ستصفق بسهولة للحس السليم الذي تحتفظ هذه الافكار بدمغته التي لا تُمحى. فيما عدا هذه التحفظات المبداة حول نوع العلاقات الحميمة بدرجة تكثر او تقل التي يجب ان أرعاها معك، فإن فمي مستعد، في اي ساعة من النهار، ان يصاعد، كنفثة إصطناعية، سيل الاكاذيب التي يتطلبها غرورك بصرامة من كل آدمي، منذ ان يطلع الفجر الأزرق، باحثاً عن النور في طيات الغسق الاطلسية، كما ابحث انا، عن الطيبة، محُرَّضاً بحب الخير. سنواتي ليست عديدة، ومع ذلك، فإني اشعر منذ الآن ان الطيبة ليست سوى تجميع لمقاطع لفظية رنانة؛ اني لم اجدها في اي مكان. انك تترك طبعك قابلاً جداً لأن تخترقه العين؛ يجب ان تخفيه بمهارة اكبر. على كل حال، لعلني مخطىء ولعلك تتقصد ذلك؛ لانك

تعرف افضل من غيرك كيف عليك ان تتصرف. البشر، هم، يتباهون بتقليدك؛ لهذا لا تتعرف الطيبة المقدسة إلى بيت قربانها في عيونهم الشرسة: هكذا اب، هكذا ابن. مهما قُيض لنا ان نظن بذكائك، فإني لا اتكلم عنه إلّا كناقد منصف. لا اطلب افضل من ان اكون قد انخدعت. لا أرغب في إظهارك على الضغينة التي اكنها لك، والتي احضنها بحب، كابنة عزيزة؛ لانه من الأفضل إخفاؤها عن عينيك وان اتخذ فقط، امامك، هيئة مراقب صارم، مكلّف بالتدقيق في افعالك الدنسة. ستقطع هكذا كل علاقة فعّالة مع هذه الضغينة، ستنساها وستدمر كلياً هذه البقة الشرهة التي تقرض كبدك. أفضّل بالاحرى ان أُسمعك عبارات حلم يقظة وعذوبة... نعم، انت الذي خلقت العالم وكل ما يحتوي عليه. انك كامل. ولا فضيلة تنقصك. انك قدير للغاية، وكل واحد يعرف ذلك. فليبدأ الكون بكامله، في كل ساعة من الزمان، بترتيل نشيدك الأزلي! العصافير تباركك وهي تحلّق في الريف. النجوم هي ملك لك... آمين!» بعد هذه البدايات، تعجبوا لانكم تجدوني كما انا عليه!

- ١٣ -

كنت ابحث عن روح تشبهني ، ولم استطع العثور عليها . لقد فتشت كل زوايا الأرض ؛ مثابرتي كانت لا مجدية . مع ذلك ، لم اكن اقدر ان اظل وحيداً . كان يلزمني شخص يوافق على طبعي ؛ كان يلزمني شخص له نفس افكاري . كان الصباح ؛ الشمس طلعت على الأفق ، في كامل بهائها ، وها انه يطلع ايضاً امام عيوني شاب ، كان حضوره يولّد زهوراً لدى مروره . اقترب مني ، وقال لي ، وهو يمد لي يده : « لقد جئت نحوك ، انت ، يا من كنت تبحث عني . فلنبارك هذا اليوم السعيد ». لكن ، انا ، اجبته : « إذهبْ ؛ انا ما ناديتك ؛ انا لست بحاجة إلى صداقتك... » كان المساء ؛ كان الليل قد بدأ ينشر سواد حجابه على الطبيعة . حسناء !كنت قد تبينتها منذ قليل ، كانت تنشر ايضاً عليّ تأثيرها الساحر ، وتنظر إليّ بشفقة ؛ مع ذلك، لم تكن تجرؤ ان تكلمني . قلت : « إقتربي مني ، كيما أتبين بوضوح ملامح وجهكِ ؛ لأن ضوء النجوم ليس قوياً بما فيه الكفاية لينير هذه الملامح عن مسافة ». عندئذ داست، بمشية متواضعة ، خافضة العينين ، كلأ الأرض المعشبة ، وهي تتوجه ناحيتي . عندما شاهدتها قلت: «أرى أن الطيبة والعدالة قد أقاما مقرهما في قلبكِ: إننا لن نستطيع أن نعيش سوية . انكِ، الآن، تعجبين بجمالي الذي هز مشاعر أكثر من امرأة؛

لكنكِ، عاجلاً أو آجلاً ستندمين لأنكِ كرستِ لي حبكِ، لأنكِ لا تعرفين روحي . هذا لا يعني اني لست مخلصاً لكِ: ان تلك التي تهبني نفسها بكل هذا الاستسلام والثقة ، كل هذه الثقة والاستسلام ، فإني اهبها نفسي ايضاً ؛ لكن ضعي هذا في رأسكِ ، كي لا تنسيه ابداً : إن الذئاب والنعاج لا ترنو إلى بعضها بشغف ». ماذا كان يلزمني إذن ، انا ، الذي كنت اطرح ، بكل هذا القرف ، اجمل ما كانت تملكه الانسانية ! إن ما كان يلزمني ، ما كنت لأعرف ان أفصح عنه . لم اكن قد اعتدت بعد على تحليل ظواهر روحي بدقة ، بواسطة المناهج التي توصي بها الفلسفة . جلست على صخرة ، قرب البحر . كانت سفينة قد نشرت لتوها كل قِلاعها لتبتعد عن منطقة البحر هذه : نقطة لا منظورة ظهرت لتوها على الأفق ، وراحت تقترب رويداً رويداً ، مدفوعة بهبّة الريح ، وهي تكبر بسرعة . العاصفة كانت توشك ان تبدأ هجماتها ، وكانت السماء تظلم منذ الآن ، وهي تصبح في سواد بشع تقريباً بمقدار قلب الانسان . السفينة ، التي كانت بارجة حربية كبيرة ، كانت قد القت كل مراسيها لتوها ، لكي لا تكون مكسوحة على صخور الشاطىء . كانت الريح تصفّر بعنف من الجهات الاربع ، وتمزق الاشرعة قِطَعاً . كان قصف الرعد ينفجر وسط البروق ، ولم يكن بمقدوره تجاوز صخب العويل الذي كان يُسمع فوق البيت المجرَّد من الاساسات، الضريح الحي . ان تمايل هذه الكتل المائية لم يكن قد توصل إلى قطع سلاسل المراسي ؛ لكن هزاتها كانت قد شقّت منفذ ماء ، على جوانب السفينة . ثغرة ضخمة ، لان المضخات لا تكفي كي تلفظ الكميات الكبيرة من الماء المالحة التي تأتي ، وهي تُزبد ، لترتمي على الجسر ، كجبال . السفينة المنكوبة تطلق مدافع الاستغاثة ؛ لكنها تغرق ببطء . . . بجلال . إن ذاك الذي لم يشاهد سفينة تغرق وسط الإعصار ، وسط تناوب البروق واعمق الظلمات ، فيما يكون اولئك الذين تحملهم رازحين تحت وطأة هذا اليأس الذي تدرونه ، إن ذاك لا يعرف اخطار الحياة . صرخة ألم إجماعية ضخمة تفلت اخيراً من بين جوانب السفينة ، فيما يضاعف البحر هجماته المخيفة . انها الصرخة التي تسبّب في إطلاقها تخلّي القوى البشرية . كل واحد يتدثر في معطف الرضوخ ، ويضع مصيره بين يدي الله . انهم يستندون إلى بعضهم كقطيع من الغنم . السفينة المنكوبة تطلق مدافع الاستغاثة ؛ لكنها تغرق ببطء . . . بجلال . لقد عمدوا إلى تشغيل المضخات خلال النهار بكامله . جهود باطلة . لقد حلّ الليل ، كثيفاً ، شرساً ، ليزيد هذا المشهد الظريف ضغثاً على إبالة . كل واحد يقول في

نفسه انه لن يتمكن ، عندما سيصبح في الماء ، ان يتنفس ، لأنه لا يعرف له ، مهما عاد بذاكرته إلى الوراء ، اي سمكة في عِداد جدوده ؛ لكنه يتعظ بحبس انفاسه اطول مدة ممكنة ، كيما يمدِّد حياته ثانيتين او ثلاثاً ؛ وهذه هي السخرية الثأرية التي يريد توجيهها إلى الموت . . . السفينة المنكوبة تطلق مدافع الاستغاثة ؛ لكنها تغرق ببطء . . . بجلال . انه لا يعرف ان السفينة ، وهي تغوص ، تسبّب للامواج الصاخبة دوراناً هائلاً حول نفسها ؛ أن الطمي الموحل إمتزج بالمياه المتعكرة ، وأن قوة آتية من تحت ، كردة فعل على العاصفة التي تمارس أضرارها فوق ، تدير الماء في حركات متقطعة وعصبية . وهكذا ، فإن الغريق المقبل ، رغم مؤونة رباطة الجأش التي يستجمعها مسبقاً ، وبعد تفكير اوسع ، يجب ان يشعر بنفسه سعيداً ، إذا مدّد حياته ، في دوّامات اللجة ، مدة نصف تنفس إعتيادي ، كيما يعطي التاجر الشاري اكثر مما يحق له . سيستحيل عليه إذن تحقيق اسمى رغباته : الإزدراء بالموت . السفينة المنكوبة تطلق مدافع الاستغاثة ؛ لكنها تغرق ببطء . . . بجلال . غلط. انها لا تطلق بعد مدافع الاستغاثة ، انها لا تغرق . قشرة الجوز غارت كلية . ياللسماء ! كيف يمكني ان اعيش بعد ان اكون قد تذوّقت كل هذه الشهوات الحسية . لقد قُيض لي ان أشهد لتوي نزاعات موت العديد من أشباهي . لحظة فلحظة ، كنت اتابع طوارىء غمومهم . احياناً ، كان خوار ثمة امرأة عجوز ، جُنّت من الخوف ، مطلوباً جداً في السوق . احياناً اخرى صرخة رضيع ثاقبة واحدة كانت تمنعني من سماع قيادة المناورات . كانت السفينة بعيدة جداً كيما التقط بوضوح التأوهات التي كانت تجلبها لي عصفة الريح ؛ لكني كنت اقرّبها بواسطة الارادة ، والخداع البصري كان كاملاً . كل ربع ساعة ، عندما كانت هبّة ريح ، اقوى من الأخريات ، جاعلةً هذه النبرات مفجعة عبر صراخ طيور النوء المذعورة ، تخلع السفينة في إنقصاف طولي ، وتضاعف من شكاوى اولئك الذين كان يوشك تقديمهم ذبيحة للموت ، كنت أغرز في وجنتي رأس حديدة مسنون ، وكنت افكر سراً : « إنهم يتعذبون مزيداً ! » . كان لديّ هكذا ، على الأقل ، حد للمقارنة . عن الشاطىء ، كنت اعنفهم ، وأنا اقذفهم باللعنات والتهديدات . كان يُخيل إليّ انهم كان يجب ان يسمعوني ! كان يُخيل إليّ ان حقدي وعباراتي كانت ، وهي تجتاز المسافة ، تُلغي قوانين الصوت الفيزيائية ، وتصل ، جليةً إلى آذانهم ، التي أصمّتها جارات الاوقيانوس الغاضب ! كان يُخيل إلي انهم كان يجب ان يفكروا بي ، ويطلقوا العنان لانتقامهم حنقاً عاجزاً !

من وقت إلى آخر ، كنت أُلقي نظراتي صوب المدن ، النائمة فوق اليابسة ؛ ومبصراً ان احداً لايراوده الشك في ان سفينة توشك ان تغرق ، على بعد بضعة أميال من الشاطىء، مع تاجٍ من الجوارح وقاعدة تمثال لعمالقة مائيين، فـارغـي المعـدة، استـرددت شجـاعـتي، وعـاودني الأمـل: كـنـت اذن اكيداً من ضياعهم ! لم يكن بوسعهم الإفلات ! زيادة في الاحتياط ، ذهبت لاجلب بندقيتي ذات الطلقتين ، حتى إذا ما حاول ثمة غريق ان يبلغ صخور الشاطىء سباحةً ، كيما ينجو من الموت المحتم ، كسرتْ له رصاصة ذراعه ، ومنعتْه من تحقيق هدفه . في اشد لحظات العاصفة هيجاناً ، رأيت ، رأساً نشيطاً مقنفذ الشعر ، يطفو فوق المياه بجهود يائسة . كان يبتلع ليترات من الماء ، ويغوص في اللجة ، مترجرجاً كالفلين . لكنه ظهر ثانية بعد قليل ، وشعره يسيل منه الماء، وعينه شاخصة إلى الشاطىء ، كان يبدو انه يتحدى الموت . كان مدهشاً برباطة جأشه . كان جرح دامٍ واسع ، ناتج عن ثمة نتوء صخرة بحر خفية ، يشجّ وجهه الباسل والنبيل . لا يجب ان يكون له من العمر أكثر من ستة عشر سنة ؛ لاني كنت بالكد ، من خلال الومضات التي تشعشع الليل ، ألمح زغب الدراقنة فوق شفته . والآن ، لم يعد يبعد عن الشاطىء الصخري إلا مسافة مئتي متر ؛ وكنت اتفرسه بسهولة . اي شجاعة ! اي روح صعبة الترويض ! كم كان يبدو على ثبات رأسه انه يزدري بالقدر ، وهو يشقّ بحيوية الموجة ، التي كانت اثلامها تنفتح بصعوبة امامه ! . . . كنت قد قررته سلفاً . كنت ملزماً تجاه نفسي بالوفاء بعهدي : الساعة الأخيرة قد دقت بالنسبة للجميع ، لا يجب ان يفلت منها احد . هذا هو قراري ؛ لا شيء قد يغيّره . . . صوت جاف دوى ، والرأس غاص تـوّاً ، لكي لا يعود قط إلى الظهور. لم اتلذذ بهذه الجريمة بالقدر الذي قد تتصورونه ؛ وهذا ، بالضبط ، ناتج عن كوني قد شبعت من ان اقتل دائماً ، اني كنت اقوم بهذه الفعلة لمجرد العادة ، التي لا نستطيع الاستغناء عنها ، انما ، التي لا توفّر لنا سوى متعة طفيفة . الحس قد تبلّد ، تصلّب. اية شهوة حسية عساني استشعرها لموت هذا الكائن البشري ، في حين ان هناك مئة آخرين ، سيقدمون لي نفسهم ، بمثابة مشهد ، في صراعهم الأخير ضد الأمواج ! فور ان تغطس السفينة ؟ لهذه الميتة ، لم اكن املك حتى جاذبية الخطر ، لأن العدالة البشرية التي يهدهدها إعصار هذه الليلة الشنيعة ، كانت تهجع في البيوت ، على بُعد خطوات مني . الآن وقد باتت الاعوام تبهظ جسدي ، اقولها بصراحة ، كحقيقة عليا واحتفالية : لم اكن

قاسياً إلى الدرجة التي أخبروها عني فيما بعد ، بين البشر ، لكن قساوتهم كانت ، احياناً تمارس أضرارها الدؤوبة خلال سنوات بكاملها . حينئذٍ، كنت لا اعود اعرف حداً لهيجاني ؛ كانت تنتابني سورات من القساوة ، وكنت اصبح رهيباً بالنسبة إلى ذاك الذي يقترب من عيوني الزائغة ، إذا كان اللهم ينتمي إلى جنسي . إذا كان حصاناً أو كلباً ، كنت اتركه يمر : هل سمعتم ما قلته لتوي ؟ للاسف ، ليلة تلك العاصفة ، كنت في إحدى تلك السورات ، كان عقلي قد طار (لاني ، عادة ، كنت قاسياً بهذا المقدار ، انما ، اكثر حذراً) وكل ما قد كان يقع ، تلك المرة ، تحت يدي ، كان عليه ان يهلك ؛ لا أدعي الاعتذار عن اخطائي . ليس كل الحق على أشباهي . اني لا افعل سوى ان اسجّل واقع الحال ، بانتظار الدينونة الأخيرة ، التي تجعلني احكّ رقبتي سلفاً . . . ما تهمني الدينونة الأخيرة ! إن عقلي لا يطير ابداً ، كما قلت لكم على سبيل الخداع . وعندما ارتكب جريمة ، فاني اعرف ما افعله : لم اكن اريد ان افعل شيئاً آخر . لقد كنت ، واقفاً على الصخرة ، فيما الإعصار يجلد شعري ومعطفي ، اراقب بنشوة قوة العاصفة هذه ، وهي تنصبّ على سفينة ، تحت سماء بلا نجوم . كنت اتابع ، في وقفة منتصرة ، كل طوارىء هذه الفاجعة ، منذ اللحظة التي أُلقت فيها السفينة مراسيها ، إلى اللحظة التي انغمرت فيها ، ثوباً مشؤوماً ، جرَّ معه ، إلى إمعاء البحر ، أولئك الذين تدثروا به كما بمعطف . لكن اللحظة ، التي كنت اوشك فيها ان اتدخل ، انا نفسي ، كممثل في مشاهد الطبيعة الهائجة هذه ، كانت تقترب. عندما أُظهر المكان ، الذي صمدت فيه السفينة للمعركة ، بوضوح ، ان هذه الأخيرة قد ذهبت لتمضي بقية ايامها في طبقة البحر السفلية ، عاد اولئك ، الذين جرفتهم الامواج ، الى الظهور جزئياً على السطح . كانوا يمسكون بعضهم من وسط الجسم ، اثنين اثنين ، ثلاثة ثلاثة ؛ كانت هذه هي الوسيلة لكي لا ينقذوا حياتهم ، لأن حركاتهم كانت تصبح مرتبكة ! وكانوا يغرقون إلى اسفل كاباريق مثقوبة . . . ما هذا الجيش من الوحوش البحرية الذي يشقّ الامواج بسرعة ؟ انهم ستة ؛ زعانفهم قوية ، وهي تفتح ممراً ، عبر الأمواج الساخطة . من كل هؤلا الكائنات البشرية ، الذي يحرّكون اعضاءهم الاربعة في هذه القارة القليلة الرسوخ ، لا تعمل اسماك القِرش قريباً سوى عجّة بدون بيض ، ويتقاسمنها بحسب قانون الأقوى . الدم يمتزج بالمياه ، والمياه تمتزج بالدم . عيونهن الضارية تضيء بما فيه الكفاية مسرح المجزرة . . . لكن ما هو صخب المياه هذا ، هناك ، عند الأفق ؟ لكأنه عمود

ماء يقترب . يالها من ضربات مجذاف ! اني ادرك ما هو هذا . أنثى قِرش ضخمة جاءت تأخذ قسطها من فطيرة كبد البط المحشوة ، وتأكل لحماً مسلوقاً بارداً . انها هائجة ؛ لانها تصل جائعة . ينشب صراع بينها وبين اسماك القِرش ، ليتنازعن البضعة من الاعضاء المختلجة التي تطفو هنا ، وهناك، دون قول شيء ، على سطح القشدة الحمراء . انها تقذف عن يمين ، عن شمال ضربات ضرس يتولّد عنها جراح قاتلة . لكن ثلاث اسماك قِرش حية بعد يطوّقنها ، مما يجبرها ان تدور في كل الاتجاهات ، لتُحبط مناورتهن . بانفعال متزايد، مجهول حتى الآن ، يتابع المُشاهِد ، المتركز على الشاطىء ، هذه المعركة الحربية الحديثة الطراز. عيونه شاخصة إلى أُنثى القِرش الشجاعة هذه، القوية الأسنان إلى هذا الحد. إنه لا يتردد، انه يسند البندقية إلى كتفه، وبمهارته المعهودة، يصيب برصاصته الثانية، خيشوم إحدى أسماك القِرش لحظة برزت من فوق موجة، يبقى سمكتا قرش لا تُظهران إلا ضراوة أكبر. من أعلى الصخرة، يرمي الرجل ذو الرضاب الأُجاج، نفسه إلى البحر، ويسبح نحو السجادة المصبوغة بظرافة، وهو يمسك بيده سكيناً فولاذية لا تفارقه أبداً. من الآن فصاعداً، كل سمكة قِرش لها صلة مع خصم. إنه يتقدم نحو عدوه المتعب، وآخذاً وقته يغرز له في البطن نصله المسنون. القلعة المتحركة تتخلص بسهولة من الخصم الأخير. . . السبّاح ، وأُنثى القِرش التي انقذها ، يجدان نفسهما وجهاً لوجه . انهما ينظران في عيون بعضهما لبضع دقائق ؛ وكلٌ منهما يتعجب للعثور على كل هذه الضراوة في نظرات الآخر . انهما يدوران في حلقة سابحين ، لا يغيبان عن نظر بعضهما ، ويقولان في سرهما : « لقد اخطأت حتى الآن ؛ هوذا واحد شرير أكثر مني ». حينئذ ، باتفاق مشترك ، بين مائين ، انزلقا الواحد نحو الآخر ، باعجاب متبادل ، أُنثى القِرش تزيح الماء بزعانفها ، ومالدورور يخبط الموج بذراعيه ؛ وحبسا انفاسهما ، في توقير عميق ، وكلٌ منهما توّاق إلى تأمل صورته الحية ، لأول مرة . حين وصلا إلى مسافة ثلاثة امتار من بعضهما ، ودون ان يقوما بأي مجهود ، وقعا فجأة الواحد فوق الآخر ، كعاشقين ، وتعانقا بمهابة وعرفان جميل ، في ضمة رقيقة مثل ضمة شقيق او شقيقة . شهوات الجسد تبعت عن قرب برهان الصداقة هذا . فخذان عصبيان التصقا بدقة بجلد الوحش اللزج ، كعَلَقتين ؛ والاذرع والزعانف المتشابكة حول جسد الشيء المحبوب الذي كانت تطوّقه بحب ، بينما حلقاهما وصدراهما لم تعد تشكل قريباً سوى كتلة خضراء مزرقّة ذات فوحانات غمونية ؛ وسط العاصفة التي كانت تستمر تعيث فساداً ، على وميض البروق ؛

سرير زفافهما الموجة المزبدة ، محمولين على زخم تيار تحمائي كما لو انهما في مهد ، ومتدحرجين ، على بعضهما ، نحو اغوار اللجة المجهولة ، اتحدا في تزاوج طويل ، عفيف وشنيع !... اخيراً عثرت لتوي على احد ما يشبهني !... من الآن فصاعداً ، لم اعد وحيداً في الحياة !... ان لديها نفس افكاري !... لقد كنت وجهاً لوجه مع حبي الأول !

- ١٤ -

« السين » يجرف جسداً بشرياً . انه ، في هذه الظروف ، يتخذ هيئة إحتفالية . الجثة المنتفخة تطفو فوق المياه ؛ وتختفي تحت قنطرة جسر ؛ لكننا نراها ، أبعد من ذلك تظهر من جديد ، دائرة ببطء ، حول نفسها ، كناعورة طاحون، وغائصة من وقت إلى آخر . قائد مركب يعلقها ، لدى مروره ، بعصا طويلة ، ويقتادها إلى البر . قبل نقل الجسد إلى المشرحة ، يتركونه بعض الوقت على حافة النهر ، بغية إعادته إلى الحياة . الجمهور المزدحم يتجمع حول الجسد . الذين لا يستطيعون ان يروا ، لانهم في المؤخرة ، يدفعون وسع طاقتهم اولئك الذين في المقدمة . كل واحد يقول : « لست انا من قد يُغرق نفسه».انهم يلومون الشاب الذي انتحر ؛ انهم يعجبون به ؛ لكنهم لا يقلدونه . ومع ذلك وجد هو من الطبيعي جداً ان ينتحر ، لانه لا يعتقد انه يوجد ثمة شيء على الأرض قمين بأن يرضيه ، ولأنه يتطلع إلى اعلى. وجهه متميز ، وثيابه غنية . هل بلغ السابعة عشرة ؟ انها لميتة باكرة! الجمهور المشلول يواصل تسليط عيونه الجامدة عليه ... الليل يحلّ . كل واحد ينسحب بصمت . لا احد يجرؤ ان يقلب الغريق ، كي يجعله يلفظ الماء الذي يملأ جسده . انهم خافوا ان يتبدوا بمظهر الانسان العاطفي . ولا واحد منهم تحرَّك ، وقد تحصَّن في ياقة قميصه . احدهم يمضي ، مصفراً بحدة لحناً تيرولياً غامضاً ؛ وآخر يجعل اصابعه تفرقع كصنّاجات ... مالدورور ، منهكاً بفكره المعتم ، يمر ، على حصانه ، قرب هذا المكان ، بسرعة البرق . انه يلمح الغريق ؛ هذا يكفي . رأساً ، اوقف فرسه ، ونزل عن الرِكاب . انه يرفع الشاب دون قرف ، ويجعله يلفظ الماء بغزارة . انه ، لدى التفكير بأن هذا الجسد الجامد قد يعود إلى الحياة تحت يده ، يشعر ان قلبه يقفز ، بفعل هذا الانطباع الممتاز ، ويزداد شجاعة . جهود باطلة ! جهود باطلة ، قلت ، وهذا صحيح . الجثة تبقى جامدة ، وتتركه يديرها في كل الجهات . انه يفرك الاصداغ ؛ انه يدلك هذا العضو ، وذاك ؛

انه ينفخ خلال ساعة في الفم ، وهو يضغط شفاهه على شفاه المجهول . اخيراً يُخيل إليه انه يحس تحت يده ، الموضوعة على الصدر ، خفقاناً خفيفاً . الغريق يحيا ! في هذه اللحظة المهمة ، نستطيع ان نلاحظ ان عدة تجاعيد اختفت من جبين الفارس ، وصغّرت له عمره عشر سنوات . لكن ، للأسف ! التجاعيد ستعود ، ربما غداً ، ربما فور إبتعاده عن ضفاف « السين ». بالانتظار ، يفتح الغريق عينين ذابلتين ، ويشكر المحسن اليه ، بابتسامة باهتة ؛ لكنه ضعيف بعد ، ولا يستطيع ان يقوم بأي حركة . إنقاذ حياة احد ما ، كم هذا جميل ! وكم يكفّر هذا العمل عن اخطاء ! الرجل البرونزي الشفاه ، وقد انشغل حتى الآن بانتشاله من الموت ، ينظر إلى الشاب بانتباه اكبر ، وملامحه لا تبدو له مجهولة . انه يقول في نفسه انه ليس ثمة فارق كبير بين المختنق اشقر الشعر ، وبين هولزر . اترونهما كيف يتعانقان بحرارة ! مهما يكن ! يصرّ الرجل اليَشبيّ البؤبؤ على المحافظة على مظهر دور صارم . انه دون ان يقول شيئاً، يأخذ صديقه ، الذي يضعه على الرِدف ، وتبتعد الفرس في عدوٍ سريع . ايه انت ، يا هولزر ، الذي كنت تظن نفسك جد عاقل وقوي ، ألم ترَ ، بفضل قدوتك ذاتها ، كيف انه من الصعب ، في سورة يأس ، الاحتفاظ برباطة الجأش التي تتباهى بها . آمل انك لن تسبّب لي بعد الآن ألماً مماثلاً ، وانا، من جهتي ، وعدتك ان لا احاول الانتحار قط .

- ١٥ -

يوجد ساعات في الحياة يلقي فيها الانسان المقمّل الشعر ، شاخص العين ، نظرات متوحشة على غشاءات الفضاء الخضراء ؛ لانه يخيل إليه انه يسمع ، امامه ، صياحات شبح ساخرة . انه يترنح ويحني رأسه : إن ما سمعه ، هو صوت الضمير . انه ، عندئذ ، ينطلق من البيت ، بسرعة مجنون ، يسلك اول إتجاه يعرض لذهوله ، وينهب سهول الريف الخشنة . لكنه لا يغيب عن نظر الشبح الاصفر ، الذي يلاحقه بسرعة مماثلة . احياناً ، ذات ليلة عاصفة ، فيما تحلّق جوقات الاخطبوط المجنّحة ، الشبيهة من بعيد بالغربان ، فوق الغيوم ، متوجهة بمجذاف صلب نحو مدن الآدميين ، بمهمة إنذارهم ان يغيّروا مسلكهم ، ترى الحصاة ، القاتمة العين ، كائنين يمرّان على وميض البرق ، الواحد خلف الآخر ، وتهتف ، ماسحة دمعة شفقة عابرة ، تسيل من جفنها المتجلّد : « لا شك انه يستحق هذا الأمر ؛ وهذا ليس سوى عدل ». بعد

ان تقول هذا ، ترتد إلى وضعها العاتي ، وتتابع النظر ، برجفة عصبية ، إلى مطاردة الانسان ، وشفاه مهبل الظل الكبيرة ، التي ينساب منها ، دون انقطاع ، كنهر ، حوينات منوية ضخمة مظلمة تحلّق في الاثير المفجع ، وهي تخفي ، بالبسطة الرحبة لاجنحتها الوطواطية ، الطبيعة بكاملها ، وجوقات الاخطبوط المتوحدة ، التي تصبح كئيبة امام منظر هذه الومضات الصمّاء والمستعصية على التعبير . لكن سباق الحواجز يستمر ، في هذه الأثناء ، بين هذين العدّاءيْن اللذين لا يتعبان ، والشبح يقذف من فمه سيولاً من النار على الظهر المتكلّس للظبي البشري . وإذا ما صادف في طريقه ، اثناء قيامه بواجبه ، الشفقة ، التي تريد ان تقيم في وجهه العقبات ، فإنه يرضخ بنفور لتضرعاتها ، ويترك الانسان يفلت . الشبح يقرقع لسانه ، كما ليقول لنفسه انه سيكف عن المطاردة ، ويعود نحو وجاره ، حتى إشعار آخر . ان صوت المحكوم عليه يُسمع حتى ابعد طبقات الفضاء ؛ وعندما تتسرب ولولته المريعة إلى القلب البشري ، فإن هذا الأخير قد يفضّل ، كما يقولون ، ان يكون الموت له أُماً من ان يكون الندم له ابناً . انه يُغطس رأسه حتى الكتفين في تعقيدات حفرة متربة ؛ لكن الضمير يبدّد حيلة النعامة هذه . التقعير يتبخر ، قطرة من أثير ؛ النور يعود إلى الظهور ، مع موكبه من الاشعة ، كطيران الكروان الذي يحط على الخزامى ؛ والانسان يجد نفسه من جديد وجهاً لوجه مع نفسه ، العيون مفتوحة وشاحبة . لقد رأيته يتوجه ناحية البحر ، يصعد على شِناخ ممزَق ومضروب بحاجب الزبد ؛ وكسهم ، يرتمي في الامواج. هوذه المعجزة : الجثة كانت تظهر ثانية في اليوم التالي ، على صفحة الاوقيانوس ، الذي كان يعيد إلى الشاطىء هذا الحطام اللحمي . الانسان تفلّت من القالب الذي حفره جسده في الرمل ، عَصَرَ الماء من شِعره المبلّل ، وعاود ، وجبينه صامت ومحني ، طريق الحياة . الضمير يحكم بصرامة على أخفى افكارنا وافعالنا ، ولا يُخطىء . وبما انه عاجز غالباً عن تدارك الشر ، فإنه لا يني يلاحق الانسان كثعلب ، خاصة اثناء العتمة . عيون ثأرية ، يسميها العلم الجاهل نيازك ، تُشيع شعلة كابية ، تمر متدحرجة على نفسها ، وتلفظ عبارات سر خفي . . . يفهمها الانسان ! عندئذ تصبح وسادته مضغوطة بشدة تحت هزات جسده، الذي ينوء تحت ثقل الأرق، ويسمع التنفس المنحوس لضوضاءات الليل الغامضة. ملاك النوم، المصاب، هو ذاته، اصابة قاتلة في الجبين بحجر مجهول ، يتخلى عن مهمته ، ويصعد من جديد نحو السماوات . حسناً ، أُرشح نفسي للدفاع عن الانسان ، هذه المرة ، انا ، المزدري بكل

الفضائل ؛ انا ، الذي لم اقدر ان انسى الخالق ، منذ اليوم المجيد ، حين ألصقت ، وانا اقلب ، عن قاعدتها ، حوليات السماء ، التي كان مدوَّناً عليها ، بواسطة لا ادري اية دسيسة دنيئة قدرته وأبديته ، محاجمي الاربعمئة تحت إبطه ، وجعلته يطلق صرخات رهيبة . . . تحوَّلت إلى افاعي ، وهي تخرج من فمه ، وذهبت لتختبىء في الاشواك ، الاسوار المتهدمة ، بالمرصاد نهاراً ، بالمرصاد ليلاً . هذه الصرخات ، وقد اصبحت زاحفة ، ومزوَّدة بحلقات لا تُعد ، اقسمت ، برأس صغير ومسطَّح ، وعيون خؤونة ، ان تتربص بالبراءة البشرية ؛ وعندما تتنزه هذه الأخيرة في تشابكات الادغال ، او وراء المنحدرات او على رمال الكثبان ، فإنها لن تتوانى عن تغيير رأيها . هذا إذا كان الوقت لم يفت بعد ؛ لان الانسان يكتشف ، احياناً ، ان السُم يتسرب إلى اوردة ساقه ، من لدغة لا تكاد تُرى ، قبل ان يُتاح له المجال ليغيِّرطريقه ، ويهرب . وهكذا يعرف الخالق ، محتفظاً برباطة جأش مدهشة ، حتى في افظع الآلام ، كيف يستخرج من صدر سكان الأرض بالذات ، جراثيم ضارَّة لهم . كم كانت دهشته عظيمة ، عندما رأى مالدورور ، وقد تحوَّل إلى اخطبوط، يتقدم في مواجهة جسده بقوائمه الثماني ، التي قد تستطيع كل واحدة منها ، كسير صلب ، ان تكتنف بسهولة محيط كوكب متحيِّر . انه راح ، مأخوذاً على حين غرة ، يتخبط ، بضع لحظات ، ضد هذه الضمَّة اللزجة ، التي كانت تضيق اكثر فأكثر . . . كنت اخشى ثمة ضربة عاطلة من جهته ؛ بعد ان تغذيت بغزارة من كُريات هذا الدم المقدس ، انسلخت فجأة عن جسده الجليل ، واختبأت في مغارة ، ظلت ، منذ ذلك الوقت ، مقراً لي . بعد تحريات غير مثمرة ، لم يتمكن من العثور عليَّ . لقد مضى زمن طويل على هذه الحادثة ؛ لكني اعتقد انه يعرف الآن اين هو مقري ؛ لكنه يحاذر ان يدخله ؛ اننا نعيش ، كلانا ، كعاهلين متجاورين ، يعرفان قواهما المتبادلة ، لا يستطيعان ان يتغلبا الواحد على الآخر ، ومتعبين من معارك الماضي غير المجدية . انه يخشاني ، وانا اخشاه ؛ كل واحد منا ، دون ان يكون مغلوباً ، قد احسّ بضربات خصمه القاسية ، ولا نذهب إلى ابعد من ذلك . مع اني مستعد ان استأنف القتال ، حينما يشاء . لكن يجب ان لا ينتظر ثمة لحظة مؤاتية لاهدافه المستترة . ساحترس دائماً ، مُبقياً عيني عليه . يجب ان لا يرسل بعد إلى الأرض الضمير وعذاباته . لقد علَّمت البشر على الاسلحة التي يستطيعون بواسطتها ان يحاربوه بنجاح . انهم لم يعتادوا عليه بعد ؛ لكنك تعرف انه ، بالنسبة لي ، مثل التبن

الذي تحمله الريح . اني أُوليه نفس الاهمية التي أُوليها للتبن . اني لو اردت ان اغتنم الفرصة ، السانحة لي ، لتدقيق للفكر في هذه المناقشات الشعرية ، فاني سأُضيف اني حتى أُولي التبن اهمية اكثر من الضمير ؛ لأن التبن نافع للبقرة التي تجترُّه ، بينما لا يعرف الضمير ان يُظهر سوى مخالبه الفولاذية ؛ التي باءت بالفشل الذريع ، يوم اخذت مكانها امامي . بما ان الضمير كان مُرسلاً من قِبَل الخالق ، فاني وجدت من المناسب ان لا اتركه يُقيم العقبات في وجهي . لو انه حضر مع التواضع والخضوع الجديرين بمقامه ، واللذين ما كان يجب ان يتنازل عنهما قط ، لكنت استمعت إليه . لم اكن احب عجرفته . لقد مددت يداً ، وتحت اصابعي سحقت المخالب ؛ فتساقطت رماداً ، تحت الضغط المتعاظم لهذا الهاون الحديث الطراز . مددت اليد الأخرى ، ونزعت له رأسه . طردت بعد ذلك خارج بيتي ، هذه المرأة ، بلسعات السوط ، وما عدت رأيتها قط . لقد احتفظت برأسها تذكاراً لانتصاري . . . حاملاً بيدي رأساً ، كنت اقضم جمجمته ، انتصبت على رجلٍ ، كالقنفذ ، على ضفاف هوة محفورة في احضان الجبل . لقد رأوني انزل الى الوادي ، فيما كان جلد صدري جامداً وهادئاً ، كغطاء قبر ! حاملاً بيدي رأساً ، كنت اقضم جمجمته ، سبحت في اخطر اللجج، حاذيت صخور البحر القاتلة، وغطست أعمق من التيارات، لأتفرج كغريب، على صراعات الوحوش البحرية؛ ابتعدت عن الشاطىء ، الى ان غاب عن بصري الحاد ؛ والتشنجات الكريهة ، بمغناطيسها الباعث على الشلل ، كانت تحوم حول اعضائي ، التي كانت تشقّ الامواج بحركات قوية ، دون ان تجرؤ على الاقتراب . لقد رأوني اعود ، سالماً معافىً ، إلى الشاطىء ، فيما كان جلد صدري جامداً وهادئاً ، كغطاء قبر ! حاملاً بيدي رأساً ، كنت اقضم جمجمته ، عبرت السلالم الصاعدة لبرج مرتفع . بلغت ، مرهق الساقين ، السطيحة المثيرة للدوار . نظرت إلى الريف ، إلى البحر ؛ نظرت إلى الشمس ، إلى السماء ؛ تحديث الموت والانتقام الإلهي بصيحة قصوى ، دافعاً برجلي الصوَّان الذي لم يتراجع ، وارتميت كبلاطة في فم الفضاء . لقد سمع البشر الصدمة المؤلمة والمدوية التي نتجت عن إلتقاء الارض برأس الضمير ، الذي أفلته اثناء سقوطي . لقد رأوني اسقط ، ببطء العصفور ، محمولاً على غيمة لا منظورة ، وألتقط الرأس ، لكي أُجبره ان يكون شاهداً على جريمة ثلاثية ، كان عليَّ ان ارتكبها ذلك اليوم بالذات ، فيما كان جلد صدري جامداً وهادئاً ، كغطاء قبر ! حاملاً بيدي رأساً ، كنت أُقضم جمجمته ، توجهت نحو

الموضع الذي تنتصب فيه الاعمدة التي تدعم المقصلة . لقد وضعت اللطافة اللذيذة لاعناق ثلاث فتيات تحت شفرة المقصلة . جلّاداً ، افلتّ الحبل بخبرة ظاهرة لحياة كاملة ، والحديدة المثلثية ، وهي تنقضّ بانحراف ، قطعت ثلاثة رؤوس ، كانت تنظر إليّ بعذوبة . وضعت بعد ذلك رأسي تحت الموسى الثقيلة ، والجلّاد هيأ إتمام واجبه . ثلاث مرات ، عادت شفرة المقصلة إلى السقوط بين الحزّات بقوة جديدة ، ثلاث مرات ، تزعزع هيكلي العظمي المادي من اساساته ، خاصة في موضع العنق ، كما عندما نتصور في الحلم اننا مسحوقون تحت ركام منزل ينهار . الشعب المذهول تركني امرّ ، كي ابتعد عن المكان الجنائزي ؛ لقد رآني افتح بمرفقيّ سيوله المتموجة ، واتحرك ، مليئاً بالحياة ، متقدماً امامي ، مستقيم الرأس ، فيما كان جلد رأسي جامداً وهادئاً ، كغطاء قبر ! لقد قلت اني اريد ان أدافع عن الانسان ، هذه المرة ؛ لكني اخشى ان لا تكون منافحتي هي التعبير عن الحقيقة ؛ لهذا السبب ، أفضّل ان اسكت . والانسانية ستصفق بعرفان جميل لهذا الإجراء ! .

- ١٦ -

حان وقت ان أشد مكابح الهامي ، وان اتوقف ، لحظة ، في الطريق ، كما عندما ننظر إلى مهبل امرأة ؛ حسن ان نتفحص الدرب المعبورة ، وان ننطلق ، بعد ذلك ، والاعضاء مرتاحة ، في وثبة عاتية . تقديم دفعة من نَفَس واحد ليس بالامر السهل ؛ والاجنحة تتعب كثيراً ، في طيران مرتفع ، دونما امل ودونما ندم . لا . . . دعونا لا نسوق اعمق من ذلك كلاب الصيد الوحشية للمعاول والحفريات ، عبر المناجم القابلة للتفجير لهذا النشيد الكافر ! ان التمساح لن يغيّر كلمة من القيء الخارج من تحت جمجمته . آسف ، إذا فتح ثمة ظِل خفي ، مدفوعاً بالهدف المحمود في الثأر من الانسانية ، المهاجَمة من قِبَلي بشكل ظالم ، باب غرفتي خلسة ، وهو يمس السور كجناح زمج ماء ، وغرز خنجراً ، في ضلوع نهّاب حطام السفن السماوية ! سيان ان يذيب الفخّار ذرّاته ، بهذه الطريقة او باخرى .

(نهاية النشيد الثاني)

النشيد الثالث

- ١ -

فلنسترجع اسماء هذه الكائنات الخيالية، ذات الطبيعة الملائكية، التي سحبتها ريشتي، خلال النشيد الثاني، من دماغ، مشع بوميض منبثق منها. إنهم يموتون، منذ ولادتهم، كتلك الشرارات التي تلاقي العين مشقة في متابعة إمحائها السريع، على الورق المحترق. ليمان!... لوهنغرين!... لومبانـو!... هولزر!... ذات لحظة، ظهرتم، مكسوين بشارات الصبا، على افقي المفتون؛ لكني تركتكم تسقطون من جديد في السديم، كأجراس الغطّاس. إنكم لن تخرجوا منه. بحسبي أني احتفظت بذكراكم؛ كان عليكم أن تُخلوا المكان لماهيات أخرى، ربما أقل جمالاً، سيلدها الفيضان العاصف لحب قرر أن لا يروي عطشه قرب الجنس البشري. حب جائع، سيلتهم نفسه، إن لم يبحث عن غذائه في الأوهام السماوية: إنه سيضم، في قطع اهليلجي سيجعله يزوبع من حوله، هرماً من الملائكة، خالقاً إياها، على المدى الطويل، أكثر عدداً من الحشرات التي تعجّ في نقطة ماء. في هذه الأثناء، إذا رفع المسافر، المتوقف أمام منظر شلال، وجهه، فانه سيرى، في البعيد، كائناً بشرياً محمولاً نحو قبو الجحيم على اكليل من أزهار الكاميلية الحية! لكن... صمتاً! الصورة الطافية للمثال الخامس ترتسم ببطء، كالطيات الحائرة لفجر شمالي، على السطح البخاري لذكائي، وتأخذ أكثر فأكثر قواماً محدداً... ماريو وأنا كنا نحاذي الساحل الرملي، كان حصانانا يشقان غشاءات الفضاء، مادّين عنقهما، وينتزعان

شرارات من حصى الشاطىء الملساء. ريح الشمال، التي كانت تصفعنا ملء وجهنا، كانت تغور في معاطفنا، وتجعل شعر رأسينا التوأمين يتطاير إلى الوراء. النورس بصراخاته وحركات جناحه، كان يجهد عبثاً لإنذارنا بقرب حدوث العاصفة المحتمل، وكان يهتف: «اين يذهبان، بهذا العدْوِ الأخرق؟» لم نقل شيئاً، غارقين في حلم اليقظة، تركنا نفسنا محمولينْ على أجنحة هذا السباق الهائج؛ الصيَّاد، وقد رآنا نمر، سريعيـن كالقطرس، وظاناً انه يلمح، هاربينْ أمامه، «الشقيقين الغامضين»، كما اسموهما، لأنهما كانا دائماً معاً، سارع إلى رسم اشارة الصليب، واختبأ، مع كلبه المنشلّ، تحت ثمة صخرة عميقة. لقد سمع سكان الشاطىء من يخبرهم أشياء غريبة عن هذين الشخصين، اللذين كانا يظهران على الأرض، وسط الغيوم، في كبرى عصور الكارثة، عندما كانت حرب كريهة تهدد بأن تُنصب خُطّافها على صدر بلدين عدوين، أو عندما كانت الكوليرا تتأهب لتقذف، بمرجاتها، العفونة والموت في مدن بكاملها. إن أكبر نهابي حطام السفن عمراً كانوا يقطبون حاجبهم، بهيئة وقورة، مؤكدين أن الشبحين، اللذين كان كلٌ منهما قد لاحظ البسطة الرحبة للاجنحة السوداء، إبان الأعاصير، فوق أرصفة رمل، وصخور بحر، كانا عبقرية الأرض وعبقرية البحر، ينزهان جلالهما، وسط الأجواء، إبان كبريات ثورات الطبيعة، متحدين معاً في صداقة أبدية، تسببت ندرتها ومجدها في دهشة الحبل اللانهائي من الأجيال. كانوا يقولون إنهما كانا يجبان، محلقين جنباً إلى جنب كصقرين من جبال الأنديز، أن يحوِّما، في دوائر متراكزة، وسط طبقات الأفلاك التي تجاور الشمس؛ إنهما كانا يتغذيان، في هذه المناطق، بأصفى جواهر النور؛ لكنهما لم يكونا يقرران إلا بالجهد الجهيد أن يخفضا انحناءة طيرانهما العمودي، نحو المسار المرتاع الذي تدور فيه الكرة البشرية الغارقة في الهذيان، المأهولة بأرواح قساة، يتذابحون فيما بينهم في الميادين التي تجأر فيها المعركة (هذا عندما لا يقتلون بعضهم بغدر، سراً، في وسط المدن، بخنجر الحقد والطموح)، ويتغذون بكائنات زاخرة بالحياة مثلهم وموضوعة على بضع خطوات أدنى منهم في سلم الموجودات. أو، عندما كانا يتخذان القرار الحازم، كيما يحفزا البشر على الندم بمقاطع نبوءاتهما، في أن يسبحا، متجهين في ملء باعات كبيرة، نحو المناطق الكوكبية حيث يتحرك كوكب متحيرٌ وسط انبعاثات كثيفة من البخل، الكبرياء، اللعنة والسخرية، التي تتصاعد كأبخرة طاعونية، من سطحه الكريه، ويبدو صغيراً ككرة، بما انه لا مرئي تقريباً، بسبب المسافة، فانه لم يكن يفوتهما العثور على فرص ليندما بمرارة

على رفقهما، المجهول القيمة والمستهزأ به، ويذهبان ليختبآ في جوف البراكين، ليتحادثا مع النار الصلبة التي تغلي في دنان الدياميس المركزية، أو في غور البحر، ليريحا بسرور نظرهما الخائب الظن على أكثر وحوش اللجة ضراوة، التي تبدو لهما نماذج من النعومة، بالمقارنة مع أبناء الانسانية الحرام. وعندما حلّ الليـل، بعتمتـه المؤاتية، انطلقا من فوهات البراكين، ذات القنزعة السمّاقية، من التيارات التحمائية وتركا، بعيداً جداً وراءهما، المبولة الكثيرة الحصى حيث يهوج الشرج المصاب بالقبض للبغاوات البشرية، إلى أن صارا عاجزينْ عن تمييز الشبح المعلّق للكوكب المتحيرّ الدنس. حينئذ تعانقا، وقد أحزنتهما المحاولة غير المثمرة، وسط النجوم التي كانت تشفق على عذابهما، وتحت عين الرب، وهما ينتحبان، ملاك الأرض وملاك البحر!... ماريو وذاك الذي كان يعدو إلى جانبه لم يكونا يجهلان الاشاعات الغامضة والمتطيرة التي كان يخبرها، أثناء السهرات، صيادو الشاطىء، متوشوشين حول المدفأة، والأبواب والنوافذ مغلقة؛ فيما ريح الليل، التي ترغب في أن تتدفأ، تُسمع تصفيراتهـا حول كوخ القش، وتهز، بعزمها، هذه الأسوار الهشة، المحاطة عند أساسها بكسرات أصداف، جلبتها انكفاءات الموج المحتضرة. لم نكن نتكلم. ماذا يقول لبعضهما قلبان يتحابان؟ لا شيء. لكن عيوننا كانت تعبّر عن كل شيء. نبّهته أن يشد معطفه حوله مزيداً، وهو جعلني ألاحظ أن حصاني يبتعد كثيراً عن حصانه: كل واحد يهتم بحياة الآخر، بقدر ما يهتم بحياته الخاصة؛ لم نكن نضحك. إنه يجهد أن يبتسم لي: لكني أدرك أن وجهه يحمل ثقل انطباعات رهيبة حفرها عليه التأمل، المنحني باستمرار فوق آباء الهول الذين يضلّلون بعين منحرفة، غموم ذكاء الفانين الكبرى. إنه يدير عيونه، مبصراً ان مناوراته لا تجدي نفعاً، يشد مكبحه الأرضي مع لُعاب الحنق، ويتطلع إلى الأفق، الذي يهرب لدى اقترابنا. إني أجهد، بدوري، لتذكيره بصباه المذهّب، الذي لا يطلب سوى أن يتقدم نحو قصور المتع، كملكة؛ لكنه يلاحظ أن عباراتي تخرج بصعوبة من فمي المهزول، وان سنوات ربيعي الخاص قد مضت، حزينة وجليدية، كحلم عنيد يُجيل، على طاولات المآدب، وفوق تخوت الأطلس، حيث تهجع كاهنة الحب الشاحبة، المتلقية أجرها بلمعانات الذهب، الشهوات الحسية المرة لخيبة الأمل، التجاعيد الطاعونية للشيخوخة، رعبات الوحدة ومشاعل الألم. إني لا أعجب، مُبصراً أن مناوراتي لا تجدي نفعاً، لعجزي عن جعله سعيداً؛ العلي ـ القدير يظهر لي متمنطقاً بأدوات تعذيبية، في كامل الهالة المتألقة لفظاعته؛ أدرت عيوني وتطلعت

إلى الأفق الذي يهرب لدى اقترابنا. . . كان حصانانا يعدوان على طول الساحل، كما لو أنهما كان يهربان من العين البشرية. . . ماريو أصغر مني؛ رطوبة الطقس، والزبد المملح الذي تبلغنا تفجّراته يقودان ملامسة البرد إلى شفتيه. قلت له: «إحترزا. . . إحترز. . . أطبق شفتيك، الواحدة على الأخرى؛ ألا ترى مخالب الفلع الحادة، تثلم جلدك بجراح كاوية؟» إنه يشخص إلى جبيني، ويجاوبني بحركات لسانه: «نعم، أراها هذه المخالب الخضراء؛ لكني لن اشوّش الوضع الطبيعي لفمي لأجعلها تهرب. انظر؛ إذا كنت أكذب. بما إنها مشيئة العناية الإلهية فيما يظهر، فاني أريد أن امتثل لها. إن مشيئتها كان يمكن أن تكون أفضل» أردت أن أقتلع شعري؛ لكنه منعني من ذلك بنظرة صارمة، وأطعته باحترام. كان الوقت قد تأخر، والنسر التحق بوكره، المحفور في تجاويف الصخرة. قال لي: «سأعيرك معطفي، لأقيك من البرد: لست بحاجة إليه.» أجبته: «الويل لك، إذا فعلت ما تقوله. لا أريد أن يتألم أحد مكاني، خاصة ليس أنت.» لم يجاوب، لأني كنت على حق؛ لكن أنا طفقت أعزيه، بسبب اللهجة العاتية جداً لعباراتي. . . كان حصانانا يعدوان على طول الساحل، كما لو أنهما كانا يهربان من العين البشرية. . . رفعت رأسي، كجؤجؤ سفينة تشيلها موجة ضخمة، وقلت له: «هل تبكي؟ هذا ما أسألك عنه، يا ملك الثلوج والضبابات. لا أرى دموعاً على وجهك، الجميل كزهرة الصبّار، وأهدابك جافة، كمجرى السيل؛ لكني اتبيّن في جوف عينيك، دناً، مليئاً بالدم، حيث تغلي كل براءتك، وقد لدغها في عنقها عقرب من النوع الكبير. ريح عنيفة تنقضّ على النار التي تسخّن المرجل، وتنثر شعلاتها الغامضة إلى خارج محجرك المقدس. أدنيت شعري من جبينك المتورّد، وشممت رائحة مشيّطة، لأن شعري احترق. اغلق عينيك؛ وإلا، فان وجهك المتكلّس كحمم البركان سيتهاوى رماداً فوق باطن يدي». وهو، كان يستدير نحوي، دون أن يُعير انتباهاً للأعنّة التي كان يمسكها في يده، وكان يتأملني بحنان، فيما كان يخفض ويرفع ببطء أهدابه الزنبقية، كمد وجزر البحر. لقد كان له ملء الرغبة في الاجابة على سؤالي الجريء، وإليكم كيف فعل ذلك: «لا تُعرني انتباهاً. فكما أن أبخرة الأنهر تزحف على طول منحدرات الرابية، وما أن تصل إلى القمة، حتى تنطلق في الجو، وهي تشكل غيوماً؛ هكذا تضاعفت بشكل غير محسوس مخاوفك بصددي، دون سبب معقول، وهي تشكل فوق مخيلتك، جسداً خادعاً لسراب موحش. اؤكد لك أنه لا يوجد نار في عينيّ، مع اني اشعر فيهما بنفس

الانطباع الذي كنت لأحسه فيما لو كانت جمجمتي مغموسة في خوذة من الجمر المتأجج. كيف تريد للحوم براءتي ان تغلي في الدن، طالما أني لا أسمع سوى صراخات جد ضعيفة ومبهمة، ليست بالنسبة لي سوى تأوهات الريح، التي تمر فوق رؤوسنا. إنه لمن المستحيل أن يكون ثمة عقرب قد ركّز مقره ومشابكه الحادة في جوف محجري المقطّع؛ اعتقد بالأحرى أنها كمّاشات قوية تجرش الأعصاب البصرية. إلا أني متفق معك، على أن الدم، الذي يملأ الدن، قد تم استخراجه من أوردتي من قِبَل جلّاد لا منظور، أثناء رقاد الليلة الأخيرة. لقد انتظرتك طويلاً يا ابن الأوقيانوس الحبيب؛ وذراعاي الغافيتان اشتبكتا في صراع باطل مع ذاك الذي تسلل إلى بهو بيتي. . . نعم اشعر أن روحي مغلق عليها بمزلاج جسدي ولا تستطيع الانعتاق، لتهرب بعيداً عن الشواطىء التي يضربها البحر البشري، فلا تكون بعد شاهدة على سرب كلاب صيد الأحزان الكابي، الذي يلاحق دون هوادة، عبر مستنقعات وهاويات الانهيار الضخم، حيوانات الشمواه البشرية. لكني لن اتشكى. لقد تلقيت الحياة كجرح، ولقد حظرت على الانتحار ان يشفي الندبة، التي أريد للخالق أن يتأمل فلقها الفاغر في كل ساعة من ابديته. هذه هي العقوبة التي أنزلتها به. إن فرسينا يخففان من سرعة حوافرهما الفولاذية؛ جسداهما يرتعشان، كصياد فوجىء بقطيع من الخنازير البرية. يجب أن لا يأخذا بالتنصت إلى ما نقوله. من فرط الانتباه، قد ينمو ذكاؤهما، وقد يتمكنان ربما من فهمنا. ويل لهما؛ لأنهما قد يتعذبان أكثر! بالفعل، لا تفكرْ إلا بخنانيص الانسانية: درجة الذكاء التي تفصلهم عن بقية كائنات الخليقة ألا يبدو إنها لم تمنح لهم لا بثمن لا يعوَّض من آلام لا يحصرها عد. أحذ حذوي، ولينغرز مهمازك الفضي في خواصر فرسك. . . » كان حصانانا يعدوان على طول الشاطىء، كما لو أنهما كانا يهربان من العين البشرية.

- ٢ -

هو ذه المجنونة تمر وهي ترقص، بينما تتذكر بشكلٍ غامض شيئاً ما. الأولاد يلاحقونها برشقات الحجارة، كما لو كانت شحروراً. إنها تمتشق عصا وتتظاهر بأنها تلاحقهم، ثم تتابع ركضها. لقد خلّفت فردة حذاء في طريقها، وهي لا تلاحظ ذلك. قوائم عنكبوت طويلة تدور حول رقبتها؛ إنها ليست شيئاً آخر سوى شعرها. وجهها لم يعد يشبه الوجه البشري، وهي تطلق قهقهات كالضبع. إنها تترك مِزَقاً من جُملٍ تفلت منها، قد يجد فيها قليلون جداً، وهم

يعيدون درزها، معنىً واضحاً. فستانها، المثقوب في أكثر من موضع، يقوم بحركات متقطعة حول ساقيها العظميَّتين والمليئتين بالوحل. إنها تهيم على وجهها، كورقة الحور، محمولةً، هي، وصباها، وأوهامها وسعادتها الماضية، التي تراها من خلال ضباب ذكاء متهـدم، على زويعة قوىً لا واعية. لقد فقدت لطافتها وجمالها الفطريين؛ مشيتها بشعة، ولهاثها يتنفس ماء الحياة. إذا كان البشر سعداء على هذه الأرض، فإنه عند ذاك قد يكون علينا أن نتعجب. المجنونة لا توجِّه أي ملامة، إنها أكثر إباءً من أن تتذمر، وستموت، دون أن تكون قد أباحت سرها لاولئك الذين يهتمون بها، إنما الذين حظرت عليهم أن يوجِّهوا إليها الكلام قط. الأولاد يلاحقونها، برشقات الحجارة، كما لو كانت شحروراً. لقد تركت لفة ورق تسقط من صدرها. مجهول التقطها، اعتكف في منزله طوال الليل، وقرأ المخطوطة، التي كانت تحتوي على ما يلي: «بعد عدة سنوات عقيمة، بعثت لي العناية الالهية بنتاً. خلال ثلاثة أيام، كنت أركع في الكنائس، ولا أكفّ عن شكر الاسم الكبير لذاك الذي استجاب أخيراً لرغباتي. كنت أغذي بحليبي ذاته تلك التي كانت أكثر من حياتي، والتي كنت أراها تكبر بسرعة، متحلية بكل مزايا الروح والجسد. كانت تقول لي: «أود أن يكون لي أخت صغيرة كي أتسلى معها؛ تشفعّي إلى الله تعالى ليرسل لي واحدة، ومن أجل أن أكافئه، سأضفر له أكليلاً من البنفسج، من النعناع ومن إبرة الراعي». كل جوابي تلخص في ان رفعتها إلى صدري وقبّلتها بحب. كانت تعرف منذ ذلك الوقت ان تهتم بالحيوانات، وكانت تسألني لماذا يكتفي السنونو بأن يجاحف الأكواخ البشرية، دون أن يجرؤ على دخولها. لكن، أنا، كنت أضع أصبعاً على فمي، كما لأقول لها ان تلزم الصمت حول هذا السؤال الخطير، الذي لم أكن أريد بعد أن أجعلها تفهم عناصره، لكي لا أصدم، باحساس عنيف، خيالها الطفولي، وكنت أسارع إلى تحويل الحديث عن هذا الموضوع، الذي تشق معالجته على كل كائن ينتمي إلى الجنس الذي فرض سيطرته الظالمة على بقية حيوانات الخليقة. عندما كانت تكلمني عن قبور الجبّانة، وهي تقول لي أن المرء يتنشق في هذا الجو العطور الشذية لأشجار السرو والزهرات الخالدات، كنت أحاذر أن أناقضها؛ لكني كنت أقول لها أن هذه مدينة العصافير، التي تغني هنا منذ الفجر حتى غسق المساء، وأن القبور كانت أعشاشها، حيث تنام في الليل مع عائلتها، وهي ترفع الرخام. كل الملابس الظريفة التي كانت تكسوها، أنا التي خيّطتها، وكذلك التخاريم، ذات الألف زخرف، التي كنت أدّخرها لنهار

الأحد. في الشتاء، كان لها مطرحها المشروع حول المدفأة الكبرى، لأنها كانت تظن نفسها شخصاً جدياً، وخلال الصيف، كان المرج يتعرف إلى وقع أقدامها اللذيذ، عندما كانت تهيم، بشبكتها الحريرية، المعلَّقة بطرف قضيب من أسل، وراء عصافير الضُريس، الزاخرة بالحرية، والفراشات ذات التعرجات المزعجة. «ماذا تفعلين، أيتها المتشرِّدة الصغيرة، في حين ينتظرك الحساء منذ ساعة، مع الملعقة التي ينفد صبرها؟» لكنها كانت تصرخ، وهي تقفز إلى عنقي، بأنها لن تعود قط إلى المرج. في اليوم التالي، كانت تفلت من جديد، عبر زهور اللؤلؤ والخزام؛ بين أشعة الشمس والطيران المدوِّم للحشرات الزائلة؛ لا تعرف سوى الكأس الموشورية للحياة، وليس بعد المرارة؛ سعيدة لأنها أكبر من القُرقب؛ ساخرة من الدُخلة، التي لا تغني جيداً مثل العندليب؛ مادةً لسانها بمداجاة للغراب القبيح، الذي كان ينظر إليها أبويا؛ وظريفة مثل هرّ صغير. لم يكن مقدَّراً لي أن استمتع طويلاً بحضورها؛ كان يقترب الوقت، الذي كان عليها فيه، بصورة غير منتظرة، ان تودِّع مفاتن الحياة، هاجرة للأبد صحبة الترغلات، دجاجات الاحراج وطيور الخُضَيرْ، بقبقبات الخزامى وشقائق النعمان، نصائح أعشاب المستنقع، الروح الحازة للضفادع، ونداوة السواقي. لقد قصّوا علي ما جرى؛ لأني، أنا، لم أكن حاضرة الحدث، الذي كان من نتيجته موت ابنتي. لو أني كنت حاضرة، لكنت دافعت عن هذا الملاك مسترخصة دمي... كان مالدورور يمر مع كلبه البولدوغ؛ انه يرى فتاة صغيرة تنام في ظل شجرة دُلب، ظنهًا بادىء الأمر زهرة. لا نستطيع أن نقول أيها ارتفع أبكر في فكره، رؤية هذه الطفلة، أو القرار الذي نجم عنها. إنه ينزع ثيابه بسرعة، كرجل يعرف ما سوف يفعله. ارتمى، عارياً كحجر، فوق جسد الفتاة الصغيرة، ورفع لها فستانها لارتكاب انتهاك للعِرْض... في وضح النهار! انه لن يتضايق، روحوا!... دعونا لا نشدّد على هذا العمل الفاحش. بروح مستاءة، ارتدى ثيابه ثانية بعجلة كبيرة، ألقى نظرة حذر على الطريق الغبراء، التي لا يمشي عليها أحد، وأمر كلب البولدوغ أن يخنق بحركة فكيه، الفتاة الصغيرة المدمّاة. أشار إلى كلب الجبل إلى الموضع الذي تتنفس وتصيح منه الضحية المتألمة، وانسحب على حدة، كي لا يكون شاهداً على دخول الأنياب الحادة في الأوردة الزهرية. إن تنفيذ هذا الأمر ربما بدا قاسياً لكلب البولدوغ. ظن أنهم يطلبون منه ما سبق وتم فعله، واكتفى، ذلك الذئب، الوحشي الخطم، بأن اغتصب بدوره عذرية هذه الطفلة الرقيقة. من بطنها الممزق، الدم يسيل من جديد على طول ساقيها، عبر المرج.

إن تأوهاتها تنضم إلى دموع الحيوان. الفتاة الصغيرة تقدم له صليب الذهب الذي كان يزيّن عنقها، كيما يوفّرها؛ لم تجرؤ ان تقدمه إلى العيون الشرسة لذاك الذي، راودته، بادىء الأمر، فكرة استغلال ضعف عمرها. لكن الكلب لم يكن يجهل، انه اذا لم يُطع أوامر سيده، فان سكيناً مقذوفة من فوق كُمّ، قد تفتح فجأة احشاءه دون سابق انذار. مالدورور (كم يبعث لفظ هذا الاسم على الاشمئزاز) كان يسمع احتضارات الألم، وكان يتعجب لأن الضحية تملك حياة صلبة لدرجة، أنها لم تمت حتى الآن. إنه يقترب من المذبح القرباني، ويرى مسلك كلبه البولدوغ، المستسلم لنوازعه الحقيرة، والذي كان يرفع رأسه فوق الفتاة الصغيرة، كغريق يرفع رأسه فوق الأمواج الغضبى. ركله برجله وفقأ له عيناً. كلب البولدوغ، وقد استبد به السخط، يهرب في الريف، جارّاً وراءه، خلال فسحة من الطريق، هي دائمًا جد طويلة، مهما قصرت، جسد الفتاة الصغيرة المعلّقة، الذي لم يتم إفلاته إلا بفضل الحركات المتقطعة لعملية الفرار، لكنه يخشى أن يهاجم سيده الذي لن يراه ثانية بعد الآن، والذي يسحب من جيبته مدية أميركية، مؤلفة من عشرة إلى اثني عشر نصلاً، تستخدم لمختلف الاستعمالات. إنه يفتح القوائم الوعرة لهذه الهدرة الفولاذية؛ ومزوّداً بمثل هذا المبضع، ومبصراً أن الأرض المعشبة لم تختفِ بعد تحت صبغة كل هذا الدم المهراق، يتحفز، دون أن يمتقع له لون، لأن ينبش بشجاعة مهبل الطفلة التاعسة. من هذا الثقب الموسّع، يستخرج تباعاً الأعضاء الداخلية؛ الإمعاء، الرئتين، الكبد وأخيراً القلب ذاته تُقتلع من أساساتها وتُسحب إلى ضوء النهار، من الفتحة الرهيبة. إن مقدِّم الذبيحة يلاحظ أن الفتاة الصغيرة، دجاجة مُفرَغة، قد ماتت من زمان؛ يوقف المثابرة المُتعاظمة لفتكاته، ويترك الجثة تنام من جديد في ظل شجرة الدُلب. لقد لّموا المدية المتروكة على مسافة بضع خطوات. ثمة راع، شاهد على الجريمة، التي لم يتم اكتشاف مرتكبها، لم يخبر عنها إلا طويلاً بعد أن تأكد ان المجرم قد بلغ بامان الحدود، وانه ما عاد عليه أن يخشى الانتقام الأكيد الملفوظ ضده في حال الإفشاء. لقد رثيت للأحمق الذي ارتكب هذا الجرم، الذي لم ينصّ عليه المشترع، والذي لم يسبق له مثيل. لقد رثيت له، لأنه من المحتمل أنه لم يكن يحتفظ بسلامة عقله، عندما استعمل الخنجر ذا النُصل المثلّث أربع مرات، وراح يخدّ رأساً على عقب، حيطان الإمعاء. لقد رثيت له، لأنه إذا لم يكن مجنوناً، فان سلوكه المشين يجب أن يحضن حقداً كبيراً جداً ضد أشباهه، كيما ينصبّ هكذا على لحوم وشرايين طفلة مسالمة،

كانت ابنتي. لقد حضرت دفن هذه الرُدوم البشرية، باذعان صامت؛ وكل يوم أجيء لأصَلي فوق قبر.» في ختام هذه القراءة، لم يعد بوسع المجهول الاحتفاظ بقواه، وأغمي عليه. إنه يستعيد وعيه، ويحرق المخطوطة. لقد نسي هذه الذكرى من شبابه (العادة تُضعف الذاكرة!) وبعد عشرين سنة من الغياب رجع إلى هذا البلد المحتوم. إنه لن يشتري كلب بولدوغ!... إنه لن يتحدث مع الرعاة!... إنه لن يذهب لينام في ظلِ أشجار الدُلب!... الأولاد يلاحقونها برشقات الحجارة كما لو كانت شحروراً.

- ٣ -

تريمدال مسَّ للمرة الأخيرة، يد ذاك الذي يتغيّب اختيارياً، هارباً دائماً أمامه، مُلاحَقاً دائماً بصورة الانسان. اليهودي التائه يقول في نفسه انه ما كان ليهرب هكذا لو أن صولجان الأرض كان مُلكاً للتماسيح. تريمدال وضع، واقفاً فوق الوادي، يداً أمام عينيه، ليركّز الأشعة الشمسية، ويجعل حاسة رؤيته أكثر حدة، بينما يجسّ الآخر صدر الفضاء، بالذراع الأفقية والجامدة. إنه ينظر، منحنياً إلى الأمام، كتمثال الصداقة، بعيون مكتنفة بالأسرار كالبحر، إلى ران المسافر المتسند على عصاه الحديدية، يتسلق منحدر الشاطىء. الأرض يبدو أنها لا تزال تحت أقدامه، وحتى لو أراد أن يحبس دموعه ومشاعره، فانه لن يتمكن من ذلك: «إنه بعيد؛ أرى شبحه يمشي في درب ضيق. إلى أين يذهب، بهذه الخطوة الثقيلة؟ هذا ما لا يعرفه هو نفسه... مع ذلك، أنا مقتنع بأنه لا ينام: مَن يقترب، ويذهب لمقابلة مالدورور؟ كم هو كبير التنين... أكبر من سنديانة! يخَيل إلينا أن جناحيه الأبيضين، الموثقين بروابط متينة، لهما أعصاب من فولاذ، لشدة ما تشقّان الهواء بيسر. جسده يبدأ بنصف أعلى لنمر، وينتهي بذيل أفعى طويل. لم أكن معتاداً على رؤية هذه الأشياء. ماذا له إذاً على جبهته؟ أرى مكتوباً عليها، بلغة رمزية، كلمة لا أستطيع أن أفك حروفها. بضربة جناح أخيرة، انتقل إلى قرب ذاك الذي أعرف رنة صوته الخاصة. قال له: «كنت انتظرك وأنت كذلك. لقد حانت الساعة؛ هأنذا. اقرأ على جبهتي، اسمي مكتوباً بعلامات هيروغليفية.» لكن هو، لم يكد يرى العدو يأتي، حتى تحوَّل إلى نسر ضخم، وراح يتأهب للمعركة؛ وهو يجعل منقاره المعقوف يصطك من السرور، بغية أن يقول من وراء ذلك أنه يتكفل، وحده، بالتهام الجزء الخلفي من التنين. ها هما يرسمان دوائر تتناقص تراكزيتها، متجسسين على أساليبهما المتبادلة، قبل

أن يقاتلا؛ وحسناً يفعلان. التنين يبدو لي أقوى؛ أود أن يحرز الانتصار على النسر. سأشعر بانفعالات كبيرة، لهذا المشهد الذي رهنت فيه جزءاً من كياني.
أيها التنين الجبار، سأحمسك بصياحاتي، إذا اقتضى الأمر، لأنه من صالح النسر أن يكون مغلوباً. ماذا ينتظران كي يهاجما بعضهما؟ أعصابي ثائرة بشكل مميت.
لِنرَ، أيها التنين، إبدأ، أنت، الأول، الهجوم. لقد أذقته لتوّك ضربة مخلب جافة: هذا ليس رديئاً جداً. اؤكد لك ان النسر أحسّ بها؛ الريح تحمل جمال ريشه الملطّخ بالدم. أواه! النسر يقتلع لك عيناً بمنقاره، وأنت لم تقتلع له سوى الجلد؛ كان يجب أن تنتبه لهذا الأمر، عافاك، خذ بثأرك، وأكسر له جناحاً؛ اسنانك النمرية طيبة جداً، لا خلاف في ذلك. لو أن في امكانك أن تقترب من النسر، بينما يدوِّم في الفضاء، منقذفاً نحو الأسفل باتجاه الريف. إني ألاحظ، ان هذا النسر يوحي لك بالتحفظ، حتى حين يسقط. إنه على الأرض، انه لن يتمكن من النهوض، ان منظر كل هذه الجراح الفاغرة يسكرني. طِرْ على مستوى الأرض حوله، وبضربات ذيلك الأفعواني المثلوم، أجهز عليه، إذا استطعت.
تشجع أيها التنين الجميل؛ اغرز له مخالبك القوية، وليمتزج الدم بالدم، لتشكيل سواقي لا يكون فيها ماء. هذا سهل على القول، وليس على الفعل.
النسر دبّر لتوه خطة احترابية دفاعية جديدة، تسبّبت بها الحظوظ المعاكسة لهذا الصراع المشهود؛ إنه حصيف. لقد جلس بصلابة، في وضعية راسخة، على الجناح الباقي، على فخذيه، وعلى ذيله، الذي كان يستخدمه من قبل بمثابة دفة.
إنه يتحدى جهوداً خارقة أكثر من تلك التي واجهوه بها حتى الآن. أحياناً، يدور بنفس سرعة النمر، ولا يبدو عليه أنه يتعب؛ وأحياناً يرقد على ظهره، وقائمتاه القويتان في الهواء، وبرباطة جأش ينظر بسخرية إلى خصمه. يجب علي، في نهاية الحساب، أن أعرف من سيكون الغالب؛ المعركة لا يمكن أن تتأبد. أفكر بالعواقب التي ستنتج عنها! النسر رهيب، ويقوم بوثبات ضخمة تهز الأرض، كما لو كان سيُقلع في طيرانه؛ مع أنه يعلم أن هذا مستحيل عليه. التنين لا يثق به؛ انه يعتقد ان النسر سيهجم عليه في أي لحظة من الجهة التي تنقصه فيها العين... يا لي من شقي! هذا ما يحصل. كيف ترك التنين نفسه يُؤخذ من الصدر؟ له أن يستعمل الدهاء والقوة ما طاب له، فاني أدرك ان النسر، الملتصق به بكل أعضائه، كعَلَقة، يغرز منقاره أكثر فأكثر، رغم الجراح التي يتكبدها، حتى جذور العنق، في بطن التنين. إننا لا نرى له سوى الجسد. إنه يبدو مرتاحاً؛ انه لا يتعجل الخروج من هذا البطن، الذي يبحث فيه دون شك عن

شيء ما، بينما يرسل التنين، ذو رأس النمر، خوارات توقظ الغابات. هوذا النسر يخرج من هذه المغارة. أيها النسر كم أنت شنيع! إنك أكثر احمراراً من بركة دم! ومع أنك تمسك في منقارك العصبي قلباً نابضاً، فانك مغطى بالجراح لدرجة أنك تستطيع بالكد أن تتماسك على قائمتيك المريَّشتين؛ وأنك تترنح، دون أن ترخي منقارك، قرب التنين الذي يموت في احتضارات مريعة. الانتصار كان صعباً؛ ما هم، لقد احرزته: يجب على الأقل، ان نقول الحقيقة... انك تتصرف وفقاً لقوانين العقل، وأنت تتجرد من شكل النسر، فيما أنت تبتعد عن جثة التنين. هكذا اذن، يا مالدورور، كنت غلّاباً! هكذا اذن، يا مالدورور، غلبت «الأمل»! من الآن فصاعداً سيتغذى اليأس من أصفى جوهر فيك! من الآن فصاعداً، تدخل، بخطى متعمدة في مهنة الشر! رغم اني، كما يُقال، سئم من العذاب، فان الضربة الأخيرة التي وجهتها إلى التنين لم تتأخر في أن تجعل نفسها محسوسة في داخلي. أحكم بنفسك إذا كنت اتعذب! لكنك تخيفني، انظروا، انظروا، في البعيد، هذا الرجل الذي يهرب. فوقه، أرض ممتازة، انبتت اللعنة ورق شجرها الكثيف؛ انه ملعون، وهو يلعن، إلى أين تحمل نعليك؟ إلى أين تمضي، حائراً، كمروبص، فوق سطح؟ فليتحقق مصيرك المنحرف! مالدورور، وداعاً! وداعاً، حتى الأبدية، حيث لن نتلاقى معاً!

- ٤ -

كان يوم ربيع. كانت العصافير تسكب أناشيدها في زقزقات، وكان البشر محُالين إلى واجباتهم المختلفة، يستحمّون في قداسة التعب. كان كل شيء يشتغل في مصيره: الأشجار، الكواكب المتحيّرة، كلاب البحر. الكل، ما عدا الخالق! كان ممدداً على الطريق، وثيابه ممزقة. شفته السفلى كانت تتدلى كمرسة منوِّمة؛ اسنانه لم تكن مغسولة، والغبار كان يمتزج بموجات شعره الشقراء. كان جسده، مسترخياً في غفوة ثقيلة، مسحوقاً فوق الحصى، يبذل جهوداً لا مجدية كي ينهض. كانت قواه قد هجرته، وكان مسجىً، هنا، ضعيفاً كدودة الأرض، عديم الحس كالقشرة. كانت أمواج من النبيذ تملأ الأثلام، التي حفرتها الرجفات العصبية لاكتافه. كانت البلاهة، ذات قنطيسة الخنزير، تغطيه بأجنحتها الواقية، وترسل له نظرة وله. ساقاه المرتخيتا العضلات، كانتا تكنسان الأرض، كصاريتين ضريرتين. كان الدم يسيل من منخاريه: في سقوطه، وجهه اصطدم بعمود... كان ثملاً! ثملاً بشكل رهيب! ثملاً كبقة

مضغت طوال الليل ثلاثة براميل من الدم! كان يملأ الصدى بكلام متنافر، سأتجنب ترديده هنا؛ إذا كان السكير الأعلى لا يحترم نفسه، أنا، يجب علي أن احترم البشر. هل كنتم تعلمون أن الخالق... كان يسكر! رحمة بهذه الشفة، المدنّسة في كؤوس العربدة! كان القنفذ يمر، غرز أسنانه في ظهره، وقال: «هذه لك. الشمس هي في منتصف جولتها: اشتغل ايها التنبل، ولا تأكل خبز الآخرين. انتظر قليلاً، وسوف ترى، إذا كنت استدعي الببغاء، ذات المنقار المعقوف.» النقّار الأخضر والبومة الصمعاء، اللذان كان يمران، غرزا منقارهما بكامله في بطنه، وقالا: «هذه، لك. ماذا جئت تعمل على هذه الأرض؟ هل من أجل أن تقدم هذه المهزلة المفجعة للحيوانات؟ لكن لا الخُلد الأوروبي، ولا نعامة اوستراليا، ولا النحّام ستقلّدك، أقسم لك بذلك.» الحمار، الذي كان يمر، ركله رفسة على صدغه، وقال: «هذه، لك. ماذا صنعت لك حتى أعطيتني آذاناً طويلة إلى هذا الحد؟ لا يوجد أحد حتى ولا الجـدُجُد إلا ويحتقرني». الضفدع، الذي كان يمر، قذف رشقة لُعاب على جبينه، وقال: «هذه لك. لو أنك لم تصنع لي العين ضخمة إلى هذه الدرجة، ولمحتك في الحالة التي أراك فيها، لكنت خبأت بعفة جمال أعضائك تحت مطر من أزهار الحَوذان، وأذن الفأر والكاميلية، كي لا يراها أحد.» الأسد، الذي كان يمر، حنى وجهه الملكي، وقال: «إني، فيما يختص بي، احترمه، مع أن سناءه يبدو لنا في الوقت الحاضر مكسوفاً. أنتم الآخرون الذين تصطنعون الكبرياء، ولستم إلا جبناء، بما أنكم هاجمتموه حين كان نائماً، هل ستكونون مسرورين، إذا وُضعتم محله، وكان عليكم أن تتحملوا من قِبَل المارة، الاهانات التي لم توفّروها عليه؟» الرجل، الذي كان يمر، توقف أمام الخالق المجهول القدر؛ ووسط تصفيقات قمل العانة والأفعى، راث، خلال ثلاثة أيام، على وجهه المهيب! ويل للرجل، بسبب هذه الاهانة؛ لأنه لم يحترم العدو، الممدَّد وسط مزيج من الوحل، من الدم ومن النبيذ؛ دون دفاع وفاقد الوعي تقريباً!... عندئذ نهض الله السنيّ قدر المستطاع مترنحاً، وقد ايقظته أخيراً، كل هذه الاهانات الدنيئة؛ ذهب ليقعد على حجر، وذراعاه متدليتان، كخصيتيّ المصدور؛ وألقى نظرة كابية، لا ألق فيها، على كل الطبيعة، التي هي ملكه. أيه أيها الآدميون، انكم الأولاد الرهيبون؛ لكن أرجوكم، فلنراعِ هذا الوجود الكبير، الذي لم ينتهِ من النوم بعد احتساء المشروب الروحيُ الدنس، والذي، غير محتفظٍ بما يكفي من القوة ليستمر واقفاً، سقط من جديد، بثقل، على هذه الصخرة، التي جلس عليها، كمسافر. انتبهوا

لهذا الشحاذ الذي يمر؛ لقد رأى أن الدرويش يمد ذراعاً جائعة، ودون أن يعرف على من يتصدق، رمى قطعة خبز في هذه اليد التي تطلب الرحمة. الخالق أبدى له عن عرفانه بالجميل بهزة رأس. أواه! انكم لن تعلموا قط كم الامساك دائمًا بأعنّة الكون يصبح أمراً صعباً! ان الدم يصعد أحياناً إلى الرأس، عندما نداب على أن نسحب من العدم نجمًا مذنّباً أخيراً، بجنس جديد من العقول. الذكاء، المقلوب رأساً على عقب، ينسحب، كمهزوم، ويستطيع أن يسقط، مرة خلال الحياة، في الضلالات التي كنتم شهوداً عليها!

- ٥ -

فانوس أحمر، بيرق الرذيلة، معلّق على طرف قضيب معدني، كان يؤرجح هيكله العظمي على سوط الرياح الأربع، فوق باب ضخم ومنخور. ممر قذر، تنبعث منه رائحة الفخذ البشري، كان يُطل على ساحة، كانت تبحث فيها عن طعامها ديوك ودجاجات، أكثر هزالاً من أجنحتها. على السور الذي يشكل نطاقاً للساحة، والواقع في الجهة الغربية، كانت مشقوقة بتقتير، عدة فتحات، مغلقة بشباك تذاكر محاط بحاجز. الطحلب كان يغطي هذا القسم الرئيسي من المنزل، الذي كان، دون شك، ديراً ويُستخدم، حالياً، مع باقي المبنى، بمثابة مقر لكل هؤلاء النسوة اللواتي كن يعـرضن كل يوم، لأولئك الذين كانوا يدخلون، باطن مهبلهن، مقابل قليل من الذهب. كنت فوق جسر، تغوص ركائزه في ماء خندق نطاق موحلة. عن سطحه المرتفع، كنت أتأمل في الريف هذا البناء المنحني فوق قِدَمه وأبسط تفاصيل هندسته المعمارية الداخلية. أحياناً، كان حاجز شباك تذاكر يرتفع على نفسه وهو يصرّ، كما بتحريك متصاعد ليدٍ تغصب طبيعة الحديد: كان رجل يُبرز رأسه في الفتحة نصف المنفرجة، يُقدم اكتافه، التي كان يتساقط عليها الجصّ المقشور، يُتبع، في هذا القَلع الشاق، جسده المغطى بخيوط عناكب. لقد كان، واضعاً يديه، كتاج، على قذارات الشارع المتنوعة التي كانت تضغط على الأرض بثقلها، فيما كانت ساقه لا تزال عالقة بعقفات الحاجز، يستعيد هكذا وضعة جسمه الطبيعية، يذهب ليبلل يديه في دلو متهافت، كانت ماؤه المغطاة بزبد الصابون قد رأت أجيالاً بكاملها ترتفع وتسقط، ويبتعد بعد ذلك بأسرع ما يمكن، عن هذه الأزقة الضاحوية، ليذهب يتنشق الهواء النقي صوب وسط المدينة. عندما يكون الزبون قد خرج، كانت امرأة عارية تماماً تطفر إلى الخارج، بنفس الطريقة، وتتوجّه نحو نفس الدلو.

عندئذ كان الديوك والدجاجات يتراكضون جماعات من مختلف انحاء الساحة، وقد اجتذبتهم الرائحة المنوية، يقلبونها على الأرض، رغم جهودها الجبّارة، يعرقصون سطح جسدها كالزبل ويشرمون، بضربات المنقار، إلى أن يخرج منها الدم، شفاه مهبلها المنتفخ اللدنة. الدجاجات والديوك، بحلقومهم الشبعان، كانوا يعودون إلى كشط عشب الساحة؛ المرأة، وقد أصبحت نظيفة، كانت تنهض، مرتجفة، مغطاة بالجراح، كما عندما نستيقظ من كابوس. كانت تترك المسحة، التي جلبتها لتمسح بها ساقيها، تسقط؛ وبما أنها لم تعد بحاجة إلى الدلو المشترك، فانها كانت ترجع إلى وِجارها، كما خرجت منه، لتنتظر ممارسة أخرى. لدى هذا المشهد، أنا، أيضاً، أردت أن أدخل هذا البيت. كنت أهمّ بنزول الجسر، عندما رأيت، على خرجة سطح دعامة، هذا الكلام المنقوش، بأحرف عبرية: «انت، الذي تمر على هذا الجسر، لا تذهب إلى هناك. الجريمة تقيم هناك مع الرذيلة؛ ذات يوم، عَبَرَ الباب المشؤوم شاب، انتظره رفاقه عبثاً.» الفضول تغلّب على الخوف؛ في غضون بضع لحظات، وصلت أمام شباك تذاكر، يملك حاجزه قضباناً صلبة، تتشابك بدقة. أردت أن انظر إلى الداخل، عبر هذا المنخل الكثيف. بادىء الأمر، لم أتمكن من رؤية شيء؛ لكني لم اعتم أن تبيّنت الأشياء الموجودة في الغرفة المعتمة، بفضل أشعة الشمس التي كانت تخفِّف نورها، وتوشك أن تختفي قريباً على الأفق. الشيء الأول والأوحد الذي لفت نظري كان قضيباً اشقر، مؤلفاً من أبواق صغيرة، ينغرز الواحد في الآخر. هذا القضيب كان يتحرك! كان يمشي في الغرفة! هزّاته كانت قوية لدرجة أن أرضية البيت كانت تترنح؛ وكان يحدث، بطرفيه، ثغرات ضخمة في السور ويبدو كبشاً يقلقلون به باب مدينة محاصَرة. جهوده كانت لا مجدية؛ الحيطان كانت مشيَّدة بالحجارة المقصوبة، وعندما كان يصدم الجدار، كنت أراه ينحني من جديد على شكلِ شفرة من فولاذ ويثب ثانية كطابة من المطاط. هذا القضيب لم يكن اذن مصنوعاً من الخشب! لاحظت، بعد ذلك، انه كان يتدحرج وينبسط بسهولة كحيّة. ومع أنه عالٍ كرجل، فانه لم يكن يقف مستقيًا. أحياناً، كان يحاول ذلك، ويُظهر أحد طرفيه أمام حاجز شباك التذاكر. كان يقوم بوثبات عاتية، يقع من جديد على الأرض، ويعجز عن تحطيم العائق. أخذت انظر إليه بانتباه أكثر فأكثر ورأيت أنه كان شعرة! بعد صراع كبير، مع المادة التي تحيط بها كسجن، ذهبت تستند على السرير الذي كان موجوداً في تلك الغرفة، جذرها مرتاح على سجادة ورأسها متكىء على الوسادة. بعد بضع لحظات من الصمت،

سمعتُ خلالها انتحابات متقطعة، رفعت صوتها، وتكلمتْ هكذا: «سيدي نسيني في هذه الغرفة، انه لا يأتي ليبحث عني. لقد نهض من هذا السرير، الذي استند إليه، مشط شعره المعطر ولم يفطن إلى أني سقطت آنفاً على الأرض. في حين أنه لو التقطني، لما وجدت فِعل العدالة البسيط هذا مثيراً للدهشة. إنه يتركني في هذه الغرفة المنحبسة، بعد أن تلفلف بذراعيّ امرأة. وأي امرأة! الشراشف لا تزال رطبة من اتصالها الخامد وتحمل في فوضاها، دمغة ليلة أُمضيت في الحب. . .» وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيني تلتصق من جديد بالحاجز بنشاط أكبر. . . «فيما كانت الطبيعة بكاملها تهجع في عفتها، هو، تعاظل مع امرأة منحطة، في عناقات شهوانية ودنسة. لقد انحدر إلى درك ان يترك وجنات جديرة بالاحتقار بسفاهتها المعهودة، ذابلة في نسغها، تقترب من وجهه المهيب. لم يكن يحمرّ، لكن، أنا، كنت أحمرّ عنه. لا شك أنه كان يحس بنفسه سعيداً بمضاجعة هكذا زوجة ليلة. يبدو أن المرأة كانت، مدهوشة بهيئة هذا الضيف الملكية، تحس بشهوات حسية لا تُضاهى، تُقبّل له عنقه بهيجان». وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيني تلتصق من جديد بالحاجز بنشاط أكبر! . . . «أنا، خلال هذا الوقت، كنت أحس ببثور مسمَمَة تنمو أكثر عدداً، بفعل حماسه اللامعهود لملذات اللحم، تحيط جذري بمراراتها القاتلة، تمتص، بمحاجمها، المادة المولِّدة لحياتي. كلما كانا ينسيان نفسهما، في حركاتهما الخرقاء، كلما كنت أشعر بقواي تتناقص. في اللحظة التي وصلت فيها الشهوات الجسدية إلى ذروة الهيجان، أدركت أن جذري ينهار على نفسه، كجندي مجروح برصاصة. مشعل الحياة وقد انطفأ فيّ، انسلخت عن رأسه الشهير، كغصن ميت؛ سقطت على الأض، دون شجاعة، دون قوة، دون حيوية؛ إنما بشفقة نحو ذاك الذي كنت انتمي إليه؛ إنما بألم أبدي لغوايته الطوعية! . . .» وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيني تلتصق من جديد بالحاجز بنشاط أكبر! . . . «لو انه على الأقل، أحاط روحه بنهد عذراء بريء. لكانت تكون أكثر جدارة به والحطة كانت لتكون أصغر. إنه يُقبّل، بشفاهه، هذا الجبين المغطى بالوحل، الذي مشى عليه الرجال بكعب حذائهم المليء بالغبار! . . . انه يتنشق، بمنخارين متهتكين، فوح روائح هذين الابطين الجافين! . . . رأيت غشاء الأخيرين يتقلص خجلاً، بينما، من جهتهما، كان منخاراه يتأبيان على هذا التنفس الدنيء. لكن لا هو، ولا هي، كانا يُعيران أي انتباه لانذارات الابطين الاحتفالية، لنفور المنخرين المقطب والممتقع. كانت ترفع

ذراعيها مزيداً، وهو، باندفاعة أقوى، كان يغرز وجهه في تجويفهما. كنت مضطرة أن أكون ضالعة في هذا التدنيس. كنت مضطرة أن أكون الشاهدة على هذا التوارك الخارق؛ أن أحضر الاختلاط المغتَصب بين هذين الكائنين، اللذين كانت هوة شاسعة تفصل بين طبيعتيهما المختلفتين. . . » وكنت أتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيني تلتصق من جديد بالحاجز بنشاط أكبر. . . «عندما شبع من تنشق هذه المرأة، أراد أن يقتلع لها عضلاتها واحدة واحدة؛ ولكن بما أنها امرأة، سامحها، وفضّل أن يعذب كائناً من جنسه. استدعى، من الخلية المجاروة، شاباً كان قد جاء إلى هذا البيت لتمضية بضع دقائق من الاستهتار مع إحدى هاته النساء، وأمره أن يأتي ويأخذ مكانه على بُعد خطوة من عينيه. كنت منذ مدة طويلة منطرحة على الأرض. وبما اني لم أكن أملك القوة للنهوض على جذري الملتهب، لم أتمكن من رؤية ما فعلاه. ما أعرفه، هو أنه لم يكد الشاب يصبح في متناول يده، حتى تساقطت مِزَق من اللحم عند أقدام السرير وجاءت لتأخذ مكانها إلى جانبي. لقد أخبرتني بصوت جد خافت أن براثن سيدي اقتلعتها عن أكتاف المراهق. هذا الأخير، بعد بضع ساعات، صارع خلالها ضد قوة أكبر، نهض عن السرير وانسحب بجلال. لقد كان مسلوخاً تماماً من أخمص قدميه حتى رأسه؛ كان يجرجر عبر بلاطات الحجرة، جلده المقلوب. كان يقول في نفسه أن طبعه زاخر بالطيبة؛ إنه يحب أن يظن أشباهه طيّبين أيضاً؛ انه لهذا السبب رضخ لرغبة الغريب المتميّز الذي استدعاه إلى قربه؛ انما أبداً على الاطلاق، لم يكن له أن يتوقع أن يتعرّض للتعذيب من قِبَل جلّاد. من قِبَل جلّاد من هذا النوع، أضاف، بعد صمت. أخيراً، توجّه نحو شباك التذاكر، الذي تفطر شفقة حتى مستوى الأرض، في حضرة هذا الجسد المجرّد من البَشَرة. لقد حاول، دون أن يهجر جلده، الذي كان بمقدوره بعد أن يفيده، على الأقل كمعطف، الاختفاء من هذه المهَلكة؛ بمجرد أن ابتعد عن الحجرة، لم يعد بوسعي أن أرى فيما إذا كان قد استملك القوة لبلوغ باب الخروج. أوّاه! كيف كانت الدجاجات والديوك تبتعد باحترام، رغم جوعها، عن هذا النثار الطويل من الدم، على الأرض المبلّلة!» وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيناي تلتصقان من جديد بالحاجز بنشاط أكبر! . . . ذاك الذي كان من المفترض أن يفكر أكثر من ذلك بكرامته وعدالته، نهض عندئذ بمشقة على مرفقه المتعب، وحيداً، مغتمّاً، متقززاً، وقبيحاً! . . . ارتدى ثيابه ببطء. الراهبات المدفونات منذ دهور في سراديب هذا الدير، بعد أن استيقظن مذعورات على أصوات هذا

الليل المرعب، التي كانت تتصادم فيما بينها في خِلية واقعة فوق السراديب، اخذن يد بعضهن، وجثن لتشكيل دائرة جنائزية حوله. فيما كان يبحث عن أنقاض فخامته القديمة؛ فيما كان يغسل يديه بالبصاق ماسحاً إياهما بعد ذلك على شعره (من الأفضل غسلهما بالبصاق، من أن لا يغسلهما بالمرة، بعد مدة ليلة كاملة أمضاها في الرذيلة والاجرام)، بدأن بترتيل صلوات الموتى الشاكية، عندما نزل أحد ما إلى القبر. بالفعل، لم يكن مقدّراً للشاب أن يعيش بعد هذا العذاب، الذي مارسته عليه يد إلهية، واحتضاراته انتهت أثناء ترتيل الراهبات...» تذكرت الكلام المنقوش على الدعامة؛ فهمت ما صار إليه الحالم المراهق الذي لا يزال اصدقاؤه ينتظرونه كل يوم منذ لحظة اختفائه... وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيناي تلتصقان من جديد بالحاجز بنشاط أكبر!...
«الأسوار تباعدت كي تتركه يمر؛ الراهبات، وقد رأينه يحلّق، في الأجواء، بجناحين كان قد اخفاهما حتى الآن في ردائه الزمردي، اخذن أماكنهن من جديد بصمت تحت غطاء القبر. لقد ذهب إلى مقره السماوي، تاركاً إياي هنا؛ هذا ليس عادلاً. الشعرات الأخرى بقيت على رأسه؛ وأنا، انطرح، في هذه الحجرة المُغِمّة، على الأرضية المغطاة بالدم المتخثر، بمِزَق اللحم الجاف؛ هذه الحجرة أصبحت لعينة، منذ أن اندسّ فيها، لا أحد يدخلها؛ ومع ذلك، أنا محتجزة فيها. اذن قُضي الأمر! لن أرى بعد جوقات الملائكة تتمشى في كتائب كثيفة، ولا الكواكب تتنزه في حدائق الانسجام. حسناً فليكن... سأعرف كيف اتحمل شقائي باذعان. لكني لن اتوانى عن إعلام البشر بما جرى في هذه الخلية. سأعطيهم الاذن بأن يطرحوا كرامتهم، كثوب لا نفع له، بما انهم يملكون قدوة سيدي؛ سأنصحهم بامتصاص قضيب الجريمة، بما ان «شخصاً آخر» سبق وله وفعل ذلك...» الشعرة سكتت... وكنت اتساءل من عساه يكون سيدها! وكانت عيناي تلتصقان من جديد بالحاجز بنشاط أكبر!... في الحال انفجر الرعد؛ وميض فوسفوري اقتحم الحجرة. تقهقهرت، غصباً عني، بموجب لا أدري اية غريزة تنبيه؛ مع اني كنت بعيداً عن شباك التذاكر، سمعت صوتاً آخر، انما، هذا زاحف وهادىء، مخافة أن يجعلهم يسمعونه: «لا تقومي بوثبات مماثلة! اسكتي... اسكتي... ماذا-لو سمعكِ أحد! سأضعك من جديد بين الشعرات الأخرى؛ لكن اتركي أولاً الشمس تغيب على الأفق، كيما يغمر الليل خطاكِ... اني ما نسيتك؛ لكن، كانوا ليرونكِ تخرجين، وكنت لأصبح مشبوهاً! آه! لو تعلمين كم تألمت منذ تلك اللحظة. حال عودتي إلى السماء،

أحاط بي رؤساء ملائكتي بفضول؛ لم يشاؤوا أن يسألوني عن علة غيابي. هم، الذين لم يجرؤوا قط أن يرفعوا بصرهم نحوي، كانوا يلقون، جاهدين ليحزروا اللغز، نظرات مرتاعة على وجهي الأسيان، مع انهم لم يدركوا كُنه السر الخفي، وكانوا يتبادلون بصوت جد خافت أفكاراً تخشى ثمة تغيراً غير معهود فيّ. كانوا يبكون دموعاً صامتة؛ كانوا يشعرون بشكل غامض اني لم أعد نفس الشخص، وقد صرت أدنى من هويتي. كانوا يودّون أن يعرفوا أي قرار مشؤوم جعلني أعبر حدود السماء، لأجيء وأحطّ على الأرض، واتذوق شهوات حسية زائلة، كانوا هم يحتقرونها بعمق. لاحظوا على جبيني نقطة مَذيّ، نقطة دم. الأولى انبجست من بين فخذيّ العاهرة! الثانية انقذفت من أوردة الشهيد! ندبات كريهة! نجميات راسخة! رؤساء ملائكتي، عثروا على البقايا الملتهبة لجلبابي اللبَني اللون، معلّقة في أدغال الفضاء، تطفو فوق الشعوب المتثائبة. لم يتمكنوا من إعادة بناء هذا الجلباب، وجسدي يبقى عارياً أمام براءتهم؛ قصاص مشهود للفضيلة المهجورة. انظري الأثلام التي حفرت لنفسها سريراً على وجناتي الشاحبة: انها نقطة المَذيّ ونقطة الدم، ترشحان ببطء على طول تجاعيدي الجافة. حين تصلان إلى الشفة العليا، تبذلان مجهوداً جباراً، وتتسللان إلى محراب فمي، وقد اجتذبهما حلقي الذي لا يُقاوَم، كمغناطيس. انهما تخنقاني، هاتان النقطتان العنيدتان. أنا، حتى الآن، ظننتني العلي - القدير؛ لكن، لا، يجب أن أحني الرقبة أمام الندم الذي يهتف بي: «لست سوى بائس!» لا تقومي بوثبات مماثلة! اسكتي... اسكتي... ماذا لو سمعكِ أحد! سأضعك من جديد بين الشعرات الأخرى؛ لكن أتركي أولاً الشمس تغيب على الأفق، كيما يغمر الليل خطاكِ... رأيت ابليس، العدو الأكبر، يُصلح التشابكات العظمية للبنية، فوق خَبَله اليرقاني، ويَعِظ، فِرَقه المتجمعة، واقفاً، منتصراً، سامياً؛ يستهزىء بي، بما استحقه. قال إنه يتعجب كثيراً كيف أن خصمه المتعجرف، المضبوط أخيراً في الجرم المشهود، بفضل النجاح الذي حققه أخيراً تجسس سرمدي، استطاع ان ينحدر إلى درك تقبيل ثوب الفسق البشري، بواسطة رحلة طويلة عبر حشفات الأثير، ويجعل أحد أعضاء الانسانية يهلك في الآلام. لقد قال إن هذا الشاب، المسحوق في دوّامة تعذيباتي المتفننة، كان يمكن أن يصبح ذكاءً عبقرياً؛ ان يعزي البشر، على هذه الأرض، بأناشيد مدهشة من الشعر، من الشجاعة، ضد ضربات الحظ العاثر. لقد قال إن راهبات الدير - الماخور ما عدن استرجعن رقادهن؛ يتسكعن في الساحة، مومئات كالمسوقات، ساحقات

بقدمهن أزهار الحوذان والليلك؛ وقد صرن مجنونات من الغيظ، لكن ليس بما يكفي كي لا يتذكرن السبب الذي ولّد هذا المرض، في دماغهن. . . (ها هن يتقدمن، متسربلات بكفنهن الأبيض؛ انهن لا يكلمن بعضهن؛ انهن يمسكن بأيدي بعضهن. شعرهن يسقط بفوضى على اكتافهن العارية؛ باقة ورود سوداء تنحني على نهدهن. أيتها الراهبات ارجعن إلى سراديبكن؛ الليل لم يحلّ بعد كلية؛ هذا ليس سوى غسق المساء. . . ايه أيتها الشعرة، انك ترين بنفسكِ، اني، من كل الجهات، مُهاجَم بالشعور الجامح بانحلالي الخلقي!) لقد قال إن الخالق، الذي يتبجح بأنه العناية الالهية لكل ما هو موجود، تصرَّف بكثير من الخفة، كي لا نقول أكثر، حين قدَّم للعوالم المرصَّعة بالنجوم مشهداً من هذا القبيل؛ لأنه أكد بوضوح على النية التي كان يضمرها في ان يذهب لينقل إلى الكواكب المتحيِّرة الكروية كيف أحافظ، بقدوتي ذاتها، على الفضيلة والطيبة في رحابة ممالكي. لقد قال إن التقدير الكبير، الذي كان يكنّه لعدو نبيل إلى هذا الحد، قد تبخر من مخيلته، وانه كان يفضّل أن يمد يده إلى نهد فتاة، مع أن هذا هو فعل أذية ممقوت، على أن يبصق على وجهي، المغطى، بثلاث طبقات من الدم والمذيّ الممتزجة، كي لا يوسِّخ بصاقه اللاعب. لقد قال إنه يعتبر نفسه، عن حق، متفوِّقاً علي، ليس بالرذيلة، بل بالفضيلة والحشمة؛ ليس بالاجرام، بل بالعدالة. لقد قال إنه كان يجب ربطي بشجرة صفصاف، بسبب اخطائي التي لا تُعد؛ حرقي على مهل في نار جمر متأججة، بغية رميي بعد ذلك في البحر، إذا كان البحر يرضى أن يستقبلني. وأنه بما اني اتبجج بعدالتي، أنا، الذي حكمت عليه بالعقوبات المؤبدة بسبب ثورة طفيفة لم يترتب عليها عواقب وخيمة، فانه يجب عليّ أن أدين نفسي بقساوة، وأحكم دون تحيّز على ضميري، المثقل بالآثام. . . لا تقومي بوثبات مماثلة! اسكتي. . . اسكتي. . . ماذا لو سمعكِ أحد! سأضعكِ من جديد بين الشعرات الأخرى؛ لكن أتركي أولاً الشمس تغيب على الأفق، كيما يغمر الليل خطاكِ». لقد توقّف لحظة؛ مع اني لم أره قط، فهمت، من مدة التوقف الضرورية هذه، ان تموج الانفعال يرفع له صدره، كما يرفع إعصار حلزوني دوراني عائلة من الحيتان. أيها الصدر الالهي، المدنس، ذات يوم، بالملامسة المريرة لاثداء امرأة بلا حياء! أيها الروح الملكية، المستسلمة، في لحظة نسيان، لسلطعون الفجور، لأخطبوط ضعف الطباع، لكوسج علم الأخلاق الغائب، ولحلزون البلاهة المسيخ! الشعرة وسيدها تعانقا بحرارة، كصديقين يشاهدان بعضهما من جديد بعد غياب طويل. الخالق تابع،

كمتهم يظهر من جديد أمام محكمته الخاصة: «وماذا سيظن بي البشر، الذين يحتفظون عني بفكرة عالية جداً، عندما سيأخذون علمًا بضلالات سلوكي، المسيرة الحائرة لنعلي، في المتاهات الموحلة للمادة، واتجاه طريقي المظلمة عبر المياه الآسنة وأعشاب الأسل الرطبة للمستنقع، حيث تـزرّق وتجأر، مغمـورة بالضبابات، الجريمة، ذات القائمة المعتمة!. . . اني ادرك انه يجب علي العمل كثيراً على رد اعتباري في المستقبل، كيما أفوز بتقديرهم من جديد. اني الكل - الأعظم؛ ومع ذلك، فاني، في ناحية من النواحي، أظل في مرتبة أدنى من البشر، الذين خلقتهم بقليل من الرمل! اخبريهم كذبة جريئة، وقولي لهم اني لم أخرج قط من السماء، لأني محتجز باستمرار في هموم العرش، وسط رخامات، تماثيل وفسيفساءات قصري. لقد مَثُلْت أمام ابناء الانسانية السماويين؛ قلت لهم: «اطردوا الشر من اكواخكم واتركوا معطف الخير يدخل إلى البيت. إن ذاك الذي سيمدّ يده على أحد أشباهه، بان يصيبه في صدره بجرح مميت، بالحديد القاتل، دعه لا يؤمل قط بنتائج رحمتي، وليخشَ موازين العدالة. سيذهب ليخفي حزنه في الغابات؛ لكن حفيف الأوراق، عبر المضاءات، سيغني لأذنيه موشّح الندم؛ وسيهرب من هذه الانحاء، وقد وخزه في وركه الدغل، الجنبة الحرجية، والشوك الأزرق، وتشابكت أقدامه السريعة بفعل لدانة العارشات ولدغات العقارب. سيتوجه نحو حصى الشاطىء الملساء؛ لكن المد الصاعد، برذاذاته واقترابه الخَطِر، سيخبره بانه لا يجهل ماضيه؛ سيدفع ركضه الأعمى نحو رأس الشاطىء الصخري، بينما رياح اعتدال الخريف الصارفة، وهي تغوص في مغاور الخليج الطبيعية والدروب المشقوقة تحت أسوار الصخور الداوية، ستخور كقطعان ضخمة من جواميس السهول المعشوشبة. إن منارات الشاطىء ستلاحقه حتى حدود الـدب الأصغر، بـانعكاسـاتها التهكميـة، والوهجات المستنقعية للسبخات الساحلية، وهي مجرد أبخرة في حالة الاحتراق، ستجعل، في رقصاتها الخارقة، شعر مسام بدنه يقشعر، وقزحية عينيه تخضوضر. فلتنشرح الحشمة في أكواخكم، ولتكن في أمان في ظل حقولكم. هكذا سيصبح أبناؤكم حلوين، وينحنون أمام أهلهم بعرفان جميل؛ وإلا، فانهم سيتقدمون بخطى حثيثة، ضعافاً ضامرين كرقّ المكتبات، يقودهم التمرد، ضد نهار ولادتهم وبظر والدتهم النجس.» كيف سيرضى البشر باطاعة هذه القوانين الصارمة، إذا كان المشترع ذاته هو أول من يرفض الالتزام بها؟. . . وخجلي هو ضخم كالأبدية!» سمعت الشعرة وهي تغفر له، باتضاع، احتجازها، بما أن سيدها قد

تصرّف عن حذر وليس عن خِفة؛ وآخر شعاع شمس كان ينير جفوني انسحب من وهاد الجبل. حين استدرت نحوها، شاهدتها تنطوي كالكفن... لا تقومي بوثبات مماثلة! اسكتي... اسكتي... ماذا لو سمعكِ أحد! سيضعكِ من جديد بين شعراته الأخرى. والآن وقد غابت الشمس على الأفق، ازحف، ايها الشيخ الصلف، وأيتها الشعرة اللطيفة، انتما الاثنين، نحو بُعد الماخور، بينما الليل، وهو ينشر ظله على الدير، يغمر امتداد أقدامكما الخفية في السهل.. حينئذ قالت لي القملة، خارجة فجأة من خلف شِناخ، وهي تقنفذ مخالبها: «ما رأيك بهذا الأمر؟» لكني، أنا، لم أشأ أن أجاوبها. انسحبت، ووصلت إلى الجسر. محوت الكلام المنقوش في الأصل، واستبدلته بهذا: «انه لمن المؤلم الاحتفاظ، كخنجر، بهذا السر في قلبنا؛ لكني أقسم بأن لا أفشي أبداً ما كنت شاهداً عليه، عندما ولجت، لأول مرة، هذا البرج الرهيب.» رميتُ، من فوق الحاجز، السكين الذي استخدمته في حفر الأحرف، وفيما أنا أقوم ببعض التأملات السريعة حول طبع الخالق الطفل، الذي كان عليه بعد للأسف! خلال زمن طويل جداً، أن يعذّب الانسانية (الابدية طويلة)، اما بالقساوات الممارسة، اما بمنظر القرحات المقززة الذي تسبّبه رذيلة كبرى، أغلقت العينين، كرجل سكران، لفكرة أن يكون كائن من هذا النوع لي خصمًا، وتابعت، بحزن، طريقي، عبر متاهات الشوارع.

(نهاية النشيد الثالث)

النشيد الرابع

- ١ -

انه انسان أو حجر أو شجرة مَن سيبدأ النشيد الرابع. عندما تنزلق القدم فوق ضفدعة، فاننا نشعر بإحساس من القرف؛ لكن عندما نمسّ، بالكد، الجسد البشري، بيدنا، فان جلد أصابعنا يتصدع، كتشققات كتلة من البَلَق نحطمها بضربات المطرقة؛ وكما أن قلب سمكة قِرش، ماتت منذ ساعة، يخفق بعد تحت الجسر، بحيوية لازبة، هكذا احشاؤنا تنقلب رأساً على عقب، طويلاً بعد الملامسة. إلى هذه الدرجة يوحي الانسان بالكره لشبيهه بالذات! لعلني أخطيء، عندما أبدي هذا الرأي؛ لكن لعلني أقول الحقيقة. أعرف، اتصور مرضاً رهيباً أكثر من العيون المتوّرمة بفعل التأملات الطويلة حول طبع الانسان العجيب: لكني لا أزال أبحث عن هذا المرض... ولم أتمكن من العثور عليه! لا أظنني أذكى من غيري، ومع ذلك، من سيجرؤ على التأكيد بأني نجحت في تقصياتي؟ أية كذبة ستخرج من فمه! ان معبد دندرا القديم يقع على مسافة ساعة ونصف من ضفة النيل الشمالية. اليوم احتلت كتائب لا تُعد من الزنابير السواقي والأفاريز. إنها تحوِّم حول الأعمدة، كموجات شَعر أسود كثيفة. إنها، وهي السكان الوحيدون لهذا الرواق البارد، تحرس مدخل البهو، كحق وراثي. إني أقارن طنين أجنحتها المعدنية، بالصدمة المتوالية للثليجات المتطوحة فوق بعضها، أثناء تقصف جليد البحار القطبية. لكن، إذا تأملت سلوك ذاك الذي منحته العناية الالهية عرش الأرض، فان أطراف أجنحة ألمي الثلاثة تُسمع تمتمة أكبر! عندما يظهر نجم مذنّب فجأة، خلال الليل، في منطقة ما من السماء، بعد

ثمانين عاماً من الغياب، فانه يعرض على السكان الأرضيين وعلى الجداجد ذَنَبه المتوهج والبخاري. لا شك، انه لا يعي هذه الرحلة الطويلة؛ الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة لي: إني استغرق في احلام الشفقة واحمرّ عن الانسان، مستنداً بمرفقي على وسادة سريري، فيما ترتفع تخاريم أفق قاحل وكئيب بقوة في أعماق روحي! ان النوتي، وقد فلعته ريح الشمال شطرين، يسارع، بعد تأدية نوبة حراسته الليلية، إلى العودة إلى سريره المعلّق: لماذا هذه التعزية ليست ممنوحة لي؟ إن فكرة اني انحدرت طوعاً، إلى نفس درك أشباهي، وان لي الحق أقل من غيري بأن ألفظ الشكاوى، حول مصيرنا، الذي يبقى معلّقاً بالقشرة المتصلبة لكوكب متحيرّ، وحول جوهر روحنا المنحرفة، ان هذه الفكرة تتغلغل في كمسمار محرف حدادة. لقد شاهدنا انفجارات نار غاز المناجم تُبيد عائلات بكاملها؛ لكنها خبرت الاحتضار لفترة وجيزة، لأن الموت هو تقريباً مفاجىء، وسط الانقاض والغازات الوبيلة: أنا... أوجد دائماً مثل حجر البزلت! في وسط، كما في بداية الحياة، الملائكة يشبهون أنفسهم: ألم أكفّ منذ أمد بعيد عن أن أشبه ذاتي! والانسان وأنا، المنحبسان ضمن حدود ذكائنا، كما تنحبس غالباً بحيرة ضمن زنار من الجزر المرجانية، بدل أن نوحّد قوانا المتبادلة لندافع عن نفسنا ضد الصدفة والنحس، نتباعد، برجفة الحقد، سالكين طريقين متعارضتين، كما لو أننا كنا قد جرحنا بعضنا بحد الخنجر! لكأن أحدنا يفهم الاحتقار الذي يوحيه للآخر؛ اننا نبادر، مدفوعين بحافز كرامة نسبية، إلى عدم تضليل خصمنا؛ كل منا يبقى في جهته ولا يجهل أنه سيكون من المستحيل المحافظة على السلام المعلن عنه. حسناً، فليكن! فلتتأبد حربي ضد الانسان، بما أن كلاً منا يتعرّف في الآخر على انحطاطه الشخصي... بما أننا كلانا عدوّان لدودان. لئن تأتي لي أن أحرز انتصاراً مفجعاً أو أن أخسر، فان الصراع سيكون جميلاً: أنا، وحدي، ضد الانسانية. لن استخدم أسلحة مصنوعة من الخشب أو الحديد؛ سأدفع برجلي طبقات المعادن المستخرجة من الأرض: ان الجهورية الجبارة والملائكية للقيثارة ستصبح، تحت أناملي طلسماً سحرياً مخيفاً. في أكثر من كمين، منذ الآن خرق الانسان، ذلك القرد السامي، صدري برمحه السمّاقي: ان جندياً لا يعرض جراحه، مهما كانت مجيدة. إن هذه الحرب الرهيبة ستلقي الوجع في كلا الفريقين: صديقان يحاولان بعناد أن يدمرا بعضهما، يا لها من فاجعة!

- ٢ -

دعامتان لم يكن صعباً، كما انه لم يكن ممكناً اعتبارهما شجرتي حمّيرة، كانتا تُلمحان في الوادي، أكبر من دبوسين. لقد كانتا بالفعل برجين هائلين. ومع أن شجرتي حمّيرة لا تشبهان، للوهلة الأولى، دبوسين، ولا حتى برجين، فاننا نستطيع، مع ذلك، إذا استعملنا بمهارة خيوط الحصافة، أن نؤكد دون خوف من أن نكون مخطئين (لأن هذا التأكيد إذا كان مصحوباً بجزيء واحد من الخوف، لما عاد تأكيداً؛ مع أن نفس الاسم يعبّر عن ظاهرتي الروح هاتين، اللتين تتكشفان عن خاصيات متمايزة بما فيه الكفاية لكي لا تكون متمازجة بشكل طفيف) إن شجرة حمّيرة لا تختلف كثيراً عن دعامة، إن المقارنة محظورة بين هذين الشكلين المعماريين... أو الهندسيين... أو هذه الفرضية أو تلك... أو لا هذه ولا تلك... أو بالأحرى أشكال مرتفعة وضخمة. لقد اكتشفت لتوي، وليس في نيتي أن أقول العكس، النعوت الخاصة بالاسمين دعامة وشجرة حمُيرة: فليكن معلوماً للجميع إني أبدي، ليس دون فرح ممزوج بالخيلاء، الملاحظة حول هذا الموضوع لأولئك الذين اتخذوا، بعد أن رفعوا أهدابهم، القرار المحمود جداً في أن يقرأوا بسرعة هذه الصفحات فيما تحترق الشمعة، إذا كان الليل، فيما تضيء الشمس، إذا كان النهار. وأيضاً، حتى لو أن قدرة عليا أمرتنا، بأوضح وأدق العبارات، أن نطرح، في أعماق السديم، المقارنة الأريبة التي استطاع كل واحد دون شك أن يتذوقها بلا عقاب، حتى عندئذ، وخاصة عندئذٍ، يجب أن لا يغرب عن بالنا هذه المسلّمة الرئيسية، إن العادات المبرمة بفعل السنين، الكتب، الاحتكاك بأشباهنا، والطبع الملازم لكل واحد، الذي ينمو في ازدهار سريع، قد تفرض، على العقل البشري، ندبة تكرير الحكم المتعذر اصلاحها، فيما يختص بالاستعمال الاجرامي (اجرامي، إذا وضعنا انفسنا مؤقتاً وبصورة عفوية في وجهة نظر القدرة العليا) لمجاز في علم البيان يحتقره العديدون بينما يقرظه الكثيرون. إذا وجد القارىء هذه الجملة طويلة جداً، فليتقبّل اعتذاراتي؛ لكن يجب أن لا يتوقع من طرفي نذالات. استطيع أن اعترف بأخطائي، لا أن أفاقم من خطورتها بجبانتي. إن استدلالاتي سترتطم أحياناً بجلجلات الجنون والمظهر الرصين لذاك الأمر الذي ليس اجمالاً إلا مضحكاً (مع أنه يتعذر جداً، وفقاً لبعض الفلاسفة، التمييز بين المضحك والمحزن، بما أن الحياة ذاتها هي مأساة هزلية، أو مهزلة مأساوية) مع أنه مسموح لكل واحد أن يقتل ذباباً وحتى وحيدي قرن، كيما يرتاح من وقت إلى وقت من عمل عسير جداً. لقتل الذباب اليكم الطريقة الأسرع، مع أنها ليست الأفضل:

اننا نسحقه بين اصبعيٍ اليد الأولين. إن معظم الكتّاب الذين عالجوا هذا الموضوع بتعمق قد خمنوا، بكثير من الاحتمال، انه من الأفضل، في عدة حالات، أن نقطع له رأسه. إذا لامني أحد ما بأني اتحدث عن الدبابيس، كما عن موضوع تافه بصورة جذرية، فليلاحظ، دون تحيّز، أن أعظم الجهود قد نتجت غالباً عن أصغر الأسباب. ولكي لا أبتعد مزيداً عن اطار صفحة الورق هذه، ألا ترون أن قطعة الأدب المجدَّة التي أدأب على تأليفها، منذ مطلع هذا المقطع، ربما كانت لتصبح أقل إرضاءً للأذواق، لو أنها اتخذت نقطة ارتكازها من سؤال شائك في الكيمياء أو في الطب الباطني؟ على كل حال، كل الأذواق هي في الطبيعة؛ وعندما قارنت، في البداية، الدعامات بالدبابيس بكل هذا السداد (طبعاً لم أكن أظن أنه قد يخطر لهم، ذات يوم، أن يلوموني على ذلك)، استندت إلى قوانين علم البصريات، التي اثبتت أنه كلما كانت الشعاعة البصرية بعيدة عن الموضوع، كلما انعكست الصورة بشكل متناقص على شبكية العين.

من هنا أن ما يعتبره ميلُ عقلنا إلى التهريج ضربة ذهنية بائسة، ليس، في معظم الأحيان، في فكر المؤلف، سوى حقيقة مهمة، مُعلَن عنها بجلال! آه! ذلك الفيلسوف الأحمق الذي انفجر ضاحكاً، عندما شاهد حماراً يأكل تينة! اني لا اخترع شيئاً: الكتب القديمة حكت، بأوسع التفاصيل، عن هذا العوز الطوعي والمخجل للنبل البشري. أنا، لا أعرف أن أضحك. لم أتمكن قط من الضحك، مع أني حاولت ذلك مراراً. إن تعلّم الضحك صعب للغاية. أو بالأحرى اعتقد أن شعوراً بالنفور من هذه الفظاعة يشكل ميزة جوهرية في طبعي. حسناً، لقد كنت شاهداً على أمر أقوى من ذلك: لقد شاهدت تينة تأكل حماراً! ومع ذلك، لم أضحك؛ بصراحة، ولا جزء فوهي تحرَّك. الحاجة إلى البكاء استولت عليّ قوية لدرجة، أن عيوني تركت دمعة تسقط. «ايتها الطبيعة! ايتها الطبيعة، هتفت منتحباً، الباز يمزق عصفور الدوري، التينة تأكل الحمار والدودة الشريطية تلتهم الانسان!»، اني، دون أن اتخذ قرار الذهاب أبعد من ذلك، اتساءل في داخلي إذا كنت قد تحدثت عن الطريقة التي يقتلون بها الذباب. نعم، أليس كذلك. وليس أقل منه صحة إني لم أتحدث عن تدمير وحيدي القرن! إذا أعلن لي بعض الأصدقاء العكس، فإني لن اسمعهم، وسأتذكر أن المديح والاطراء هما حجرا عثرة كبيران. مع ذلك، كيما أرضي ضميري قدر الامكان، لا يسعني الامتناع عن لفت الانظار إلى أن هذه المقالة

حول وحيد القرن ستجرني خارج حدود الصبر ورباطة الجأش، وأنها، من ناحيتها، على الأرجح (فلنملك، حتى، جرأة القول على وجه التأكيد) ستثبط همة الأجيال الحاضرة. ان لا أكون قد تحدثت عن وحيد القرن بعد الذبابة! كان عليَّ، على الأقل، بمثابة عذر مقبول، ان أذكر بسرعة (وهذا ما لم أفعله!) هذا الاسقاط غير المتعمد، الذي لن يدهش أولئك الذين درسوا بتعمق التناقضات الحقيقية وغير القابلة للتفسير التي تسكن فلقات الدماغ البشري. ليس ثمة ما هو معيب بالنسبة لذكاء كبير وبسيط: ان أصغر ظاهرة في الطبيعة، اذا كانت تحتوي على سر خفي، ستصبح بالنسبة للحكيم، مادة للتأمل لا ينضب لها معين. إذا شاهد أحد ما حماراً يأكل تينة أو تينة تأكل حماراً (إن هاتين الحالتين لا تعرضان غالباً، إلا أن يكون ذلك في الشِعر)، فكونوا أكيدين أنه بعد أن يفكر لدقيقتين أو ثلاث في أي سلوك ينهج، سيهجر درب الفضيلة، ويروح يضحك كالديك! أيضاً، ألم يتم البرهان تماماً على أن الديوك تفتح خصيصاً منقارها لتقلّد الانسان وتقوم بتكشيرة معذبة. أسمّي تكشيرة في العصافير ما يحمل نفس الاسم في الانسانية! الديك لا يخرج من طبيعته، لا عن عجز، بل عن كبرياء. علّموهم أن يقرأوا، فانهم سوف يثورون. ليست الببغاء مَن قد تنذهل هكذا أمام ضعفها، الجاهل أو الذي لا يُغتفر! آه! يا للهوان الكريه! كم يشبه المرء معزاة عندما يضحك! ان سكون الجبين قد اختفى ليخلي المكان لعيني اسماك ضخمتين، تروحان (أليس هذا مؤسفاً؟)... تروحان... تروحان تشعّان كمنارتين! سيخطر لي، غالباً، أن أعرض، بصورة احتفالية، أكثر الاقتراحات هزلية... لا أجد أن هذا الأمر يجب أن يصبح بصورة حاسمة سبباً كافياً لتوسيع الفم! لا يسعني الامتناع عن الضحك، ستجاوبني، أقبل هذا التعليل اللامعقول، لكن، في هذه الحال، فليكن ضحكاً كئيباً. إضحك، لكن إبكِ بذات الوقت، إذا كنتِ لا تستطيع أن تبكي بعينيك، إبكِ بفمك. وإذا كان هذا أيضاً مستحيلاً، بوِّل؛ لكني، أنذر بأن سائلاً ما هو هنا ضروري، للتلطيف من الجفاف، الذي يحمله، في أحضانه، الضحك، ذو الملامح المشرومة إلى الوراء. فيما يختص بي، فاني لن أدع نفسي تتشوش بالنقيق السخيف والخوار الطريف لأولئك الذين يجدون دائمًا ثمة مطعناً في طبع لا يشبه طبعهم، لأنه واحد من تلك التغيّرات الفكرية اللاتُعد التي خلقها الله، دون أن يخرج عن النموذج الأصلي، ليحكم الهياكل العظمية. إن الشِعر، حتى يومنا هذا، قد سلك طريقاً خاطئاً؛ لقد تجاهل، مرتفعاً حتى السماء، أو زاحفاً حتى الأرض، مبادىء

وجوده، وبات، ليس دون وجه حق، مستهزأً به دوماً من قِبَل الأناس الشرفاء. إنه لم يكن متواضعاً. . . وهذه أجمل مزية يجب أن توجد في كائن ناقص! أنا أريد أن أعرض مزاياي؛ لكني لست خبيثاً بما فيه الكفاية لأخفي نقائصي! الضحك، الشر، الكبرياء، الجنون، ستظهر، تباعاً، بين الحساسية وحب العدالة، وتقدم قدوة للذهول البشري: كل واحد سيتعرّف إلى نفسه فيها، لا كما سيتوجب عليه أن يكون، بل كما هو. ولعل هذا المثال الأعلى، الذي تمخض عنه خيالي، سيتجاوز، مع ذلك، أكثر ما عثر عليه الشِعر حتى الآن عظمة وقداسة. لأني، إذا كنت أترك نقائصي تنضح من هذه الصفحات، فان هذا سيزيدكم إيماناً بالفضائل التي أجعلها تسطع منها، والتي سأضع هالتها عالياً، لدرجة، أن أكبر عباقرة المستقبل سيُظهرون لي عرفاناً صادقاً بالجميل. هكذا، اذن، سيكون الخبث مطروداً صراحة من بيتي. سيكون هناك، في أناشيدي، برهان هائل على القوة، ليحتقر هكذا الآراء الشائعة. إنه ينشد لنفسه وحدها، وليس لأشباهه. إنه لا يضع عيار إلهامه في الميزان البشري. لقد جاء، حراً كالعاصفة، يرسب، ذات يوم، على الشواطىء الجموحة لارادته الرهيبة! انه لا يخشى شيئاً، إن لم يكن ذاته! انه، في صراعاته الفائقة للطبيعة، سيهاجم الانسان والخالق، ظافراً، كما عندما يغرز أبو منقار سيفه في بطن الحوت: فليكن ملعوناً، من أولاده ومن يده الناحلة، ذاك الذي يثابر على عدم فهم القنغر العنيد للضحك والقمل الجريء للرسم الهزلي!. . . برجان هائلان كانا يُلمحان في الوادي؛ هذا ما قلته في البداية. إذا ضربتهما باثنين كان المحصول أربعة. . . لكني لم أتبين جيداً ضرورة هذه العملية الحسابية، واصلت طريقي، والحمّى على وجهي، ورحت أصرخ دون انقطاع: «لا. . . لا. . . اني لا أتبين جيداً ضرورة هذه العملية الحسابية!» كنت قد سمعت قرقعات سلاسل، وتأوهات اليمة. يجب أن لا يجد أحد ممكناً، عندما سوف يمر في الموضع، ان يضرب البرجين باثنين، كيما يكون المحصول أربعة! البعض يراودهم الشك بأني أحب الانسانية كما لو كنت أمها بالذات، وحملتها، تسعة أشهر، في احشائي المعطّرة؛ لهذا السبب، لا أعود قط إلى المرور في هذا الوادي حيث ترتفع وحدتا العدد المضروب.

- ٣ -

كانت مشنقة ترتفع على الأرض، التي كان، على علو متر منها، معلَّقاً من شَعره رجل، كانت ذراعاه موثقتين من الخلف. ساقاه تُركتا حرتين، لمضاعفة

تعذيباته، وزيادة اشتهائه لأي شيء معاكس لاحتباك ذراعيه. جلد جبينه كان متوتراً من ثقل الشنق، لدرجة أن وجهه، الذي حكمت عليه المناسبة بغياب التعبير الطبيعي، كان يشبه التصلب الحجري لراسب كلسي. إنه يعاني هذا العذاب، منذ ثلاثة أيام. كان يصرخ: «من يحلّ لي ذراعيّ؟ من يحلّ لي شَعري؟ إني اتفكك في حركات لا تفعل سوى أن تفصل أكثر بين رأسي وبين جذر شعري؛ العطش والجوع ليسا هما السببين الرئيسين اللذين يمنعاني من النوم. من المستحيل أن يغرز وجودي تمديده فيما وراء حدود ساعة. أحد ما ليفتح لي حلقي، بحصاة مفولذة!» كل كلمة كانت مسبوقة، متبوعة بصياحات حادة. انطلقت من الدغل الذي كنت محتمياً خلفه، وتوجهت نحو الدمية المتحركة أو قطعة شحم الخنزير المعلّقة في السقف. لكن، ها انه، من الجهة المقابلة، تصل امرأتان ثملتان وهما ترقصان. إحداهن كانت تحمل كيساً، وسوطين، بحبال من رصاص، والأخرى، برميلاً مليئاً بالقطران وريشتي رسم. الشَعر الرمادي للأكبر سناً بينهن كان يتموج في الريح، كخِرَق شراع ممزق، وعرقوبا الأخرى كانا يقرقعان فيما بينهما، كصفعات ذيل تنة على كوثل سفينة. عيونهن كانت تلتمع بشعلة سوداء وقوية لدرجة اني لم أظن باديء الأمر أن هاتين المرأتين تنتميان إلى جنسي. كانتا تضحكان بوقاحة انانية لدرجة، وملامحهن كانت توحي لي نفوراً لدرجة، اني لم أشك لحظة واحدة انه يوجد أمام عيني أبشع نموذجين في الجنس البشري. عدت إلى الاحتماء خلف الدغل، وبقيت ساكناً تماماً، كالطائر، الذي لا يُبرز رأسه خارج عشه. كانتا تقتربان بسرعة المد والجزر؛ وأنا الصق اذني على الأرض، كان الصوت المسموع بوضوح، يحمل إليّ ارتجاج مشيتهن الغنائي. عندما وصلت أنثيا السعلاة تحت المشنقة، استنشقتا الهواء خلال بضع ثوانٍ؛ اظهرتا، بحركاتهن الخرقاء، عن الكمية الجديرة بالملاحظة حقاً من الذهول الذي نتج عن تجربتهن، عندما ادركتا أنه لم يتغير شيء في هذه الأماكن: خاتمة الموت، المطابقة لرغباتهن، لم تحصل. لم تتنازلا ان ترفعا رأسهن، لتعرفا فيما إذا كانت قطعة السجق لا تزال في نفس الموضع. إحداهن قالت: «ايعقل أنك لا تزال تتنفس؟ إنك تملك حياة صلبة يا زوجي الحبيب» كما عندما يأخذ منشدان، في كاتدرائية، يرتلان بالتناوب آيات مزمور، أجابت الثانية: «ألا تريد اذن ان تموت يا ابني الظريف؟ قل لي اذن كيف عملت (أكيداً هذا بفضل رقية مؤذية) كي تُرعب النسور؟ بالفعل لقد صار هيكلك العظمي هزيلاً للغاية! النسيم العليل يؤرجحه كمصباح.» كل واحدة أخذت ريشة رسم وطلت بالقطران جسد

المشنوق. . . كل واحدة أخذت سوطاً ورفعت ذراعيها. . . كنت أتعجب (وكان من المستحيل اطلاقاً أن لا تفعلوا مثلي) بأية دقة حازمة كانت شفرات المعدن، بدل أن تنزلق على السطح، كما يحدث عندما نتصارع مع زنجي ونبذل جهوداً لا مجدية، جديرة بالكابوس، لنمسك بشعره، تلتصق، بفضل القطران، حتى أعماق اللحوم، الموسومة بأثلام محفورة بالقدر، الذي كان يمكن لعائق العظام عقلياً أن يسمح به. لقد اتقيت إغراء العثور على شهوة حسية في هذا المشهد العجيب للغاية، انما الأقل عمقاً هزلياً مما كان من حقنا أن نتوقع. ومع ذلك، رغم القرارات الطيبة المأخوذة سلفاً، كيف عساني لا أتعرف إلى قوة هاتين المرأتين، عضلات ذراعيهن؟ ان مهارتهن، التي كانت تتمثل في ضرب أكثر الأعضاء حساسية، كالوجه وأسفل البطن، لن أذكرها، ما لم اتطلع إلى طموح سرد الحقيقة الكاملة! إلا إذا فضّلت، مُلصقاً شفاهي الواحدة فوق الأخرى، خاصة في الاتجاه الأفقي (لكن لا أحد يجهل انها أكثر الطرق طبيعية لتوليد هذا الضغط)، ان الزم صمتاً مترعاً بالدموع والأسرار الخفية، سيعجز تجليه المؤلم عن اخفاء، ليس فقط بنفس درجة عباراتي انما أيضاً أحسن (لأني لا أعتقد اني اخطىء، مع انه لا يجب طبعاً أن ننكر من حيث المبدأ، دون أن نخالف أبسط قوانين الفِطنة، احتمالات الخطأ الافتراضية) سيعجز عن اخفاء النتائج المشؤومة التي تسبَّب بها الهيجان، الذي يستعمل أمشاط اليد الجافة والتمفصلات القوية: حتى ولو لم نضع انفسنا من وجهة نظر المراقب المنصف والكاتب الاخلاقي المجرِّب (انه تقريباً مهم نوعاً ان أعلم أني لا أقبل، على الأقل كلياً، هذا الحصر الغشاس بدرجة تكثر أو تقل)، فإن الشك، في هذا الصدد، لن يكون له الحق في مد جذوره؛ لأني لا افترضه، في الوقت الحاضر، بين يدي قدرة فائقة للطبيعة، وسيهلك حتماً، ليس فجأة ربما، بسبب الافتقار إلى طاقة حيوية تملأ الشروط المتآينة لهضم الغذاء ولغياب المواد السامة. من المسلَّم به، وإلا لا تقرؤوني، إني لا أضع على المسرح سوى شخصية رأيي الخجولة: بعيدة عني، مع ذلك، فكرة التنازل عن حقوق لا تقبل المنازعة! طبعاً، ليس في نيتي أن أحارب هذا الاثبات، الذي يلمع فيه معيار اليقين، وهو ان هناك وسيلة أبسط للتفاهم؛ ترتكز، وأنا اترجمها ببضع كلمات فقط، لكنها تساوي أكثر من ألف، لا جدال: ان وضعها موضع التنفيذ هو أصعب مما يريد أن يفكر به إجمالاً عامة الناس. جدال هو الكلمة النحوية، وكثيرون سيجدون انه قد لا يجوز، دون ملف ضخم من البراهين، مناقضة ما قد دوّنته على الورق لتوي، لكن الأمر

يختلف تماماً، إذا كان مسموحاً للمرء أن يأذن لغريزته الخاصة باستعمال فطنة نادرة في خدمة تبصّره، عندما يصوغ احكاماً، قد تبدو بخلاف ذلك، كونوا أكيدين، ذات جرأة تحاذي شواطىء التبجح. وكي نختم هذا الحادث الصغير، الذي تجرَّد من تلقاء نفسه من غلافه بفعل خفة مؤسفة بما لا يعوَّض بقدر ما هي مليئة حتماً بالاهتمام (وهذا ما لن يعدم كل واحد أن يفحصه، شريطة أن يكون قد تسمع إلى أحدث ذكرياته)، فانه يحسن بنا، إذا كنا نملك مَلَكات إدراك في حالة توازن كامل، أو بالأصح، إذا كان ميزان البلاهة لا يتغلب بأشواط على الكفة التي تستريح فيها خاصيات العقل النبيلة والرائعة، وهذا يعني، كيما أكون أكثر وضوحاً (لأني، حتى الآن، لم أكن إلا مقتضباً، وهذا ما سوف لن يقبله الكثيرون، بسبب إسهاباتي، التي ليست سوى وهمية، بما أنها تؤدي غايتها، في أن تلاحق، بمبضع التحليل، تجليات الحقيقة العابرة، حتى آخر معاقلها)، إذا كان الذكاء يسود بما فيه الكفاية على الأخطاء التي خنقته تحت ثقلها جزئياً العادة، وطبيعة التعليم، يحسن بنا، أكرر للمرة الثانية والأخيرة، لأننا لكثرة التكرار سننتهي، وهذا ليس خطأً على الأغلب، بأن لا نعود نتفاهم، ان نرجع خافضي الذيل (إذا كان، حتى، صحيحاً، أن لي ذيلاً) إلى الموضوع المأساوي الموطد في هذا المقطع. من المفيد أن أشرب قدح ماء، قبل أن أباشر تكملة عملي. أفضل أن أشرب قدحين، على أن امتنع عن ذلك. هكذا، إبان مطاردة لزنجي كستنائي اللون، عبر الغابة، يعلّق كل عضو من الفرقة، في لحظة مقررة، بندقيته في العارشات، ويجتمعون معاً، في ظل أجمة، لارواء العطش، وإشباع الجوع. لكن الاستراحة لا تدوم سوى بضع ثوان، المطاردة تُستأنف بضراوة وصيحة الهجوم لا تتأخر في ارسال صداها. وكما أنه يسهل التعرّف إلى الأوكسجين من خلال الخاصية التي يملكها، دون زهو، في أن يعيد اشعال عود ثقاب يقدم بعض نقاط في حالة احتراق، كذلك، ستتعرّفون إلى اتمامي لواجبي من خلال التعجل الذي أبديه في الرجوع إلى القضية. عندما رأت الانثيان نفسهن أمام استحالة الامساك بالسوط، الذي تركه التعب يسقط من أيديهن، وضعتا بنباهة حداً للعمل الرياضي الذي التزمتا به خلال ساعتين تقريباً، وانسحبتا، بفرح لم يكن مجرَّداً من التهديدات بالنسبة للمستقبل. توجّهت نحو ذاك الذي كان يدعوني إلى نجدته بعين جليدية (لأن فقدان الدم كان كبيراً لدرجة، ان الضعف كان يمنعه من الكلام، وان رأيي كان، رغم أني لست طبيباً، ان النزف قد ظهر في الوجه وأسفل البطن) ولقد رحت اقطع شَعره

بمقص، بعد أن فككت ذراعيه. لقد روى لي أن أمه دعته، ذات مساءٍ، إلى غرفتها، وأمرته أن ينزع ثيابه، ليمضي الليل معها في سرير، وأن الأمومة، دون أن تنتظر أي جواب، تجرَّدت من كل ملابسها، وهي تصالب، أمامه، أكثر الايماءات فسقاً. وأنه انسحب عندئذ. بالاضافة إلى ذلك، لقد جذب إلى نفسه، بسبب رفضه المستمر، سخط زوجته، التي هدهدت نفسها بأمل الحصول على مكافأة، إذا نجحت في تطويع زوجها في اعارة جسده لشهوات الشيخة. لقد قررتا، بواسطة مؤامرة، تعليقه على مشنقة محضّرة سلفاً، في ناحية ما غير مطروقة، وتركه يهلك بلا شعور، مُعرَّضاً لكل المصائب ولكل الأخطار. لم تتوصلا أخيراً إلا بعد عدة تأملات ناجحة للغاية، ومليئة بصعوبات غير قابلة للتذليل تقريباً، إلى توجيه اختيارهن إلى التعذيب المرهف، الذي لم يوضع حد نهائي له إلا بفضل نجدة تدخلي غير المنتظرة. إن أكثر علامات عرفان الجميل حيوية كانت تشدد على كل تعبير، ولا تضفي أهمية أقل على تصريحاته. لقد حملته إلى أقرب كوخ، لأنه كان قد أغمي عليه لتوه، ولم أغادر الفلاحين إلا بعد أن تركت لهم كيس نقودي، ليعتنوا بالجريح، واستصدرت منهم وعداً بأنهم سيغدقون على الشقي، كما على ابنهم بالذات، دلائل تعاطف دؤوب. لقد رويت بدوري الحادث، واقتربت من الباب، كيما أضع رجلي من جديد على الدرب؛ لكن، ها اني، بعد أن خطوت مئة متر، أنكص على عقبي آلياً، وأدخل من جديد إلى الكوخ، الذي اهتف، متوجِّهاً إلى مالكيه السذج: «لا، لا... لا تظنوا أن هذا يثير دهشتي!» هذه المرة ابتعدت نهائياً؛ لكن أخمص قدميَّ لم يكن بوسعه أن يستقر بصورة أكيدة: واحد غيري كان يمكن أن لا ينتبه إلى هذا الأمر! الذئب لا يمر بعد تحت المشنقة التي رفعتها، ذات نهار ربيع، الأيدي المتضافرة لزوجة وأم، كما كان يحصل له، عندما كان يجعل خياله المفتون، يسلك درب غداء وهمي. إنه، عندما يرى، على الأفق، هذا الشعر الأسود، المؤرجح في الريح، لا يشجع مقاومته السلبية، وينهج طريق الهرب بسرعة لا تُضاهى! هل يجب أن نرى، في هذه الظاهرة النفسية، ذكاءً متفوقاً على الغريزة العادية للحيوانات الثديية؟ دون أو اؤكد شيئاً وحتى دون أن أتوقع شيئاً، يخيل إليَّ ان الحيوان قد فهم ما هي الجريمة! وكيف عساه لا يفهمها، عندما تكون كائنات بشرية، بذاتها، قد نبذت، إلى هذا الحد الذي لا يوصف، سلطان الدراية، كي لا تُبقي، مكان هذه الملكة المخلوعة عن عرشها، سوى انتقامٍ عاتٍ!

اني قذر. القمل يقضمني. الخنازير، عندما تنظر إليَّ تتقيأ. قشور وندوب البرص سفطت جلدي، المغطى بالقيح الأصفر. إني لا أعرف ماء الأنهار، ولا ندى الغيوم. فوق عنقي، كما فوق زبل، نما ثمة فطر ضخم، ذو سويقات صِيوانية. إني لم أحرِّك، جالساً فوق أثاث بلا شكل محدود، أعضائي منذ أربعة أجيال. أقدامي تجذّرت في التربة وتشكل حتى بطني، نوعاً من نبات حـي، مليء بطفيليات مقززة، ليس بعد مشتقاً من العشب، ولم يعد لحماً. ومع ذلك فان قلبي ينبض. لكن أنىّ له أن ينبض، لو لم تكن عفونة وفوحانات جثتي (لا أجرؤ أن أقول جسدي) تغذيه بغزارة؟ تحت ابطي الأيسر، اتخذت عائلة من الضفادع لها مقراً، وعندما يتحرك أحدها، فانه يدغدغني. حاذروا أن يهرب ضفدع من تحت ابطي، ويأتي يحكّ بفمه، باطن اذنكم: انه قد يكون خليقاً بعد ذلك بدخول دماغكم. تحت ابطي الأيمن، يوجد حرباء تطارد هذه الضفـادع باستمرار، كي لا تموت جوعاً: كل واحد يجب أن يعيش. لكن عندما يُحبط أحد الفريقين حِيل الآخر كلية، فانهم لا يجدون أفضل من أن لا يتضايقوا، ويمصّون الشحم الرقيق الذي يغطي جوانبي: لقد اعتدت على هذا الأمر. أفعى شريرة التهمت قضيبي وحلّت محله: لقد جعلتني خصيّاً هذه السافلة. آه! ليتني استطعت أن أدافع عن نفسي بذراعيّ المشلولتين، لكني اعتقد بالأحرى انهما قد تحولتا إلى حطبتين. مهما صار، يهمني تسجيل أن الدم لم يعد يأتي ليُجيل فيه احمراره. قنفذان صغيران، كفّا عن النمو، رميا إلى كلب، لم يرفضه، داخل خصيتيّ، حيث سكنا، بعد أن غسلا البشرة بعناية. الشرج تم احتجازه من قِبَل سلطعون؛ شجَّعه جمودي، انه يحرس المدخل بمشابكه. ويسبب لي الكثير من الوجع! مدوستان عبرتا البحار، وقد جذبهن مباشرة أمل لم يخب. لقد نظرتا بانتباه إلى القسمين اللحميين اللذين يشكلان المؤخرة البشرية، ومُتشبثتين بحنيتهما المقببة، سحقتاهما بضغط ثابت لدرجة أن قطعتي اللحم اختفتا، بينما بقي مسخان، خارجان من عالم اللزوجة، متساويان في اللون، والشكل والضراوة. لا تتحدثوا عن عمودي الفقري، بما أنه سيف. نعم، نعم... لم أكن انتبه إليه... سؤالكم محق. إنكم ترغبون معرفة، كيف تأتى أنه مغروز عمودياً في حقوي، اليس كذلك؟ أنا نفسي، لا أذكر هذا الأمر بوضوح كبير؛ مع ذلك، اذا قررت أن اعتبرها ذكرى تلك الحادثة التي ليست ربما سوى حلم، فاعلموا أن الانسان، عندما علم أني نذرت أن أعيش مع المرض والجمود إلى أن أغلب الخالق، مشى، ورائي، على رؤوس أصابعه، انما، ليس بما يكفي من الهدوء،

كي لا أسمعه. ما عدت أدركت شيئاً، خلال لحظة لم تكن طويلة. إن هذا الخنجر الحاد انغرز، حتى الكُم، بين كتفيّ ثور الأعياد، وهيكله ارتعش، كهزة أرضية. النصل التحم بالجسد بقوة لدرجة، أن أحداً حتى الآن، لم يتمكن من استخلاصه. المصارعون، الميكانيكيون، الفلاسفة، الأطباء جرَّبوا، تباعاً، أكثر الوسائل تنوعاً. لم يكونوا يعلمون أن الشر الذي عمله الانسان لا يمكن أن ينحلّ. لقد غفرت لهم عمق جهلهم الطبيعي، وحييتهم بأهداب عيوني. أيها المسافر، عندما سوف تمر قربي، لا توجِّه إليّ، أرجوك، أدنى كلمة تعزية: انك قد تُضعف شجاعتي. دعني أدفىء عنادي بشعلة الاستشهاد الطوعي. اذهب. . . يجب أن لا أُوحي لك بأي شفقة. إن الحقد هو أغرب مما تظن؛ إن سلوكه غير قابل للتفسير، كالمظهر المحطَّم لعصا مغموسة في الماء. إني لا أزال استطيع، في الحالة التي تراني فيها، أن أقوم بنزهات حتى أسوار السماء، على رأس فيلق من المجرمين، وأن أعود لأتخذ وضعة الجسم هذه، لأفكر ملياً، من جديد، بمشاريع الانتقام النبيلة. وداعاً، لن اؤخرك مزيداً؛ ولكي تتعلم وتتوقى، فكرْ بالقدر المحتوم الذي قادني إلى التمرد، في حين أني وُلدت ربما طيّباً! ستخبر ابنك بما رأيته؛ وستجعله، آخذاً إياه من يده، يُدهش بجمال النجوم وعجائب الكون، عش أبو الحن ومعابد المُولى. ستُدهش حين تراه مطيعاً إلى هذا الحد لنصائح أبوّتك، وتكافؤه بابتسامة. لكن، عندما يعلم أنه ليس مُراقباً، إلقِ عيونك عليه، وستراه يبصق لُعابه على الفضيلة: لقد خدعك، ذاك الذي تحدَّر من الجنس البشري، لكنه لن يخدعك بعد. ايه أيها الأب العاثر الحظ، هيىء، لمرافقة خطى شيخوختك، منصة الاعدام المتعذر محوها التي ستقطع رأس المجرم المبكر النضج، والعذاب الذي سيدلّك إلى الطريق المفضية إلى القبر.

- ٥ -

على جدار غرفتي، أي ظل يرسم، بقوة لا تُضاهى، الانعكاس الاستشباحي لخياله المتصلّب؟ عندما أضع على قلبي هذا الاستفهام الهاذي والصامت، فان بساطة الأسلوب تتصرّف على هذا النحو من أجل لوحة الواقع، أكثر منه من أجل جلال الشكل. كائناً من كنت دافع عن نفسك؛ لأني ساوجّه نحوك مقلاع اتهام رهيب: هذه العيون ليست ملكك. . . من أين أخذتها؟ ذات يوم، رأيت امرأة شقراء تمر أمامي؛ كانت عيونها شبيهة بعيونك: انك قد

اقتلعتها لها. أرى انك تريد اقناعنا بجمالك؛ لكن لا أحد ينخدع به؛ وأنا، أقل من غيري. أقول لك هذا، كي لا تعدّني أحمق. مجموعة بكاملها من سباع الطير، هواة لحم الآخرين وأنصار منفعة المطاردة، جميلين كالهياكل العظمية التي تنزع ورق أشجار الأركانساس، يرفرفون حول جبينك، كخدم مطيعين ومقبولين. لكن، هل هذا جبين؟ ليس من الصعب ابداء الكثير من التردد في تصديق ذلك. إنه منخفض لدرجة يستحيل علينا معها التثبت من البراهين الطفيفة عددياً، لحياته الملتبسة. إني لا أقول لك ذلك على سبيل التسلية. لعله ليس لك جبين، انت، يا من تجيل على الجدار، كرمز رقصة خارقة رديء الانعكاس، ارتجاج فقاراتك الحقوية المحموم. من اذن سلخ رأسك؟ إذا كان كائناً بشرياً، لأنك حبسته، خلال عشرين عاماً في سجن، فهرب ليحضّر انتقاماً يوازي اقتصاصك منه، فلقد تصرف كما كان يجب عليه أن يفعل، وأنا اصفق له؛ لكن، لي عليه مأخذاً وحيداً، انه لم يكن صارماً بما فيه الكفاية. إنك تشبه الآن، هندياً أحمر سجيناً، على الأقل (فلنلاحظ ذلك أولاً) بسبب الانعدام البعيد المغزى للشَعر. هذا لا يعني أنه ليس بامكانه أن ينبت من جديد، بما أن الوظائفيين اكتشفوا انه حتى الأدمغة المحذوفة تعود، على المدى الطويل، إلى الظهور، عند الحيوانات؛ لكن فكري لا يذهب، متوقفاً أمام تقرير بسيط، ليس مجرّداً، وفقاً للقليل الذي أدركه منه، من شهوة حسية هائلة، لا يذهب، في أكثر محصلاته جرأة، حتى حدود تمنيّ شفائك، ويبقى، بالعكس، مفوَّضاً، بفضل استخدام حياده الأكثر من مريب، بان ينظر (أو على الأقل بأن يتمنى)، كنذير بمصائب أكبر، ما لا يمكن أن يكون بالنسبة لك سوى حرمان مؤقت من الجلد الذي يغطي أعلى رأسك. آمل أنك قد فهمتني. وحتى، لو سمحت لك الصدفة، بفضل معجزة لا معقولة، لكنها لا تعدم أن تكون، أحياناً، معقولة، بأن تعثر على ذلك الجلد الثمين الذي احتفظ به التيقظ الورع لعدوّك، بمثابة ذكرى مسكرة على انتصاره، فانه لمن المحتمل جداً تقريباً، حتى لو لم ندرس قانون الاحتمالات إلا من جهة الرياضيات (والحال اننا نعرف أن التماثل ينقل بسهولة تطبيق هذا القانون إلى باقي مجالات الذكاء)، ان لا يرفض تخوفك المشروع، انما المبالغ فيه قليلاً، من برد جزئي أو كلي، الفرصة المهمة وحتى الوحيدة، التي قد تسنح بشكل ملائم، وان مفاجىء، في صيانة مختلف أجزاء مخك من ملامسة الجو، خاصة خلال الشتاء، بعُمرة، هي ملكك بحق، بما أنها طبيعية، وبما أنه سيكون مسموحاً لك، اضافة إلى ذلك (وسيكون رفضك لهذا

الأمر عملاً غير مفهوم)، بالاحتفاظ بها دوماً على رأسك دون أن تتعرّض لخطر، مخالفة أبسط قوانين اللياقة الأولية، المزعج دائمًا. أليس صحيحاً أنك تصغي إلي بانتباه؟ إذا أصغيت إليّ مزيداً، فان حزنك سيكون بعيداً عن البروز من داخل منخاريك الأحمرين. لكن بما أني منصف جداً، ولا أكرهك بمقدار ما يتوجب علي (إذا كنت مخطئاً، قله لي)، فانك تُعير، غصباً عنك، أذناً لأحاديثي، كما لو أن قدرة عليا تدفعك إلى ذلك. لست شريراً بمقدارك: لهذا السبب تنحني عبقريتك من تلقاء نفسها أمام عبقريتي... بالفعل لست شريراً بمقدارك! لقد ألقيت لتوك نظرة على المدينة المشيّدة على منحدر هذا الجبل. والآن، ماذا أرى؟... جميع السكان ماتوا! عندي غرور مثل غيري، وأنها لنقيصة اضافية، أن يكون عندي غرور ربما أكثر من غيري. حسناً، اسمع... اسمع، اذا كان اعتراف انسان، يتذكر أنه عاش نصف قرن تحت شكل سمكة قِرش، في التيارات التحمائية التي تحاذي شواطىء أفريقيا، يهمّك بقوة كافية لتُعيره انتباهك، ان لم يكن بمرارة، فعلى الأقل بدون الغلطة التي لا تعوَّض في اظهار القرف الذي أوحيه لك. لن أطرح تحت أقدامك قناع الفضيلة، لأظهر أمام عينيك كما أنا؛ لأني لم أضع هذا القناع قط (إذا كان هذا، بالمقابل، يشكل عذراً)؛ ومنذ اللحظات الأولى، إذا لاحظت ملامحي بانتباه، فانك ستعترف بي كتلميذ مُجِلّ لك في الفساد، لكن، لا كمنافس خطر. بما أني لا أنازعك وسام الشر، لا أعتقد أن أحداً غيري يفعل ذلك: يجب عليه قبلاً أن يتكافأ معي، وهذا ليس بالأمر السهل.. اسمع، إلا إذا كنت التكاثف الضعيف لضباب (انك تخفي جسدك في جهة ما، ولا استطيع أن أقابله): ذات صباح، إذ شاهدت فتاة صغيرة تنحني فوق بحيرة، لتقطف زهرة لوتس وردية اللون، وطدت أقدامها، بخبرة مبكرة النضج؛ كانت تنحني نحو المياه، عندما التقت عيناها بنظرتي (صحيح أن هذا الأمر كان، من جانبي، متعمداً). فوراً ترنحت كدردور يحدثه المد والجزر حول صخرة، ساقاه انثنتا، ويا للأمر الذي تثير رؤيته الدهشة، يا للظاهرة التي تتحقق بنفس الصحة التي أحدثك بها، سقطت إلى أعماق البحيرة: نتيجة غريبة، ما عادت قطفت أية زهرة نيلوفر. ماذا تفعل تحت؟... لم أعد أستخبر عن هذا الأمر. لا شك، ان ارادتها، التي انضوت تحت لواء الانقاذ، تشن معارك ضارية ضد العفونة! لكن أنت، أيا معلمي، تحت نظرك، يتقوّض فجأة سكان المدن، كأكمة من النمل يسحقها كعب الفيل. ألم أكن لتوي شاهداً على مَثَل موضِّح؟ انظر... الجبل لم يعد سعيداً... انه يبقى منعزلاً كعجوز. صحيح، البيوت موجودة؛ لكن ليس ثمة مفارقة في أن نؤكد، بصوت خافت، انك لا تستطيع أن

تقول نفس الشيء عن اولئك الذين لم يعودوا موجودين فيها. منذ الآن، فوحانات الجثث تصل إلي. ألا تشمّها؟ انظر الكواسر، التي تنتظر ان نكون قد ابتعدنا، كي تبدأ غداءها العملاق؛ انه يجيء منها غيمة مستمرة من أربع زوايا الأفق. للأسف! كانت قد جاءت قبلاً، بما أني رأيت أجنحتها الخاطفة ترسم، فوقك صرح الحلازين، كما لتحرّضك على استعجال الجريمة. ألا تتلقى حاسة شمّك اذن ادنى فوحان؟ الدجّال لا يختلف عنك... أعصابك الشمّية تهتز أخيراً بفعل الادراك الحسي لذرات عطرة: هذه الذرات تتصاعد من المدينة المبادة، مع اني لست بحاجة لأن أعلمك ذلك... كنت لأود أن أقبِّل قدميك، لكن ذراعيّ لا تضمان سوى بخار شفاف. فلنبحث عن هذا الجسد المفقود، الذي تلمحه عيناي، مع ذلك: انه يستحق مني أوفر دلائل الاعجاب الصادق. الشبح يهزأ مني: انه يساعدني في البحث عن جسده ذاته. إذا أشرت إليه أن يبقى مكانه، فها انه يرد لي نفس الاشارة... لقد تمّ اكتشاف السر؛ لكن هذا، أقولها صراحة، لا يلقى عندي أكبر الارتياح. كل شيء يجد تفسيراً، من أكبر إلى اصغر التفاصيل؛ هذه الأخيرة لا تستأهل أن توضع ثانية أمام الفكر، كاقتلاع عيون المرأة الشقراء، مثلاً، هذا ليس بشيء!... الا اذكر اذن اني أنا أيضاً، تعرَّضت لسلخ الرأس، ألا أذكر أني حبست، إنما ليس إلا لمدة خمسة أعوام (العدد المضبوط للزمن يخونني) كائناً بشرياً في سجن، لأنه رفض، صواباً، أن يمنحني صداقة لا تُعطى لكائنات مثلي؟ بما اني أتظاهر بأني أجهل أن نظري يستطيع أن يعطي الموت، حتى للكواكب المتحيِّرة التي تدور في الفضاء، فانه لن يكون على ضلال، ذاك الذي سيدّعي اني لا أملك موهبة الذكريات. ما يبقى علي فعله، هو تحطيم هذه المرآة، إلى شظايا، بواسطة حجر... هذه ليست المرة الأولى التي يركِّز فيها كابوس الفقدان المؤقت للذاكرة مقره في مخيلتي، عندما يحصل لي، بفضل القوانين الحديدية لعلم البصريات، أن أكون موضوعاً أمام انكار صورتي ذاتها!

- ٦ -

كنت قد نمت على الشاطىء الصخري. إن ذاك الذي طارد، خلال يوم، النعامة عبر الصحراء، دون أن يتمكن من بلوغها. لم يتسنَ له الوقت كي يتناول غذاءً، ويغمض عينيه. إذا كان هو الذي يقرأني، فانه جدير بأن يحزر، عند الاقتضاء، أي رقاد يثقل علي. لكن عندما تكون العاصفة قد دفعت سفينة

عامودياً، براحة يدها، حتى أعماق البحر، فانه إذا لم يبقَ من كل طاقم الملاحة على الطوف سوى رجل واحد، منهوك من التعب والحرمانات من كل نوع؛ إذا أرجحه الموج، كحطام سفينة، خلال ساعات أطول من حياة انسان؛ واذا لمحت فرقاطة راحت تمخر فيها بعد هذه المناطق الكئيبة بغاطستها المصدوعة، الشقي الذي يجُيل فوق الأوقيانوس هيكله العظمي الناحل، وحملت إليه نجدة كادت أن تكون متأخرة، فاني اعتقد ان هذا الغريق سيحزر أفضل أيضاً إلى أي درجة وصل خدر حواسي. إن المغنطسية والبنج، عندما يكلفان نفسهما عناء ذلك، يعرفان أحياناً أن يولدا مثل هذه التخشبات البليدة، التي ليس هناك أي شبه بينها وبين الموت: ستكون كذبة كبيرة أن نقول ذلك. لكن فلنصل رأساً إلى الحلم، كي لا يأخذ نافذو الصبر، الجائعون إلى هذه الأنواع من القراءات، يزمجرون غضباً، كسرب من حيتان العنبر الكبيرة الرأس التي تتقاتل فيما بينها من أجل أنثى حبلى. كنت أحلم أني قد دخلت في جسد خنزير، لم يكن سهلاً عليّ الخروج منه، واني كنت أمرمغ وبري في أكره المستنقعات. هل كانت هذه مكافأة؟ لم أعد أنتمي إلى الانسانية، وهذا موضوع رغباتي! فيما يختص بي، لقد فهمت التأويل هكذا، وشعرت من جراء ذلك بفرح أكثر من عميق. مع ذلك، رحت اتقصى بهمّة أي فعل فضيلة انجزته كي استحق، من جانب العناية الالهية، هذه الخطوة العظيمة. الآن وقد استعرضت في ذاكرتي مختلف مراحل هذا التسطح المريع فوق بطن الصوّان، الذي مر خلاله المد والجزر، دون أن أدرك ذلك، مرتين، فوق مزيج يتعذر انقاصه من المادة الميتة واللحم الحي، فانه قد لا يخلو من الفائدة ان أعلن أن هذه الخِطة لم تكن على الأرجح سوى قصاص، أنزلته بي العدالة الإلهية. لكن من الذي يعرف حاجاته الحميمة أو سبب افراحه المفسدة؟ ان الانمساخ لم يظهر قط لعينيّ إلا كدويّ عالٍ وشهم لفرح كامل، كنت انتظره منذ أمد بعيد. لقد جاء أخيراً اليوم الذي صرت فيه خنزيراً! جرّبت أضراسي على لحاء الأشجار؛ فنطيستي كنت أتأملها بلذة. لم يبقَ أدنى جـزيء من ألوهة: عرفت أن أرفع روحي حتى العلو الشاهق لهذه الشهوة الحسية الفائقة للوصف. اسمعوني اذن، ولا تحمروا، يا رسوم الجمال الساخرة التي لا تنفد، الذين تأخذون عن جد النهيق المضحك لروحكم، الجديرة بالاحتقار إلى أقصى حد، والذين لا تفهمون لماذا استمرأ العلي - القدير، في لحظة نادرة من التهريج الممتاز، الذي لا يتجاوز، طبعاً، قوانين الهزل العامة الكبرى، لماذا استمرأ المتعة العجيبة في أن يعمر كوكباً متحيراً بكائنات غريبة

ومجهرية، يسمونها بشرية، وتشبه مادتها مادة المرجان القرمزي. لا شك، انكم على حق في أن تحمرّوا، وانتم عظم وشحم، لكن اسمعوني. إني لا ابتهل إلى ذكائكم؛ ستجعلونه يبصق دماً بسبب الكره الذي يكنّه لكم: انسوه، وكونوا منطقيين مع أنفسكم. . . هنا، لا إكراه بعد. عندما كنت أريد أن أقتل، كنت أقتل؛ وهذا الأمر، حتى، حصل لي مراراً، ولم يردعني أحد عنه. القوانين كانت تلاحقني بعد بانتقامها، مع اني لم أهاجم الجنس الذي هجرته بكل هذا الهدوء؛ لكن ضميري لم يكن يوجِّه لي أي توبيخ. خلال النهار، كنت اتصارع مع أشباهي الجدد، والتربة كانت موشاة بعدة طبقات من الدم المتخثر. كنت الأقوى، وكنت أحرز جميع الانتصارات. جراح كاوية كانت تغطي جسدي؛ كنت أتظاهر بأني لا ألاحظها. الحيوانات الأرضية كانت تبتعد عني، وكنت أبقى وحيداً في عظمتي المتألقة. كم كانت دهشتي عظيمة، عندما حاولت، بعد أن كنت قد عبرت نهراً سباحة، كي ابتعد عن البقاع التي اخلاها حنقي من سكانها، وأبلغ اريافاً أخرى لازرع فيها عاداتي في الاغتيالات والمجازر، عندما حاولت أن أمشي على هذه الضفة المزهرة. اقدامي كانت مشلولة؛ لم تكن أي حركة تأتي لتخون حقيقة هذا الجمود الاضطراري. وسط جهود فائقة للطبيعة، لأواصل طريقي، استيقظت، وشعرت اني أعود انساناً. العناية الالهية جعلتني أفهم هكذا، بطريقة ليست متعذرة على التفسير، انها لا تريد، حتى في الاحلام، ان تتحقق مشاريعي السامية. الرجوع إلى شكلي الأصلي كان بالنسبة لي ألماً كبيراً لدرجة، اني لا أزال خلال الليالي أبكي منه. شراشفي تظل مبلّلة باستمرار، كما لو أنها غطست في الماء، وكل يوم أغيّرها. إذا كنتم لا تصدقوني، تعالوا لمشاهدتي؛ ستتحققون باختباركم الخاص، ليس فقط من احتمال، لكن، فوق ذلك، من حقيقة زعمي ذاتها. كم من مرة، منذ تلك الليلة التي أمضيتها في العراء، فوق شاطىء صخري، امتزجت بقطعان خنازير، لأستردّ، كحق، انمساخي المقوّض! حان الوقت كي أهجر هذه الذكريات المجيدة، التي لا تترك، وراءها، سوى المجرّة الشاحبة للحسرات الأزلية.

- ٧ -

انه ليس مستحيلاً أن نكون شهوداً على انحراف غير طبيعي في سير قوانين الطبيعة المستتر أو الظاهر. بالفعل إذا كلف كل واحد نفسه بحذق عناء استفسار مختلف مراحل حياته (دون ان ينسى واحدة، لأنها قد تكون هي المقدّرة لأن تمده

بالبرهان على ما أقوله)، فانه سيتذكر مع بعض الدهشة، التي قد تصبح مضحكة في ظروف أخرى، انه، في هذا اليوم الفلاني، كي نتكلم أولاً عن الأشياء الموضوعية، كان شاهداً على ثمة ظاهرة كان يبدو أنها تتجاوز ولقد كانت تتجاوز يقينياً المفاهيم المعروفة التي تمدنا بها الملاحظة والتجربة، كأمطار الضفادع، مثلاً، التي قُيض لمشهدها السحري أن لا يكون مفهوماً من جانب العلماء. وأن روحه، في هذا اليوم الآخر، كي نتكلم في المقام الثاني والأخير عن الأشياء الذاتية، عرضت على نظرة علم النفس المستقصية، لن أذهب إلى حد القول اضطراباً في العقل (الذي، مع ذلك، لن تنقص طرافته لهذا السبب، انما، بالعكس، ستزداد) بل، على الأقل، كي لا نتشدد أمام بعض الاشخاص الباردين، الذين لن يغفروا لي قط الهذيانات الفاضحة لمبالغتي، حالةً غير معهودة، خطرة جداً في الغالب الأعم، تشير إلى أن الحد الذي يمنحه الحس السليم للخيال، قد تم للأسف، رغم المعاهدة الزائلة المبرمة بين هاتين القدرتين، تجاوزه حيناً بفعل ضغط الارادة القوي، لكن، في معظم الأحيان، أيضاً، بفعل غياب تعاون الارادة الفعلي: فلنعطِ، دعمًا لهذا الرأي، بعض الأمثلة، التي ليس من الصعب تقدير ملاءمتها: هذا، اللهم، اذا اتخذنا، بمثابة رفيق، اعتدالاً متنبهاً. اني أقدم مثلين: احتدادات الغضب وامراض الغرور. اني انذر ذاك الذي يقرأني بأن يحاذر تكوين فكرة غامضة، ومن باب أولى خاطئة، حول جمالات الأدب التي انزع بتلاتها، أثناء تطور جُملي البالغ السرعة. وأسفاه! كنت أود أن أعرض استدلالاتي ومقارناتي ببطء وبكثير من الاسراف (لكن من يتصرف بوقته؟)، لكي يفهم كل واحد مزيداً، إن لم يكن ذعري، فعلى الأقل ذهولي، عندما رأيت، ذات مساء صيف، فيما كان يبدو أن الشمس تنخفض على الأفق، كائناً بشرياً، متين العضلات، يسبح فوق البحر، مزوَّداً بقوائم بط ضخمة محل أطراف الساقين والذراعين، وحاملاً زعنفة فقرية طويلة ومشيقة نسبياً قدر زعانف الدلافين، وان أسراباً عديدة من السمك (رأيت، في هذا الموكب، بالاضافة إلى سكان مياه آخرين، الرعَّادة، وعقرب البحر الفظيع) كانت تتبعه مع دلائل الاعجاب الأكبر الجلية جداً. أحياناً كان يغطس، وكان جسده اللزج يعود إلى الظهور على التو تقريباً، على مسافة مئتي متر. إن خنازير البحر، الذين لم يسرقوا، حسب رأيي، صيتهم كسباحين ماهرين، كان بمقدورهم بالكد أن يتبعوا عن بُعد هذا المزدوج الطبيعة الحديث الجنس. لا أعتقد أن القارىء سيندم، إذا أعار إنشائي، لا العائق الضار لسرعة تصديق غبية، بل الخدمة العليا

لثقة عميقة، تناقش شرعياً، بتعاطف خفي، الأسرار الشعرية، القليلة جداً، وفقاً لرأيه الخاص، التي أتكفل بكشفها له، كلما سنحت الفرصة، كما سنحت اليوم فجأة، مشبعة بشكل حميم بالروائح المنشطة للأعشاب المائية، التي تنقلها ريح الشمال المنعشة إلى هذا المقطع، الذي يحتوي على مسخ، انتحل لنفسه الشعارات المميزة لعائلة كفيّات القدم. من يتكلم هنا عن التخصيص؟ اعلموا جيداً أن الانسان، بطبيعته المتعددة والمعقدة، لا يجهل الوسائل ليوسّع أيضاً حدود هذه الطبيعة؛ انه يعيش في الماء، كحصان البحر؛ عبر طبقات الجو العليا، كالعُقاب المنسوري؛ وتحت الأرض، كالخُلد الأوروبي، حمار القبان وسمو دودة الأرض الصغيرة. هذا هو في شكله، المختصر بدرجة تكثر أو تقل (لكن، بالأحرى، تكثر)، المعيار المضبوط للتعزية المشجعة جداً التي كنت أجهد لتوليدها في فكري، عندما كنت أفكر ان الكائن البشري الذي كنت ألمحه عن مسافة بعيدة سابحاً بأعضائه الأربعة، فوق صفحة الأمواج، كما لم تفعله قط أروع بجعة، لم يحصل، ربما، على التغيير الجديد في أطراف ذراعيه وساقيه، إلا بمثابة عقوبة تكفيرية عن ثمة جريمة مجهولة. لم يكن ضرورياً أن أعذب رأسي، لأصنع مسبقاً الأقراص الكئيبة للشفقة؛ لأني لم أكن أعرف أن هذا الرجل، الذي كانت ذراعاه تخبطان بالتناوب الموج المرير، فيما كانت ساقاه، بقوة مماثلة للقوة التي تملكها واقيات كركدن البحر اللولبية، تسببان تقهقر الطبقات المائية، لم أكن أعرف أن هذا الرجل لم يكن قد اجتاز طوعياً هذه الأشكال الخارقة، وأنها لم تُفرض عليه إلا بمثابة تعذيب. وفقاً لما علمته فيما بعد، هوذه الحقيقة المجرَّدة: إن تمديد الحياة، في هذا العنصر السائل، كان بشكل غير محسوس قد قاد، في الكائن البشري الذي نفى نفسه بنفسه من القارات الكثيرة الحصى، إلى تغييرات مهمة، انما، ليست جوهرية، كنت قد لاحظتها، في الشيء الذي جعلتني نظرة مبهمة بشكل متوسط اعتبره، منذ اللحظات الأولى لظهوره (بفعل خفة شنيعة، تولِّد شطحاتها الشعور الشاق للغاية الذي يفهمه بسهولة علماء النفس وعشاق الحصافة) جعلتني أعتبره سمكة، غريبة الشكل، لم يتم بعد وصفها في تصنيفات علماء الطبيعيات؛ لكن، ربما، في المؤلفات المطبوعة بعد وفاتهم، مع اني لا أملك الادعاء المغتفر بالميل نحو هذا التقدير الأخير، الذي تم تخيله في ظروف جد افتراضية. بالفعل، ان مزدوج الطبيعة هذا (بما أن هناك ثمة مزدوج طبيعة، دون أن نستطيع اثبات العكس) لم يكن مرئياً إلا بالنسبة لي أنا وحدي، إذا استثنينا الأسماك والحوتيات، ؛ لأني أدركت أن بعض الفلاحين، الذين

توقفوا ليتأملوا وجهي، المرتبك بفعل هذه الظاهرة الفائقة للطبيعة، والذين كانوا يحاولون دون طائل ان يستوضحوا لماذا كانت عيناي شاخصتين باستمرار بمثابرةتبدو لا تُقهر، وليست في الحقيقة كذلك، نحو موضع من البحر، لا يتبيَّنون فيه، هم، سوى كمية يمكن تقديرها ومحدودة من أسراب الأسماك من كل الأجناس، كانوا يمطون فتحة فمهم الضخم، ربما بمقدار حوت. «إن هذا الأمر كان يحفزهم على الابتسام، لا، على الامتقاع، مثلي، كانوا يقولون بلغتهم المثيرة للاعجاب؛ ولم يكونوا أغبياء إلى حد أن لا يلاحظوا أني لم أكن، بالضبط، انظر إلى التحركات الريفية للأسماك، بل ان نظري، كان يتجه، أبعد من ذلك بكثير، إلى الأمام.» بنوع اني، فيما يختص بي، كنت أقول في نفسي، مديراً آلياً عيوني باتجاه الاتساع الجدير بالملاحظة لهذه الأفواه الجبَّارة، أننا إذا لم نعثر في مجموع الكون على بجع، كبير كجبل أو على الأقل كشِناخ (أعجبوا، أرجوكم، برهافة الحصر التي لا تفقد أية بوصة من الأرض)، فانه لن يكون هناك ثمةمنقار طائر نوء أو فك حيوان متوحش قادراً قط على تجاوز، ولا حتى معادلة، كلٍ من فوهات البراكين هذه الفاغرة، إنما المفجعة للغاية. ومع ذلك، رغم اني أدخر حصة طيبة لاستعمال الاستعارة الجذاب. (ان هذا المجاز البلاغي يُسدي للتطلعات البشرية إلى اللانهاية من الخدمات أكثر مما يجهد لتصوره عادة اولئك الذين هم مشرَّبون بالأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة، وهذا نفس الشيء)، فان هذا لا يقلل من حقيقة أن الفم المضحك لهؤلاء الفلاحين يبقى أيضاً واسعاً بما فيه الكفاية لابتلاع ثلاثة حيتان عنبر. فلنقصر فكرتنا مزيداً، لنكن جادين، ولنكتفِ بثلاثة أفيال صغيرة وُلدت لتوها. بملء باع واحدة، كان مزدوج الطبيعة يخلّف وراءه كيلومتراً من الثلم المزبد. خلال اللحظة القصيرة جداً، التي كان فيها الذراع الممدود إلى الأمام معلَّقاً في الهواء، قبل أن ينغرز من جديد، فان الأصابع المتباعدة، المتحدة بفضل ثنية في الجلد، لها شكل غشاء، كان يبدو أنها تنقذف نحو أعالي الفضاء، وتأخذ النجوم! استخدمت، واقفاً على الصخرة، يديّ بمثابة مكبّر صوت، وصرخت، فيما كانت السلاطعين والسراطين تهرب نحو عتمة أخفى الشقوق: «ايه أنت، الذي تتفوق سباحتك على طيران أجنحة عُقاب البحر الطويلة، إذا كنت تفهم بعد معنى صيحات الصوت الكبيرة التي ترسلها الانسانية بقوة بمثابة تعبير أمين عن فكرها الحميم، تفضَّل بالتوقف، لحظة، في مسيرتك السريعة، وخبرني باقتضاب مراحل قصتك الحقيقية. لكني، أحذِّرك بأنك لست بحاجة لأن توجّه لي الكلام، إذا كان هدفك الجريء،

أن تولِّد في الصداقة والتوقير اللذين أحسست بهما نحوك، منذ أن رأيتك، لأول مرة، وأنت تحقق، بلطافة وقوة سمكة القِرش، حجّك الجموح والمستقيم.» تنهيدة، جلّدت عظامي، وجعلت الصخرة، التي كنت أريح عليها أخمص أقدامي، تترنح (هذا إن لم يكن أنا نفسي الذي ترنحت، من جراء التغلغل الخشن للموجات الصوتية، التي كانت تحمل إلى اذني صرخة يأس من هذا النوع) هذه التنهيدة سُمعت حتى أحشاء الأرض: الأسماك غطست تحت الأمواج، بصخب الجرُف الثلجي. مزدوج الطبيعة لم يجرؤ أن يتقدم كثيراً نحو الشاطىء؛ لكنه، ما إن تأكد أن صوته كان يصل بوضوح مقبول إلى طبلة أذني، حتى أنقص حركة أعضائه راحيّة القدمين، بنوع أن تدعم نصفه الأعلى، المغطى بالغمون، فوق الأمواج الساخطة، رأيته يحني جبهته، كما ليبتهل بواسطة أمر احتفالي، إلى السرب التائه لكلاب صيد الذكريات. لم أكن أجرؤ أن أقاطعه في هذا الانهماك، الأثري بشكل مقدس: لقد كان يشبه، غائصاً في الماضي، صخور البحر. أخيراً باشر الكلام بهذه العبارات: «ان أم أربعة وأربعين لا تعدم اعداءً؛ ان الجمال الخارق لقوائمها المتعددة، بدل أن يجذب إليها تعاطف الحيوانات، ليس، ربما، بالنسبة لهم، سوى الحافز القوي لسخط حسود. ولن اتعجب إذا عرفت أن هذه الحشرات تتعرض لأعنف الأحقاد. سأخفي عنك مكان ولادتي، الذي ليس مهمًا بالنسبة لقصتي: لكن العار الذي سيرتد على عائلتي مهم بالنسبة لواجبي. إن أبي وأمي (فليسامحهما الله!)، بعد سنة من الانتظار، رأيا السماء تستجيب لرغبتهما. توأمان، شقيقي وأنا، ظهرا إلى النور. سبب اضافي كي نحبّ بعضنا. الأمر لم يكن على نحو ما تكلمت. لأني كنت الأجمل بين الاثنين والأذكى، حقد أخي علي، ولم يكلف نفسه عناء اخفاء عواطفه: لهذا السبب دفق أبي وأمي علي أكبر قسط من حبهما، فيما كنت أجهد، بواسطة صداقتي المخلصة والدائمة أن أهدىء روع روح، لم يكن من حقها أن تتمرد، ضد ذاك الذي سُحب من نفس اللحم. عندئذ لم يعد أخي يعرف حداً لهيجانه، وتسبّب بهلاكي في قلب والدينا المشتركين، بأبعد الوشايات عن التصديق. لقد عشت، خلال خمسة عشر عاماً، في زنزانة، وكل غذائي يرقانات وماء موحلة. لن أحكي بالتفصيل عن العذابات الخارقة، التي عانيتها، خلالها هذا الحبس الطويل الظالم. أحياناً، في لحظة من النهار، كان أحد الجلّادين الثلاثة، بالمناوبة، يدخل فجأة، مزوّداً بالمشابك والملاقط ومختلف أدوات التعذيب. الصراخات التي كان يقتلعها مني التنكيل لم

تكن لتزعزعهم؛ خسارة دمي الغزيرة كانت تجعلهم يبتسمون. ايه يا أخي، لقد غفرت لك، انت السبب الأول لكل مصائبي! هل من المعقول ان لا يتمكن حتى أعمى أخيراً من أن يفتح عيونه ذاتها! لقد قمت بالكثير من التأملات في سجني الأبدي. ماذا أصبح حقدي العام على الانسانية، انك تحزره. إن الذبول التدريجي، ان عزلة الجسد والروح لم تكن قد أفقدتني بعد كل صوابي، إلى حد أن أضمر الضغينة لاولئك الذين لم أكفّ عن حبهم: غلٌ مثلث كنت عبداً له. لقد توصلت، بالحيلة، إلى استرجاع حريتي! مشمئزاً من سكان القارة، الذين، مع انهم يتلّقبون باشباهي، لا يبدو، حتى الآن انهم يشبهونني في شيء (إذا كانوا يجدون أني اشبههم، فلماذا يسبّبون لي الأذى؟)، وجهت ركضي نحو حصى الشاطىء الملساء، مُقرراً بحزم أن انتحر، إذا قدم لي البحر الذكريات السابقة المبهمة عن حياة مُعاشة بشكل مشؤوم. هل كنت لتصدق عينيك؟ اني، منذ اليوم الذي هربت فيه من المنزل الأبوي، لا اتذمر بمقدار ما تتصور لسكنى البحر ومغاراته البللورية. العناية الالهية، كما ترى، قد اعطتني جزئياً تعضية البجع. اني أعيش بسلام مع الأسماك، وهنّ يزوّدنني بالغذاء الذي أحتاج إليه، كما لو كنت مليكهن. سأطلق تصفيرة خاصة، شرط أن لا يزعجك هذا الأمر، وسترى كيف سيظهرن؟ وحصل ما تنبأ به. استأنف سباحته الملكية، محاطاً بحاشيته من الاتباع. ومع انه، في غضون بضع ثوان، اختفى كلية عن عيوني، فاني استطعت، بفضل منظار، ان أتبيّنه أيضاً، عند آخر حدود الأفق. كان يسبح بيد، ويمسح بالأخرى عيونه، التي حقنها بالدم الإكراه الرهيب في الاقتراب من اليابسة. لقد تصرّف على هذا النحو ليسبب لي السرور. رميت الأداة الكاشفة فوق الانحدار الشاقولي؛ فتواثبت من صخرة إلى صخرة، وشظاياها المبعثرة تلقاها الموج: هذه كانت البرهان الأخير والوداع الأخير، اللذين انحنيت بواسطتهما كما في حلم، أمام ذكاء نبيل ومنكود الحظ! مع ذلك، كل شيء كان واقعياً في ما جرى خلال مساء الصيف ذاك.

- ٨ -

كل ليلة، كنت استدعي ذكر فالمر، غامساً بسطة جناحيّ في ذاكرتي المحتضرة... كل ليلة. شَعره الأشقر، وجهه البيضوي، ملامحه الجليلة كانت لا تزال مطبوعة في خيالي... بطريقة لا تقبل التلف... خاصة شعره الاشقر. إبعدوا، ابعدوا عني اذن هذا الرأس المجرَّد من الشَعر، الصقيل كقوقعة

السلحفاة. كان في الرابعة عشرة، ولم أكن أكبره إلا بسنة واحدة. فليسكت هذا الصوت المفجع. لماذا يأتي للوشاية بي؛ لكن الذي يتكلم هو أنا ذاتي. اني أدرك، مستخدماً لساني الخاص للإعراب عن فكرتي، ان شفاهي تتحرك وان الذي يتكلم هو أنا ذاتي. إن الذي يتكلم هو أنا ذاتي، هو أنا ذاتي، راوياً قصة عن صباي الخاص، وشاعراً بالندم يتسلل إلى قلبي... هو أنا ذاتي، إلا إذا كنت مخطئاً... لم أكن أكبره إلا بسنة واحدة. من هو ذاك الذي المح إليه؟ انه صديق كنت أملكه في غابر الزمان، فيما اعتقد. نعم، نعم، لقد سبق وقلت اسمه... لا أريد أن اتهجأ من جديد هذه الحروف الستة، لا، لا. كما انه ليس من المفيد أن أكرر اني كنت أكبره بسنة. من يدري؟ فلنكرر هذه الحقيقة، مع ذلك، بهمسة مضنية: لم أكن أكبره إلا بسنة واحدة. حتى في هذه الحال، فان تفوق قوتي الجسدية كان بالأحرى سبباً كي اسند، عبر درب الحياة الوعر، ذاك الذي منحني ذاته، لا أن أسيء معاملة كائن ظاهراً اضعف مني. إذ اني اعتقد بالفعل أنه كان أضعف مني... حتى في هذه الحال. انه صديق كنت أملكه في غابر الزمان، فيما اعتقد. ان تفوق قوتي الجسدية... كل ليلة... خاصة شَعره الأشقر. يوجد أكثر من كائن بشري شاهد رؤوساً صلعاء: الشيخوخة، المرض، الألم (الثلاثة معاً أو مأخوذة كلاً على حدة) تفسر هذه الظاهرة السلبية بشكل مُرض. هذا هو، على الأقل، الجواب الذي كان ليجابهني به عالِم، إذا استفهمته حول هذا الموضوع. الشيخوخة المرض، الألم. لكني لا أجهل (أنا، أيضاً، عالِم) اني، ذات يوم، لأنه أوقف لي يدي، لحظة رفعت خنجري لأشقّ نهد امرأة، امسكته من شَعره، بذراع حديدية، وجعلته يدوِّم في الهواء بسرعة، لدرجة أن الشَعر بقي في يدي، وان جسده، المقذوف بالقوة النابذة، راح يصطدم بجذع سنديانة... لا أجهل أن شَعره ذات يوم بقي في يدي. أنا، أيضاً، عالِم. نعم، نعم، لقد سبق وقلت اسمه. لا أجهل اني ذات يوم ارتكبت عملاً دنيئاً، فيما كان جسده مقذوفاً بالقوة النابذة. كان في الرابعة عشرة. عندما أركض، في سورة من الاختلال العقلي، عبر الحقول حاملاً، شيئاً مدمّىً، مضغوطاً على قلبي، احتفظ به منذ أمد بعيد، كذخيرة موقّرة، فان الأولاد الصغار والنساء العجائز الذين يلاحقونني برشقات الحجارة، يرسلون تأوهات مريعة: «هوذا شعر فالمر.» ابعدوا، ابعدوا، ابعدوا اذن هذا الرأس الأصلع، الصقيل كقوقعة السلحفاة... شيء مدمىً. لكن الذي يتكلم هو أنا ذاتي. وجهه البيضوي، ملامحه الجليلة. اذ اني اعتقد بالفعل انه كان أضعف مني. النساء

العجائز والأولاد الصغار. اذ اني اعتقد بالفعل. . . ماذا كنت أريد أن أقول؟ إذ اني اعتقد بالفعل انه اضعف مني. بذراع حديدية. تلك الصدمة، تلك الصدمة هل قتلته. عظامه هل تحطمت على الشجرة. . . بما لا يعوَّض؟ هل قتلته، تلك الصدمة المتولِّدة عن قوة مصارع؟ هل احتفظ بالحياة، مع أن عظامه تحطمت بما لا يعوَّض. . . بما لا يعوَّض؟ تلك الصدمة هل قتلته؟ أخشى أن أعرف هذا الأمر الذي لم تكن عيوني المغمضة شاهدة عليه. بالفعل. . . خاصة شَعره الأشقر. بالفعل، اني أهرب بعيداً بضمير قاسٍ من الآن فصاعداً. كان في الرابعة عشرة بضمير قاسٍ من الآن فصاعداً. كُل ليلة. عندما يلتقط شاب، توّاق إلى المجد، في طابق خامس، منحنياً فوق طاولة عمله، في ساعة منتصف الليل الصامتة، طنيناً لا يعرف إلى ماذا يعزوه، فانه يدير، في كل الجهات، رأسه، المثقل بالتأمل والمخطوطات الغبراء؛ لكن لا شيء، انه لا يفاجىء قرينة واحدة تكشف له عن علة ما يسمعه بكل هذا الخفوت، رغم أنه يسمعه مع ذلك. إنه يدرك أخيراً، ان دخان شمعته، وهو يحلِّق نحو السقف، يسبِّب لصفحة الورق المعلَّقة بمسمار مدقوق على الجدار، اهتزازات لا تكاد تُرى. في طابق خامس. كما أن شاباً توّاقاً إلى المجد، يسمع طنيناً لا يعرف إلى ماذا يعزوه، كذلك اسمع أنا صوتاً شجياً يلفظ في اذني: «مالدورور!» لكنه، قبل أن يضع حداً لخطئه، ظن أنه يسمع أجنحة برغشة. . . منحنياً فوق طاولة عمله. مع ذلك، لست أحلم؛ ماذا يهم أن أكون ممدداً على سريري الأطلسي؟ اني أبدي بثبات الملاحظة الثاقبة وهي أن عيوني مفتوحة، مع انها ساعة الألبسة التقنعية الزهرية والحفلات الراقصة التنكرية. أبداً. . . آه! لا، أبداً. . . لم يُسمع صوت فانٍ نبراته الملائكية، وهو يلفظ، بكل هذه الأناقة المؤلمة، مقاطع اسمي اللفظية! اجنحة برغشة. . . كم صوته متسامح. . . هل غفر لي؟ جسده راح يصطدم بجذع سنديانة. . . «مالدورور!»

(نهاية النشيد الرابع)

النشيد الخامس

- ١ -

يجب أن لا يغضب القارىء مني، إذا كان نثري لا يحظى باعجابه. إنك تزعم أن أفكاري هي على الأقل غريبة. إن ما تقوله هنا، أيها الرجل المحترم، هو الحقيقة؛ لكنها حقيقة متحيزة. وأي مصدر غزير للخطأ وسوء الفهم هو كل حقيقة متحيزة! ان لأسراب الزرازير طريقة خاصة في الطيران، ويبدو أنها تخضع لخطة متسقة ومنتظمة، كتلك التي قد تنتهجها فرقة منضبطة، تطيع بدقة صوت قائد واحد. إن الزرازير تطيع صوت الغريزة، وغريزتها تحملها على الاقتراب دائمًا من وسط الفصيلة، بينما تجرفها سرعة طيرانها دون انقطاع أبعد من هذا المركز؛ بنوع ان هذا السرب من العصافير، وقد جمعهم هكذا نزوع مشترك نحو نفس النقطة الممغنطة، يشكلون، ذاهبين وآيبين دون توقف، دائرين ومتصالبين في كل الاتجاهات، نوعاً من الدوّامة المضطربة للغاية، يبدو أن لكتلتها الكاملة، دون أن تتبع اتجاهاً جد ثابت، حركة عامة في الجولان حول نفسها، تنتج عن الحركات الخاصة في الدوران التابعة لكلٍ من أجزائها، ويكون فيها المركز، الميّال دائمًا إلى الاتساع، انما المعصور دون توقف، والمدفوع بفعل الجهد المضاد للخطوط المحيطة، التي تضغط عليه، مشدوداً دوماً أكثر من أي من هذه الخطوط، التي هي بدورها مشدودة أكثر بنسبة قربها من المركز. رغم هذه الطريقة الغريبة في التدويم، فان الزرازير تشق، بسرعة نادرة، الهواء المحيط، وتربح بشكل محسوس، في كل ثانية، أرضاً ثمينة تدنيها من خاتمة تعبها، وهدف

حجّها. انت، أيضاً، لا تُعرْ انتباهاً إلى الطريقة التي أنشد بها كلًا من هذه المقاطع. بل، كـن على يقين أن نبرات الشِعر الأساسية تحتفظ بحقها الجوهري على ذكائي. دعنا لا نُعمِّم وقائع استثنائية، أنا لا أطلب أفضل: ان مزاجي مع ذلك هو من طبيعة الأمور الممكنة. لا ريب، انه يوجد بين الحدين الأقصيين لأدبك، كما تفهمه، وأدبي، كمية لا متناهية من الوسطاء وسيكون من السهل مضاعفة التقسيمات؛ لكنه لن يكون هناك أي فائدة من جراء ذلك، وسيكون هناك خطر إعطاء ثمة شيء ضيق وخاطىء لمفهوم فلسفي للغاية، يكفّ أن يكون مطابقاً للعقل، عندما لا يعود مفهوماً كما تم تصوره، يعني بشمولية. إنك تعرف أن تقرن الحماس إلى الطوية الباردة، أيها المراقب المنكمش على ذاته؛ الحاصل، فيما يختص بي، أجدك كاملاً... ولا تريد أن تفهمني! إن كنت لست في صحة جيدة، اتبع نصيحتي (انها خير ما أملكه في تصرفك) واذهب قم بنزهة في الريف. بئس التعويض، ما قولك؟ بعد أن تكون قد تنزهت في الهواء الطلق، ارجع لمقابلتي: حواسك ستكون مرتاحة أكثر. كُفّ عن البكاء؛ لم أكن أريد أن أحزنك. أليس صحيحاً، يا صديقي، اني، إلى حدٍ ما، قد كسبت مشاركتك الوجدانية لأناشيدي؟ اذن من يمنعك من عبور باقي الدرجات؟ ان الحدود بين ذوقك وذوقي هي لا مرئية؛ ولن تستطيع قط التقاطها: وهذا دليل على أن هذه الحدود ذاتها ليست موجودة. فَكِّرْ اذن انه عندئذ (اني لا أفعل سوى أن أمسّ الموضوع) لن يكون مستحيلاً أن تكون قد وقعّت معاهدة تحالف مع العناد، الابنة الظريفة للبغل، وهو مصدر غني جداً بالتعصب. لو لم أكن أعرف أنك لست غبياً، لما كنت أوجّه إليك ملامة مماثلة. ليس مفيداً لك أن تتحجر فكرياً في القوقعة الغضروفية لمسلَّمة تظنها لا تتزعزع. يوجد مسلَّمات أخرى أيضاً لا تتزعزع، وتسير بشكل موازٍ مع مسلَّمتك. إذا كان لديك ميل شديد للكرميلة (هرجة مدهشة من الطبيعة)، فان أحداً لن يعدّه جريمة؛ لكن أولئك الذين يفضّل ذكاؤهم الأقوى والخليق بأشياء أعظم، الفلفل والزرنيخ، لديهم أسباب وجيهة ليتصرفوا على هذا النحو، دون أن يكون في نيتهم أن يفرضوا سيطرتهم السلمية على أولئك الذين يرتجفون خوفاً أمام فأر سم أو التعبير الناطق لسطوح مكعّب. اني اتكلم عن خبرة، دون أن أجيء لألعب هنا دور محرِّض. وكما أن الدولابيات والدابَّات يمكن أن تُسخَّن على حرارة قريبة من الغليان، دون أن تفقد بالضرورة حيويتها، كذلك سيكون الحال بالنسبة لك، إذا عرفت أن تهضم بحرص، المُصالة الحريفة المتقيحة التي تتصاعد ببطء من الانزعاج الذي

تسبّبه هذياناتي المثيرة للاهتمام. ماذا، ألم يتوصلوا إلى تطعيم ظهر فأر حي بالذنب المنزوع من جسد فأر آخر؟ حاول بالمثل أن تنقل إلى خيالك مختلف تغييرات عقلي الجثي. لكن كن حذراً. في الساعة التي أكتب فيها، ثمة رعشات جديدة تجوب الجو الفكري: ما علينا إلا أن نملك الشجاعة كي ننظر إليها وجهاً لوجه. لماذا تعمل هذه التكشيرة؟ انك تُرفقها حتى بحركة لن نستطيع تقليدها إلا بعد مران طويل. كن على يقين أن العادة ضرورية في كل شيء؛ وبما أن النفور الغريزي، الذي ظهر منذ الصفحات الأولى، قد خفّ عمقه كثيراً، عكساً للاكباب على القراءة، كدملة نفقؤها، فيجب أن نؤمل، مع أن رأسك لا يزال مريضاً، ان شفاءك لن يتأخر أكيداً عن الدخول في طوره الأخير. برأيي، مما لا ريب فيه أنك تسبح منذ الآن في ملء النقاهة، مع ذلك، ظل وجهك ضامراً للغاية، للأسف! لكن. . . تشجع! يوجد فيك روح غير عادية، اني أحبك، ولا أيأس من انقاذك التام، شرط أن تبتلع بعض المواد العلاجية؛ التي لن تفعل سوى أن تعجّل في اختفاء آخر عوارض المرض. كغذاء قابض ومنشط، ستقتلع أولاً ذراعيّ أمك (إذا كانت موجودة بعد)، ستفسخهما إلى قطع صغيرة وستأكلهما بعد ذلك، في نهار واحد، دون أن تفضح أي من قسمات وجهك انفعالك. إذا كانت أمك جد هرمة، اختر جسماً جراحياً، أكثر صبا ونضارة، يكون للمكشط تأثير عليه، وتتخذ عظامه الرسغية بسهولة، عندما يمشي، نقطة ارتكاز لتكوين القبّان: اختك مثلاً. لا استطيع أن امتنع عن الرثاء لمصيرها، ولست من أولئك الذين لا يفعل الحماس البارد جداً فيهم سوى التظاهر بالطيبة. أنت وأنا، سنسكب من أجلها، من أجل هذه العذراء الحبيبة (لكن ليس لدي البراهين لاثبت أنها عذراء)، دمعتين غير قابلتين للانحباس، دمعتين من رصاص. وهذا كل شيء. إن أفضل دواء جَروع مُسكّن، انصحك به، هو حوض، مليء بالقيح التعقيبي ذي العجمات، نكون قد اذبنا فيه دملة وبرية من المبيض، قرحة جرابية، قلفة ملتهبة، مقلوبة إلى وراء الحشفة بثلاث بزاقات حمراء. إذا اتبعت وصفاتي، فان شِعري سيستقبلك بذراعين مفتوحتين، كقملة مبتورة، مع قبلاته، جذر شعرة.

- ٢ -

كنت أرى، أمامي، جسماً واقفاً فوق أكمة. لم أكن أتبين بوضوح رأسه؛ لكني كنت أحزر، منذ الآن، انها لم تكن عادية الشكل. دون أن أعيّن، مع ذلك

حجم حدودها المضبوط. لم أكن أجرؤ ان اقترب من هذا العمود الجامد؛ وحتى لو كانت تحت تصرفي القوائم الدوّارة لأكثر من ثلاثة آلاف سلطعون (لا أتحدث حتى عن القوائم التي تُستخدم لإمساك ومضغ الأغذية)، لكنت بقيت أيضاً في نفس الموضع، لولا أن حادثة، تافهة جداً بحد ذاتها، استنزلت جزية باهظة على فضولي، الذي كان يقضقض سدوده. جعران كان يتقدم بخطوة سريعة نحو الأكمة المذكورة، مدحرجاً على الأرض، بمخاطمه وقرون استشعاره، كرةً تتألف أهم عناصرها من مواد غائطية، دائباً على أن يوضح جيداً رغبته في سلوك هذا الاتجاه. إن هذا الحيوان المفصلي لم يكن أكبر بكثير من بقرة! إذا كنتم تشكون فيما أقوله، تعالوا إليّ، وسأرضي أكثركم تشككاً بشهادة شهود جيدين. تبعته عن بُعد، وقد أثير فضولي علانيةً. ماذا كان يريد أن يفعل بهذه الكرة الضخمة السوداء؟ ايه أيها القارىء، أنت الذي تتبجح دون انقطاع بحدة ذهنك (وليس عن ضلال)، هل ستكون قميناً بأن تقوله لي؟ لكني لا أريد أن أُخضع هوسك المعروف بالألغاز لهذا الاختبار القاسي. بحسبك أن تعرف أن أعذب قصاص استطيع انزاله بك، هو أيضاً ان أجعلك تلاحظ أن هذا السر الخفي لن يُكشف لك عنه (ولسوف يُكشف لك عنه) إلا فيما بعد، في نهاية حياتك، عندما ستشرع في مناقشات فلسفية مع الاحتضار على حافة وسادتك . . . وربما حتى في نهاية هذا المقطع. الجعزان كان قد وصل إلى أسفل الأكمة. كنت قد اقتفيت آثاره، وكنت لا أزال على مسافة كبيرة من مكان الحادث؛ إذ، كما أن طيور الكركر، القَلِقة كما لو كانت دائمًا جائعة، تطيب لها الاقامة في البحار التي تحيط بالقطبين، ولا تتقدم إلا بصورة عَرَضية في المناطق المعتدلة، كذلك أنا لم أكن مطمئناً، وكنت أحمل ساقيّ إلى الأمام بكثير من البطء. لكن ماذا كانت اذن المادة الجسدية التي كنت أتقدم نحوها؟ كنت أعرف أن عائلة البجعيات تشمل أربعة أنواع متميزة: الاطيش، الحوصل، الغاق، عُقاب البحر. الشكل الرمادي الذي كان يظهر لي لم يكن أطيشاً. الكتلة المطاطة التي كنت ألمحها لم تكن عُقاب بحر. اللحم المبلور الذي كنت أراقبه لم يكن غاقاً. كنت أراه الآن، الرجل ذو المخ المجرَّد من الناشزة الحَلَقية! كنت أبحث بغموض، في طيات ذاكرتي، في أي صقع حار أو بارد، سبق لي ولاحظت هذا المنقار الطويل للغاية، العريض، المحدب، بقبة، بارزة النتوء، مظفورة، منتفخة، ومعقوفة جداً عند طرفها؛ هذه الحوافي المخرَّمة، المستقيمة؛ هذا الفك الأسفل، ذا الأغصان المتباعدة حتى قرب الرأس؛ هذا الفاصل المملوء بجلد غشائي؛ هذه الجيبة الواسعة الصفراء

والكيسية الشكل، التي تشغل كل الحلق وتستطيع أن تتمدد كثيراً؛ وهذين المنخارين الضيقين جداً الطوليين، غير المحسوسين تقريباً، والمحفورين في ثلم قاعدي! لو ان هذا الكائن الحي ذا التنفس الرئوي والبسيط، ذا الجسد المغطى بالوبر، كان عصفوراً كاملاً حتى أخمص قدميه، وليس فقط حتى كتفيه، لما تعذر عليَّ كثيراً عندئذ التعرف عليه: هذا أمر سهل الانجاز للغاية، كما سترون ذلك بأنفسكم. إلا أني، هذه المرة، اعتذر عن هذا العمل؛ من أجل وضوح برهاني، سأحتاج إلى أن يوضع أحد هذه العصافير على طاولة عملي، حتى لو لم يكن إلا مُصبَّراً. لكني لست غنياً بما فيه الكفاية لأحصل على واحد. لكنت، متعقباً خطوة خطوة فرضية سابقة، عيّنت فوراً لذاك الذي كنت أعجب بنبله في تركيبه المَرَضي، طبيعته الحقيقية ووجدت له مكاناً، في نطاقات التاريخ الطبيعي. بأي رضى نابع من كوني لست جاهلاً تماماً أسرار تعضيته المزدوجة، وبأي شراهة للتعرف إلى المزيد، كنت أتأمله في انمساخه المستديم! مع أنه لم يكن يملك وجهاً بشرياً، فانه كان يبدو لي جميلاً كشعيرتي حشرة مجسيتي الشكل؛ أو بالأحرى كدفن سريع؛ أو أيضاً كقانون اعادة انشاء الأعضاء المبتورة؛ وخاصة، كسائل قابل جداً للنتن! لكن الغريب كان ينظر دائماً أمامه، برأسه البجعي، دون أن يعير أي انتباه لما كان يجري حوله! في يوم آخر، سأستأنف نهاية هذه القصة. مع ذلك، سأكمل سردي بتعجل كئيب؛ لأنكم، إذا كنتم، من ناحيتكم، تتلهفون لمعرفة إلى أين يريد خيالي أن يصل (نرجو السماء أن لا يعدو الأمر بالفعل أن يكون خيالاً)، فلقد قررت، من ناحيتي، أن انهي في دفعة واحدة (لا في دفعتين!) ما كان عليَّ أن أقوله لكم. مع أنه لا يحق لأحد أن يتهمني بالافتقار إلى الشجاعة. لكن عندما نوجد في حضرة ظروف مماثلة، فان أكثر من واحد يشعر بنبضات قلبه تخفق في راحة يده. لقد مات لتوه، مجهولاً تقريباً، في مرفأ صغير من بريتانيا، معلم مُساحل، نوتي قديم، كان بطل قصة رهيبة. كان حينذاك ربّاناً لرحلات بحرية طويلة، وكان يسافر لحساب صاحب سفينة من سان ـ مالو. فبعد غياب ثلاثة عشر شهراً، وصل إلى عش الزوجية، حين كانت زوجته، طريحة الفراش بعد، قد أعطته لتوها وريثاً، لم يعرف لنفسه فيه أي حق لدى التعرف إليه. الربّان لم يُظهر شيئاً من انذهاله وغضبه؛ رجا امرأته ببرود أن ترتدي ثيابها، وان تصطحبه في نزهة على أسوار المدينة. كنا في كانون الثاني. إن أسوار سان ـ مالو مرتفعة، وعندما تصفّر ريح الشمال، فان الأكثر اقداماً يتراجعون. الشقية اطاعت، هادئة ومذعنة؛ لدى إيابها احتضرت. ماتت في

الليل. لكنها لم تكن سوى امرأة. بينما أنا، الرجل، لا أعرف، في حضرة مأساة لا تقل ضخامة، إذا كنت أحتفظ بما يكفي من السيطرة على نفسي، كي تبقى عضلات وجهي جامدة! عندما وصل الجعران إلى أسفل الأكمة، رفع الرجل ذراعه نحو الغرب (في هذا الاتجاه بالضبط، كان نسر الحملان وبوهة فرجينيا قد اشتبكا في معركة في الأجواء)، مسح عن منقاره دمعة طويلة كانت تعرض نمطاً من التلوين المتألق كالألماس، وقال للجعران: يا للكرة الشقية! ألم تدحرجها وقتاً كافياً؟ ألم يرتوِ انتقامك بعد؟ لقد سبق لهذه المرأة، التي أوثقت، بعقود من اللؤلؤ، ساقيها وذراعيها، بنوع أن تحقق صفًّاحاً عديم الشكل، كيما تجرّها برسغيك، عبر الأودية والدروب، فوق الأشواك والأحجار (دعني اقترب لأرى إذا كانت لا تزال هي ذاتها!) لقد سبق لها أن رأت عظامها تتقعر بالجراح، أعضاءها تنصقل بفعل القانون الميكانيكي للاحتكاك الدوراني، وتتمازج في وحدة التخثر، وجسدها يعرض، بدل الرسوم الأولية الأصلية والخطوط المنحنية الطبيعية، المظهر الرتيب لكلٍ أوحد متجانس لا يشبه إلا كثيراً، بالتباس مختلف عناصره المجروشة، كتلة كرة! لقد ماتت منذ أمد بعيد؛ أترك رفاتها للتربة، وحاذر أن تضاعف، إلى أحجام لا تعوَّض، الغضب الذي يُضنيك: هذا لم يعد عدلاً؛ لأن الأنانية المختبئة في غشاءات جبينك ترفع ببطء، كشبح، الجوخ الفضفاض الذي يحجبها». نسر الحملان وبوهة فرجينيا، كانا قد اقتربا منا، محمولين بشكل غير محسوس، على تقلبات صراعهما. الجعران ارتعش أمام هذه العبارات غير المنتظرة، وما كان، في مناسبة أخرى، ليكون حركة بلا معنى، أصبح، هذه المرة، الدليل المميز على هيجان لم يعد يعرف حدوداً؛ لأنه حكّ بشكل مخيف أفخاذه الخلفية على حافة أغماده مُسمعاً ضجة حادة: «من أنت اذن، أيها الكائن الرعديد؟ يبدو أنك نسيت بعض التطورات الغريبة لغابر الأزمنة؛ انك لا تحفظها في ذاكرتك، يا أخي. هذه المرأة قد خانتنا، الواحد بعد الآخر. انت الأول، وأنا الثاني. يبدو لي ان هذه الاهانة لا يجب (لا يجب!) ان تختفي من الذاكرة بهذه السهولة. بهذه السهولة! انت طبيعتك الشهمة تسمح لك بأن تغفر. لكن هل تعلم إذا كانت ليست موجودة بعد، رغم الوضع غير الطبيعي لذرات هذه المرأة، التي تحوَّلت إلى عجين معجن (لا مجال الآن لمعرفة إذا كان يخيل الينا، لدى أول تقصٍ، ان هذا الجسد قد ازداد بكمية جديرة بالذكر من الكثافة، لا بفعل جهود هواي الوثاب، بل بالأحرى بعامل تشابك عجلتين قويتين؟ اسكت، واسمح لي أن انتقم.» استأنف لعبته، وابتعد، الكرة

مدفوعة أمامه. عندما أصبح بعيداً، هتف الحوصل: «هذه المرأة؛ قد أعطتني، بقدرتها السحرية، رأس كفيّ قدم، وحوَّلت أخي إلى جعران: لعلها تستحق أيضاً معاملات أسوأ من تلك التي ذكرتها لتوي». وأنا، الذي لم أكن أكيداً اني لست أحلم، وقد حزرت، بفضل ما سمعته، طبيعة العلاقات العدائية التي كانت تجمع، فوق رأسي، في صراع دموي، نسر الحملان وبوهة فرجينيا. القيت، كاسكيم، رأسي إلى الوراء، كيما أمنح، لعبة رئتيّ، اليسر والمرونة النزقين، وصحت بهما، موجِّهاً عيوني نحو الأعالي: «انتما الآخران، اوقفا نزاعكما. معكما حق انتما الاثنان؛ لأنها وعدت كلاً منكما بحبها، وبالتالي لقد خدعتكما معاً. لكنكما لستما الوحيدين. بالاضافة إلى ذلك، لقد جرَّدتكما من شكلكما الانساني، متخذة لها من أقدس آلامكما لعبة شريرة. وقد تترددان في تصديقي! من جهة أخرى لقد ماتت؛ والجعران قد أخضعها لقصاص لا تُمحى بصمته، رغم شفقة المخدوع الأول». عند هذه الكلمات، وضعا حداً لخلافهما، ولم يعودا يقتلعان لبعضهما الريش، ولا مِزَق اللحم: ولقد كانا على حق في ان يتصرفا على هذا الشكل. بوهة فرجينيا الجميلة كمذكرة حول الخط المنحني الذي يرسمه كلب وهو يركض وراء سيده، اختفت في صدوع دير منهار. نسر الحملان، الجميل كقانون توقيف نمو الصدر عند البالغين الذين ليس النزوع إلى النمو عندهم على تناسب مع كمية الجزيئات التي يهضمها جهازهم العضوي، اختفى في طبقات الجو العليا. الحوصل الذي سبَّب لي عفوه الكريم الكثير من الانفعال، كان ينظر دائماً أمامه، مسترجعاً فوق أكمته برود المنارة الجليل، كما لينذر الملّاحين البشريين أن ينتبهوا إلى قدوته، ويصونوا مصيرهم من حب الساحرات القاتمات. الجُعَلُ الجميل كرعشة اليدين في الكحولية ، اختفى على الأفق. أربع حيوات اضافية كان يمكن شطبها من كتاب الوجود. اقتلعت عضلة بكاملها من ذراعي الأيسر، لأني لم أعد أعرف ما كنت أفعله، لفرط ما وجدتني متأثراً أمام هذه المصيبة الرباعية. وأنا الذي كنت أظنها مواد غائطية. يا لي مز أحمق كبير، رُحْ.

- ٣ -

إن الفناء المتناوب للمَلَكات البشرية: مهما مال فكرك إلى افتراضه، ليس مجرد كلمات. على الأقل، ليس كلمات مثل الكلمات الأخرى. فليرفع يده، ذاك الذي قد يظن انه ينجز فِعل عدالة، حين يرجو جلّاداً ما أن يسلخه حياً. فليرفع

رأسه، مع شهوة الابتسام الحسية، ذاك الذي قد يهب صدره طوعاً لرصاصات الموت. ستبحث عيناي عن علامة الندبات؛ ستركز اصابعي العشر كامل انتباهها لتجسّ بحرص لحم هذا المرء الغريب الأطوار؛ سأتثبت من أن تلطيخات النخاع قد تدفقت على أطلس جبيني. أليس أن انساناً، عاشقاً لاستشهاد مماثل، قد لا يكون موجوداً في الكون بكامله؛ إني لا أعرف ما هو الضحك هذا صحيح، بما أني لم اختبره بنفسي قط. مع ذلك، أي تهور سينطوي عليه التأكيد بأن شفاهي لن تتسع إذا قُيض لي أن أشاهد ذاك الذي قد يدّعي ان هذا الانسان موجود، في جهة ما؟ ان ما قد لا يتمناه أحد لوجوده الخاص، قد آل إلي بموجب قسمة غير متساوية. لا بمعنى أن جسدي يسبح في بحيرة الألم؛ هيهات. لكن روحي تجفّ بفعل تفكير مكثّف ومشدود دوماً؛ انها تصرخ كضفادع مستنقع، عندما تأتي فرقة من النحّام والبلشون الجائعة تحط على أسلات ضفافه. سعيد من ينام بسكون في سرير من الريش، المنتزع من صدر بط العَيْدر، دون أن يلاحظ انه يخون نفسه. ها اني، منذ أكثر من ثلاثين سنة، لم أنم بعد. منذ يوم ولادتي الذي لا يُلفظ، نذرت لألواح الخشب المنوِّمة حقداً لدوداً. أنا أردت ذلك؛ لا نوجّهن الاتهام إلى أحد. تجردوا بسرعة من الشك المُجهض. هل تتبيّنون، على جبيني، هذا الاكليل الشاحب؟ ان الذي ضفره بأنامله الناحلة هو العناد. طالما أن بقية من نسغ ملتهب ستجري في عظامي، لن أنام. كل ليلة، أجبر عيني الكابية على الشخوص إلى النجوم، عبر مربعات النافذة. ولكي أكون أكيداً من نفسي أكثر، فان شظية من الخشب تباعد بين جفوني المتورّمة. عندما يظهر الفجر، فانه يلقاني في نفس الوضع، الجسد متكىء عامودياً، ومنتصب على جصّ الجدار البارد. مع ذلك، يحصل لي أحياناً أن أحلم، لكن دون أن أفقد لحظة واحدة الشعور الحي بشخصيتي والمَلَكة الحرة في التحرك: أعلموا أن الكابوس الذي يختبىء في زوايا الظل الفوسفورية، والحمىّ التي تجسّ وجهي بجدعتها، كل حيوان دنس يرفع مخلبه الدامي، حسناً، ان عزمي هو الذي يجعلها تلفّ في دائرة، كيما يعطي نشاطه الدؤوب غذاءً ثابتاً. وبالفعل، ان حرية الاختيار، وهي ذرة تنتقم في قصارى ضعفها، لا تخشى أن تؤكد، بسلطة جبارة، انها لا تحصي البلاهة في عداد ابنائها: ان الذي ينام هو أقل من حيوان تم اخصاؤه عشيةً. مع أن السهاد يجرّ، نحو أعماق الحفرة، هذه العضلات التي ينبعث منها منذ الآن رائحة سرو، فان ديماس ذكائي الأبيض لن يفتح قط محاريبه لعيون الخالق. ثمة عدالة خفية ونبيلة، اندفع نحو ذراعيها

الممدودتين غريزياً، تأمرني أن أحوش دون هوادة هذه العقوبة الدنيئة. إني، عدواً مخيفاً لروحي الطائشة، أحظّر على حقوّي المنكوديّ الحظ أن يضجعا فوق ندى الأرض المعشبة، في الساعة التي يضيئون فيها فانوساً على الساحل. اني، منتصراً، ارفض أحابيل الخشخاش الخبيث. من الأكيد، بالتالي، ان قلبي، ذلك الجائع الذي يأكل نفسه، قد اخفى نواياه بفضل هذا الصراع الغريب. أنا، عصياً على الفهم مثل العمالقة، عشت دون انقطاع مع اتساع العينين الفاغر. لقد اتضح، على الأقل، انه خلال النهار، كل واحد يستطيع أن يجابه بمقاومة مجدية «الموضوع الكبير الخارجي» (من لا يعرف اسمه؟)؛ لكن ما أن ينتشر حجاب الأبخرة الليلية، حتى على المحكومين الذين سيتم شنقهم، آه! رؤية عقلنا بين اليدين المدنستين لغريب. مبضع شرس ينقب علّيقات عقلنا الكثيفة. ضميرنا يصاعد حشرجة لعنة طويلة؛ لأن حجاب حشمته يتلقى تمزيقات قاسية. يا للخزي! بابنا مفتوح للفضول العاتي للص السماوي. إني لم استحق هذا التعذيب الكافر، انت، يا جاسوس سببيتي البشع! إذا كنت أوجد، فاني لست شخصاً آخر. اني لا أقبل في هذا التعدد الملتبس. أريد أن أقطن وحدي في منطقي الحميم. الاستقلال... أو فليحولوني إلى فرس نهر. تواريّ تحت الأرض، أيتها الندبة المغفلة، ولا تعودي قط إلى الظهور أمام نقمتي الوحشية. ذاتيتي والخالق هذا كثير على دماغ. عندما يعتم الليل مجرى الساعات، من هو ذاك الذي لم يكافح ضد تأثير النوم، في مضجعه المبلل بعرق جليدي؟ إن هذا السرير، الذي يجذب إلى حضنه المَلَكات الميتة، ليس سوى قبر مكوّن من الواح خشب الصنوبر المربع. الارادة تنسحب بشكل غير محسوس، كما لو أنها في حضرة قوة لا منظورة. زفت لزج يثخن عدسة العيون. الجفنان يبحثان عن بعضهما كصديقين. الجسد ليس بعد سوى جثة تتنفس. أخيراً أربعة أوتاد ضخمة تسمّر على الفراش مجموع الأعضاء. ولاحظوا، أرجوكم، ان الشراشف إجمالاً ليست سوى أكفان. هوذه مجمرة العطور التي يحترق فيها بخور الأديان. الأبدية تجأر، كبحر بعيد، وتقترب بخطى كبيرة. الشقة اختفت: اسجدوا، أيها الآدميون في المصلى الحار! أحياناً تدرك الحاسة المغنطة بدهشة، جاهدة دون جدوى للتغلب على أثقل نوم، إنها لم تعد سوى كتلة من رمس، وتفكر على نحو معجب، مستندة إلى حدة ذهن لا تُضاهى: «الخروج من هذا المضجع هو مشكلة عويصة أكثر مما تتصورون. إنهم يجرّوني على عربة نقل نحو عموديّ المقصلة الاثنين. أمر عجيب، ذراعي الجامدة ماثلت بمهارة صلابة

قاعدة البناء. سيىء جداً أن نحلم أننا نمشي إلى منصة الاعدام.» الدم يجري سيولاً طويلة عبر الوجه. الصدر يحقق انتفاضات متكررة، وينتفخ بشخيرات. ثقل مسلّة يخنق امتداد الغضب. الواقع دمّر أحلام النعاس. من لا يعلم، أن العقل المتهلّس يفقد التمييز، عندما يطول الصراع بين الأنا الزاخر بالعنفوان، والنمو الرهيب للتخشب؟ انه، وقد أضناه اليأس، يستعذب وجعه، إلى أن يكون قد قهر الطبيعة، وإلى أن يكون النوم، مُبصراً فريسته تفلت منه، قد هرب بلا رجعة بعيداً عن قلبه، بجناح ساخط وخجلان. انثروا القليل من الرماد على محجري الملتهب. لا تشخصوا إلى عيني التي لا تغمض قط. هل تفهمون الآلام التي أعانيها (مع ذلك، كبريائي راضية)؟ ما إن يحضّ الليل الآدميين على الراحة، حتى يمشي رجل، أعرفه، بخطى كبيرة في الريف. أخشى ان يرزح قراري تحت مطاعن الشيخوخة. فليأتِ هذا اليوم المحتوم، الذي قد أنام فيه! عند اليقظة ستبرهن شفرتي، وهي تشق طريقاً عبر عنقي، انه بالفعل لم يكن هناك ثمة ما هو أكثر واقعية من هذا الأمر.

- ٤ -

ألا من اذن!... من اذن يجرؤ، هنا، كمتآمر، أن يجرّ حلقات جسده نحو صدري الأسود؟ كائنةً من كنتِ، أيتها الأصلة الشاذة، بأي ذريعة تبررين حضوركِ السخيف؟ هل يضنيكِ ندم ضخم؟ إذ، أترين، أيتها الأصلة، ليس لجلالك الوحشي، فيما افترض، الادعاء المفرط في التملص من المقارنة التي أعقدها بينه وبين ملامح المجرم. إن هذا اللعاب المزبد والأبيض هو، في نظري، العلامة على الغضب. اسمعيني: اتعلمين أن عينكِ هي بعيدة عن ان تشرب شعاعاً سماوياً؟ لا تنسي انه اذا كان مُخكِ المزهو قد ظنني جديراً بأن أقدم لك بعض عبارات التعزية، فهذا لا يمكن أن يكون إلا بدافع الجهل المجرَّد كلية من المعارف الفِراسية. وجّهي، خلال وقت، طبعاً، كافٍ، ضياء عينيكِ نحو هذا الذي يحق لي، مثل غيري، ان اسميه وجهي! ألا ترين كم يبكي؟ لقد اخطأتِ أيتها المَلِيْكة. من الضروري أن تبحثي في مكان آخر عن شحنة العزاء البئسة، التي حذفها لكِ عجزي الجذري، رغم احتجاجات حسن نيتي العديدة. آه، أية قوة، يمكن التعبير عنها بجُمل، جرّتك بصورة محتومة نحو هلاككِ؟ إنه لمن المستحيل تقريباً أن أعتاد على هذا المنطق في أنكِ لا تفهمين اني قد استطيع، مُلصقاً على الأرض المعشبة الحمراء، بضربة من كعبِ حذائي،

الخطوط المنحنية لرأسك المثلّث الزوايا، ان أعجن صمغاً لا يُسمى من عشب المفازة ولحم المسحون.

توارَ بأسرع ما يمكن بعيداً عني، أيها المذنب المتقع الوجه! ان سراب الترويع المكّار قد أظهرك على شبحك ذاته! بدّد شكوكك الشائنة، إذا كنت لا تريد أن اتهمك بدوري، وأن أرفع عليك دعوى مضادة ستكون بلا ريب مقبولة من محكمة طير النصيب آكل الزواحف. أي ضلال مخيلة هائل يمنعك من التعرّف علي! انك لا تذكر اذن الخدمات المهمة التي أسديتها لك، بعطية حياة جعلتها تنبثق من السديم، ومن جهتك، النذر، الذي لا يُنسى إلى الأبد، في أن لا تتخلى عن بيرقي، كيما تظل وفياً لي حتى الموت؟ عندما كنتَ طفلاً (كان ذكاؤك حينذاك في أجمل أطواره)، كنت أول من يتسلق الرابية، بسرعة حيوان الشموا، لتحيي، بحركة، من يدك الصغيرة أشعة الفجر الوليد المتعددة الألوان. إن علامات صوتك الموسيقية كانت تنبثق من حنجرتك الرنانة، كلآلىء ألماسية، وتذيب شخصيتها الجماعية، في الادماج المتذبذب لنشيد عبادة طويل. إنك، الآن، تطرح تحت أقدامك، كأسمال ملطّخة بالوحل، رحابة الصدر التي تبديت أنا عنها زماناً طويلاً جداً. عرفان الجميل رأى جذوره تجفّ، كقاع مستنقع؛ لكن الطموح نما محله بأحجام قد يكون من العسير علي أن أنعتها. من هو ذاك الذي يسمعني، كيما تكون له كل هذه الثقة في ضعفه الخاص؟

ومن أنتِ، أنتِ ذاتكِ، أيتها الماهية الجريئة؟ لا!... لا!... إني لا أخطىء؛ ورغم الانمساخات العديدة التي تلجئين إليها، فان رأسكِ الأفعواني سيلتمع دائماً أمام عيوني كمنارة للظلم الأبدي، وللعنة القاسية. لقد شاء أن يمسك بأعنّة القيادة، لكنه لا يعرف أن يحكم! لقد شاء أن يصبح موضوع رعب لكل كائنات الخليقة، ولقد أفلح في ذلك. لقد شاء أن يبرهن أنه هو مَلك الكون، وهذا ما أخطأ به. ايه أيها الشقي! هل انتظرت حتى هذه الساعة كي تسمع التذمرات والمؤامرات، التي تأتي، متصاعدة في آن واحد عن سطح الأفلاك، لتجاحف بجناح عاتٍ حوافي طبلة اذنك القابلة للهدم؟ ليس بعيداً اليوم، الذي سيقلبك فيه ذراعي في الغبار، المسمَّم بتنفسك، ويترك على الطريق، منتزعاً من أحشائك حياة ضارة، جثثك، المثقوبة بالتشنجات، ليلقّن المسافر المذعور، ان هذا اللحم المختلج، الذي يبهر نظره بالدهشة، ويسمّر

لسانه الأخرس في حنكه، لا يجب بعد أن يُقارن، إذا احتفظنا برباطة جأشنا، سوى بجذع سنديانة متعفن، اسقطه البلى! أي فكرة شفقة تبقيني أمام حضورك؟ أنت ذاتك، تقهقهر بالأحرى أمامي، قلت لك، واذهب اغسل عارك اللاقياسي في دم طفل وُلد لتوه: هذه هي عاداتك. انها خليقة بك، اذهب. . . سِرْ دائمًا إلى الأمام. إني أحكم عليك بأن تصبح تائهاً. إني أحكم عليك بأن تبقى وحيداً وبدون عائلة. امشِ باستمرار، كيما تضنّ عليك ساقاك بدعمهما. اعبر رمال الصحاري إلى أن تبتلع نهاية العالم النجوم في العدم. عندما سوف تمر قرب وجار النمر، فانه سيسارع إلى الهرب، كي لا ينظر، كما في مرآة، إلى طبعه المرفوع فوق قاعدة الانحراف المثالي. لكن عندما سوف يأمرك التعب القهري بأن توقف مسيرتك أمام بلاطات قصري، المغطاة بالعواسج والأشواك، انتبه إلى نعليك المزقين، واعبر، على رؤوس الأصابع، أناقة الأروقة. هذه ليست توصية عديمة الجدوى. إنك قد توقظ زوجتي الشابة وابني الحدث؛ الراقدين في أقبية الرصاص التي تحاذي أساسات قصري القديم. إذا لم تأخذ احتياطاتك سلفاً، فانهما قد يستطيعان أن يجعلاك تمتقع بصياحاتهما الديماسية. عندما سلبتهما مشيئتك الغامضة الحياة، لم يكونا يجهلان أن قدرتك مخيفة، ولم يكن يراودهما ادنى شك في هذا الصدد؟ لكنهما لم يكونا يتوقعان (ووداعاتهما الأخيرة أيدت لي أعتقادهما) ان عنايتك الالهية قد تتبدى عديمة الشفقة إلى هذه الدرجة! مهما كان، أعبر بسرعة هذه القاعات المهجورة والصامتة، ذات التسقيفات الزمردية، انما ذات شعارات النبالة الذاوية، حيث تستريح تماثيل أجدادي المجيدة. إن هذه الأجساد الرخامية ساخطة عليك؛ تجنّب نظراتها الكابية. هذه هي النصيحة التي يسديها اليك لسان سليلهم الوحيد والأخير. انظر كيف ذراعهم مرفوعة في وضع الدفاع الاستفزازي، ورأسهم مقلوبة بإباء إلى الوراء. أكيد انهم حزروا الأذى الذي الحقته بي؛ واذا مررت على مرمى قاعدات التماثيل المتجلّدة التي تدعم هذه الكتل المنحوتة، فان الانتقام ينتظرك هناك. إذا كان دفاعك يحتاج إلى الاعتراض عليَّ بشيء، تكلّمْ. لقد تأخر كثيراً وقت البكاء الآن. كان يجب أن تبكي في لحظات ملائمة أكثر، عندما كانت الفرصة سانحة. إذا كانت عيونك قد تفتحت أخيراً، أحكم بنفسك على عواقب سلوكك. وداعاً! إني أذهب لاتنشق نسيم الشواطىء الصخرية؛ لأن رئتيّ نصف المختنقتين، تطلبان بصرخات مدوية مشهداً أكثر هدوءاً وأكثر فضيلة من مشهدك!

ايه أيها اللوطيون المبهمون، لست أنا من قد يقذف بالشتائم انحطاطكم الكبير؛ لست أنا من قد يأتي ليلقي الاحتقار على شرجكم القمعي الشكل. يكفي أن الأمراض المشينة، وغير القابلة للشفاء تقريباً، التي تحاصركم، تحمل في ذاتها عقوبتها المحتومة. يا مشترعي مؤسسات غبية، مخترعي علم أخلاق ضيق، ابتعدوا عني، لأني روح منصفة. وانتم، أيها المراهقون اليافعون، أو بالأحرى أيتها الفتيات، أشرحوا لي كيف ولماذا (لكن قفوا على مسافة ملائمة، لأني، أنا أيضاً، لا أستطيع أن أقاوم شهواتي) نبت الانتقام في قلوبكم، حتى علّقتم على كشح الانسانية مثل هذا الاكليل من الجراح. انكم تجعلونها تحمرّ بابنائها بسلوككم (الذي، أنا، أوقّره!)؛ إن دعارتكم، التي تهب نفسها لأي شخص كان، تمارس منطق أعمق المفكرين، في حين أن حساسيتكم المبالغ فيها تجاوز حد ذهول المرأة ذاتها. هل انتم من طبيعة أقل أو أو أكثر أرضية من أشباهكم؟ هل تملكون حاسة سادسة تنقصنا؟ لا تكذبوا، وقولوا ما تفكرون به. لست أطرح عليكم سؤالاً؛ لأني، منذ أن رحت أعاشر، كمراقب، سمو عقولكم العظيمة، أعرف بماذا أتمسك. فلتبارككم يدي اليسرى، فلتقدسكم يدي اليمنى، أيها الملائكة، الذين يحميهم حبي الكوني. إني أقبِّل وجهكم، اني اقبِّل بشفاهي اللذيذية، مختلف أنحاء جسمكم المتناسق والمعطّر. لماذا لم تقولوا لي رأساً من أنتم، أيها التبلورات السامية لجمال خُلقي متفوق؟ كان عليَّ أن أحزر بنفسي كنوز الحنان والعفة اللا تُعد، التي تنطوي عليها خفقات قلبكم المقهور. أيها الصدر المزيّن بأكاليل الزهور ونجيل الهند. كان علي ان افتح قليلاً سيقانكم لكي أعرفكم وان يتعلّق فمي بشارات حشمتكم. لكن (تنبيه هام) لا تنسوا أن تغسلوا كل يوم جلد أعضائكم، بالماء الساخنة، وإلا فان أمراضاً زهرية ستنبت بلا ريب على ملتقى شفتيّ المشرومتين الظامئتين. آه لو أن الكون، بدل أن يكون جحيمًا لم يكن إلا شرجاً سماوياً هائلاً، انظروا الحركة التي أقوم بها باتجاه أسفل بطني: نعم لكنت أغرز قضيبي، عبر مصارته الدامية، محطمًا، بحركاتي العنيفة، جدران حوضه النقية! وما كان للشقاء عندئذ أن ينفث على عيوني المعمية، كثباناً بكاملها من الرمل المتحرك؛ لكنت اكتشف الموضع الديماسي الذي ترقد فيه الحقيقة الساكنة، ولكانت أنهار مني اللزج تجد بهذه الطريقة أوقيانوساً تتدافع نحوه! لكن لماذا أفاجىء نفسي تتحسر على ظروف خيالية لن تتلقى أبداً طابع اتمامها اللاحق؟ دعونا لا نكلف أنفسنا عناء تشييد فرضيات شاردة. وبالانتظار، فليأتِ لمقابلتي ذاك الذي يتحرَّق رغبة إلى مشاركتي سريري؛ لكني أضع شرطاً

صارماً لضيافتي: يجب أن لا يكون له من العمر أكثر من خمسة عشر عاماً. ولا يظنن من ناحيته اني في الثلاثين: وماذا يؤثر هذا في الأمر؟ العمر لا يخفِّف من حدة العواطف، بالعكس؛ ولئن كان شَعري قد أصبح أبيض مثل الثلج، فان هذا ليس بسبب الشيخوخة. هذا، بالعكس، ناتج عن العلة التي تعرفونها. أنا لاأحب النساء! ولا حتى الخنثاويين! يلزمني كائنات تشبهني، يكون النبل البشري مطبوعاً على جبهتها بحروف أكثر وضوحاً وثباتاً! هل أنتم متأكدون أن اولئك اللواتي يحملن شَعراً طويلاً، هن من نفس طبيعتي؟ أنا لا اعتقد ذلك، ولن اتخلى عن رأيي. إن رضاباً أجاجاً يسيل من فمي، لا أعرف لماذا. من يريد أن يمتصه لي، كيما اتخلص منه؟ انه يصعد... انه يصعد دائماً! اعرف ما هو. لقد لاحظت أني، عندما أشرب من الحلق دم الذين يضطجعون قربي (من الخطأ اعتباري هامّة، لأن هذا الاسم يطلقونه على الأموات الذين يخرجون من قبرهم؛ أما أنا فاني حي)، الفظ في اليوم التالي قسماً من هذا الدم من فمي: هذا هو تفسير الرضاب المنتن. ماذا تريدوني أن أفعل، إذا كانت الأعضاء، وقد اضعفتها الرذيلة، ترفض انجاز مهمات هضم الغذاء؟ لكن لا تكشفوا عن اعترافاتي لأحد. إني لا أقول لكم ذلك لأجلي أنا، بل لأجلكم ولأجل الآخرين، بغية أن تحفظ هيبة السر، ضمن حدود الواجب والفضيلة، اولئك، الذين قد تسوِّل لهم نفسهم الاقتداء بي، ممغنطين بكهرباء المجهول. تكرَّموا بتأمل فمي (لست أملك، الآن، الوقت لاستعمال عبارة مجاملة أطول)؛ انه يذهلكم لأول وهلة بمظهر تركيبه، دون أن يحملكم على تشبيهه بالأفعي؛ هذا لأني أقلّص نسيجه إلى آخر مدى لكي أقنع الناس بأني اتمتع بطبع بارد. انكم لا تجهلون أنه على النقيض من ذلك تماماً. ليتني استطيع أن انظر عبر هذه الصفحات الملائكية إلى وجه ذاك الذي يقرأني. إذا كان لم يتجاوز المراهقة فليقترب. شدني اليك، ولا تخش أن توجعني، فلنضيِّق تدريجياً روابط عضلاتنا. أكثر. اشعر انه لا جدوى من الإلحاح؛ ان كثافة صفحة الورق هذه اللافتة للنظر لأكثر من حجة، هي مانع من أكبر ما يكون لعملية اتصالنا الكامل. أنا أحسست دائماً بنزوة دنيئة نحو شبيبة المدارس الشاحبة، وأولاد المصانع الذابلين! عباراتي ليست ذكريات حلم مبهمة، ولكان علي توضيح الكثير من الذكريات، لو فُرض علي الالتزام بأن أعرض أمام عيونكم الأحداث التي قد تؤيد بشهادتها صدق تأكيداتي المؤلمة. العدالة البشرية لم تضبطني حتى الآن في الجرم المشهود، رغم مهارة مأموريها الأكيدة. ولقد قتلت حتى (منذ مدة ليست بالبعيدة) لوطياً لم

ينسجم بما فيه الكفاية مع شهوتي؛ لقد رميت جثته في بئر مهجورة، ولا يملكون أدلة قاطعة ضدي. لماذا ترتجف رعباً أيها المراهق الذي يقرأنـي؟ اتظن إني أريد أن أفعل نفس الشيء معك؟ انك تتبدى عن منتهى الظلم... معك حق، احترس مني، خاصة إذا كنت جميلاً. إن أعضائي تقدم للأبد المشهد المحزن للورم؛ لا أحد يستطيع أن يؤكد (وما أكثر الذين اقتربوا منها) انه رآهافي حالة الهدوء الطبيعي، حتى ولا ماسح الأحذية، الذي سدّد لي إليها طعنة سكين في لحظة هذيان. يا له من كافر بالنعمة! اني أغيرّ ملابسي مرتين في الأسبوع، دون أن تكون النظافة هي الحافز الرئيسي لقراري. لو أني لا أتصرف على هذا الشكل، لاختفى أفراد البشرية في غضون بضعة أيام، في صراعات طويلة. بالفعل، انهم، في أي بلد انوجدت، يضايقوني باستمرار بحضورهم ويأتون ليلحسوا ظاهر اقدامي. ألا أية قدرة تملكها اذن قطراتي المنوية، حتى تجتذب إليها كل ما يتنفس بواسطة الأعصاب الشميّة! انهم يأتون من ضفاف الأمازون، انهم يجتازون الوديان التي يجري فيها الغانج، انهم يهجرون الحزاز القطبي، ليقوموا برحلات طويلة بحثاً عني وليسألوا المدن الجامدة، إن لم تكن قد رأته يمر، لحظة على طول أسوارها، ذاك الذي يضمّخ نطفه المقدس الجبال، البحيرات، الخلنجات، الغابات، الشِناخات ورحابة البحار! إن يأسهم من التمكن من مقابلتي (اني اختفي بسرية في أكثر المواضع مناعة، كيما أغذي شوقهم) يحملهم على ارتكاب أشد الأعمال المؤسفة. انهم ينتظمون ثلاثمئة ألف من كل جهة، وعجيج المدافع يشكل توطئة للمعركة. كل الأجنحة تتحرك معاً، كمحارب واحد، التشكيلات المربعة تتكوّن وتسقط للتو، كي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك. الأحصنة المذعورة تهرب في كل الاتجاهات. القنابل تحرث التربة، كنيازك شرسة. ان مسرح القتال ليس بعد سوى ساحة مجزرة واسعة، عندما يعلن الليل عن حضوره ويظهر القمر الصامت بين شِقيّ غيمة. وان الهلال البُخاري لهذا الكوكب، يأمرني، مشيراً لي باصبعه إلى فسحة من عدة فراسخ مغطاة بالجثث، ان اتخذ لحظة، موضوعاً لأفكار تأملية، العواقب الوخيمة، التي يجرّها وراءه الطلسم السحري غير القابل للتفسير، الذي اسبغته عليَّ العناية الالهية. وأسفاه كم من الأجيال لا يلزم العنصر البشري بعد كيما ينقرض بفضل مكيدتي الخؤون! وهكذا يستعمل عقل ماهر، وغير متبجح، لبلوغ غاياته، نفس الوسائل التي قد يبدو لأول وهلة انها تشكل عائقاً لا يُقهر أمام تحقيق هذه الأهداف. دائماً يرتفع ذكائي نحو هذا السؤال الهائل، وانتم أنفسكم شهود على أنه لم يعد بامكاني

البقاء ضمن إطار الموضوع البسيط الذي انتويت في البداية ان اتطرق إليه. كلمة أخيرة... كانت ليلة شتاء. فيما كانت ريح الشمال تصفر في أشجار التنوب، فتح الخالق بابه وسط الظلمات وأدخل لوطياً.

- ٦ -

صمتاً! موكب جنائزي يمر قربكم. احنوا رضفتيكم الاثنتين صوب الأرض وابدأوا بترتيل نشيد من وراء القبر. (اذا اعتبرتم عباراتي، لا كأمر قطعي ليس في محله، بل بالاحرى كمجرد صيغة امرية، فإنكم ستظهرون عن ذكاء، ومن اجود نوع). من المحتمل ان تتوصلوا بهذه الطريقة إلى ان تُفرحوا الى اقصى درجة روح الميت، الذي سيرتاح من الحياة في حفرة. ان هذا الأمر حتى هو، بنظري، اكيد، لاحظوا اني لا اقول ان رأيكم لا يستطيع إلى حد ما ان يكون مناقضاً لرأيي؛ لكن ما يهم قبل كل شيء، هو امتلاك مفاهيم صحيحة حول أسس الاخلاق، بنوع ان يتوجب على كل واحد ان يتشبَّع بالمبدأ الذي يقضي بأن نفعل للغير ما قد نتمنى ربما ان يفعلوه لنا. إن كاهن الاديان هو أول من يدشن المسيرة، حاملاً بيد بيرقاً ابيض، علامة السلام، وبالاخرى شعاراً من ذهب يمثل اجزاء الرجل والمرأة، كما ليشير إلى ان هذه الاعضاء الشهوية هي في معظم الاحيان، بصرف النظر عن كل مجاز، ادوات جد خطرة بين يديّ أولئك الذين يستخدمونها، عندما يعالجونها باليد بطريقة عمياء لأهداف متنوعة تتنازع فيما بينها، بدل ان تولِّد ردة فعل ملائمة ضد الشهوة المعروفة التي تتسبَّب تقريباً في كل مصائبنا. على اسفل ظهره معلَّق (بطريقة إصطناعية، طبعاً) ذنب حصان كثيف الهلبات، يكنس تراب الثرى. وهو يعني ان نحاذر ان ننحط بسلوكنا الى مستوى البهائم. النعش يعرف طريقه ويمشي وراء الجلباب المتموج للمؤاسي. اهالي واصدقاء المتوفى، من مظهر وضعهم، قرروا ان يمشوا في مؤخرة الموكب، الذي يتقدم بجلال، كسفينة تشقُّ عرض البحر، ولا تخشى ظاهرة التحطيم، لأن العواصف وصخور البحر، في اللحظة الحاضرة، لا تلفت النظر بشيء اقل من غيابها القابل للتفسير. الجداجد والضفادع تتبع عن بضع خطوات العيد المأتمي؛ هي، ايضاً لا تجهل ان حضورها المتواضع في جنازة اي كان سيكون ذات يوم محسوباً لها. انها تتحادث بصوت خفيض بلغتها المثيرة للاعجاب (لا تكونوا، اسمحوا لي ان أُسدي اليكم هذه النصيحة المنزهة، معتدين بانفسكم لدرجة ان تظنوا أنكم وحدكم تملكون الموهبة النادرة في ترجمة عواطف

فكركم) انها تتحادث عن ذاك الذي نظرت إليه أكثر من مرة يركض عبر المروج المخضوضرة، ويُغطس عرق اعضائه في الامواج الزرقاء للخلجان الرملية. في البدء، بدا ان الحياة تبتسم له بسلامة نية؛ وبروعة توَّجته بالزهور؛ لكن، بما ان ذكاءكم ذاته يدرك او بالاحرى يحزر انه قد توقف عند حدود الطفولة، فلست بحاجة، حتى ظهور عدول عن القول ضروري حقاً، لأن اواصل معلومات برهاني الصارم التمهيدية. عشر سنوات، رقم مُستنسخ بدقة، يلتبس معها الأمر، عن رقم اصابع اليد. هذا قليل وهذا كثير. في الحالة التي تشغل بالنا، مع ذلك ساستند إلى حبكم للحقيقة، كي تلفظوا معي، دون ان تتأخروا لحظة اكثر، ان هذا قليل. وعندما افكر بايجاز في هذه الاسرار الخفية المظلمة، التي يختفي بموجبها كائن بشري عن الأرض، بنفس سهولة ذبابة او يسروع، دون ان يحتفظ بأمل العودة إليها، فإني افاجىء نفسي، وانا احضن الحسرة الحادة في عدم تمكني على الارجح من العيش فترة كافية لاشرح لكم جيداً هذه الحقيقة التي لا ادّعي اني افهمها انا نفسي. لكن، بما انه ثبت بالبرهان، اني، بموجب صدفة خارقة، لم افقد بعد الحياة منذ ذلك الأمد السحيق، الذي بدأت فيه، مليئاً بالرعب، الجملة السابقة، فاني أُخمّن ذهنياً انه سيكون مفيداً هنا، ان أبني الاقرار الكامل بعجزي الجذري، خاصة عندما يتعلق الأمر، كما هو حاصل الآن، بهذا السؤال المهيب والممتنع. انه، على وجه العموم، لأمر غريب ذلك النزوع الجاذب الذي يحملنا على البحث (لنعبِّر عنها فيما بعد) عن التشابهات والاختلافات التي تنطوي عليها، في خصائصها الطبيعية، الأشياء الأكثر تعارضاً فيما بينها، واحياناً الأقل قابلية في الظاهر، لأن تتلاءم مع هذا النوع من التوفيقات العجيبة بود، والتي، بشرفي، تضفي مجاناً على اسلوب الكاتب، الذي يبتاع هذا الرضى الشخصي، المظهر المستحيل والذي لا يُنسى لبومة رصينة حتى الابدية. ان اجنحة الحِدأة الملكية هي نسبياً اطول من السقاوات وطيرانها ايسر بكثير: لذلك تقضي حياتها في الجو. انها لا ترتاح قط تقريباً وتجتاز يومياً مسافات شاسعة؛ وهذه الحركة الكبيرة ليست ممارسة صيد، ولا مطاردة فريسة، ولا حتى استكشافاً؛ لانها لا تصطاد؛ لكن الطيران، فيما يبدو، هو حالتها الطبيعية، ووضعها المفضَّل. ولا نستطيع ان نتمالك انفسنا من الاعجاب بالطريقة التي تنفِّذه بها. ان اجنحتها الطويلة والضيقة تبدو جامدة؛ الذَنَب هو الذي يظن انه يوجِّه كل التحركات، والذَنَب لا يخطىء: انه يفعل دون انقطاع. انها ترتفع دون مجهود؛ انها تنخفض كما لو انها تنزلق فوق سطح

مائل؛ انها يبدو انها تسبح أولى منه تطير؛ انها تعجّل ركضها، انها تبطئه، تتوقف، وتبقى وكأنها معلّقة او ثابتة في نفس الموضع، خلال ساعات كاملة. لا نستطيع ان نلمح اية حركة في اجنحتها: حتى لو فتحتم عيونكم كباب فرن، فإن هذا سيكون كذلك عديم الجدوى. إن كل واحد يملك الحس السليم ليعترف دون صعوبة (وإن يكن على مضض بعض الشيء) بانه لا يتبين، لأول وهلة، العلاقة، مهما كانت بعيدة، التي أعطي اوصافها بين جمال طيران الحِدأة الملكية، وجمال وجه الطفل، المرتفع بهدوء، فوق النعش المكشوف، كزهرة نيلوفر تشق صفحة المياه؛ وهنا بالضبط تكمن الغلطة التي لا تُغتفر، التي يجرّها الوضع الثابت لقلة التوبة، فيما يتعلق بالجهل الطوعي، الذي نتأسن فيه. ان علاقة الجلال الهادىء هذه بين حدّي مقارنتي الخداعة ليس مع ذلك إلا كثير الشيوع، ومنطوياً على رمز قابل للفهم بدرجة تكفي كي اتعجب مزيداً بهذا الأمر، الذي لا يمكن ان يكون له، كعذر وحيد، سوى طابع السوقية هذا اياه الذي يستنزل، على كل موضوع او مشهد مصاب به، شعوراً عميقاً باللامبالاة الظالمة. كما لو ان ما نراه يومياً لا يجب ان يوقظ انتباه اعجابنا! ان الموكب، لدى وصوله الى مدخل المقبرة، يسارع الى التوقف؛ ليس في نيته الذهاب ابعد من ذلك. حفار القبور يكمّل تجويف الحفرة؛ انهم يودعون النعش فيها مع كل الاحتياطات المأخوذة في الحالات المماثلة؛ بضعة ملء رفوش من التراب غير منتظرة تأتي لتغمر جسد الطفل. كاهن الاديان يلفظ؛ وسط الحفل المتأثر بعض عبارات ليزيد من دفن الميت جيداً في مخيلة الحضور. «انه يقول انه شديد الدهشة لانهم يسكبون هكذا الكثير من الدموع، من اجل فعل عديم المعنى الى هذا الحد. مطابق النص. لكنه يخشى ان لا يصف بما فيه الكفاية ما يدّعي، هو، انه فرح اكيد. لو انه اعتقد ان الموت هو قليل العذوبة الى هذا الحد في سذاجته، لكان تخلى عن وكالته، كي لا يزيد من الألم المشروع للعديد من اهالي واصدقاء المتوفى؛ لكن صوتاً خفياً أنذره بأن يمنحهم بعض تعزيات، لن تكون عديمة النفع، على الأقل تلك التي تتيح استشفاف الامل في لقاء قريب في السموات بين ذاك الذي مات وأولئك الذين ظلوا على قيد الحياة من بعده». مالدورور كان يهرب بخبب سريع، فيما كان يبدو انه يوجِّه عَدْوه نحو اسوار المقبرة. حوافر فرسه كانت تصاعد حول سيدها تاجاً زائفاً من الغبار الكثيف. انتم الآخرون، لا تستطيعون ان تعرفوا اسم هذا الفارس؛ لكن، انا، اعرفه. كان يقترب اكثر فأكثر؛ كان وجهه البلاتيني قد اخذ يصير مرئياً، مع ان اسفله كان متدثراً كلية بمعطف حاذَر

القارىء ان ينزعه من ذاكرته ولم يكن يسمح بتبين سوى العينين. وسط خطابه، كاهن الأديان اصبح فجأة ممتقعاً، لان اذنه تعرفت الى العَدْو غير المنتظم لهذا الحصان الابيض المشهور الذي لم يهجر قط سيده. نعم، أضاف من جديد، ان ثقتي كبيرة في هذا اللقاء القريب؛ وعندئذٍ، سنفهم، افضل من قبل، اي معنى كان يجب ان نعزوه إلى الانفصال المؤقت بين الروح والجسد. ان ذاك الذي يظن انه يعيش على هذه الارض يهدهد نفسه بوهم ينبغي تعجيل تبخيره». جلبة العَدْو كانت تتزايد اكثر فأكثر؛ وفيما كان الفارس، مضيِّقاً خط الافق، يظهر للعين، في حقل الرؤية، الذي تكتنفه بوابة المقبرة، سريعاً كإعصار حلزوني دوراني، استأنف كاهن الاديان بوقار اكبر: «انكم لا تشتبهون، فيما يبدو، في ان هذا الذي اجبره المرض ان لا يعرف سوى اطوار العمر الأولى، والذي استقبلته الحفرة منذ قليل في حضنها، هو الحي الاكيد؛ لكن، اعلموا، على الأقل، ان هذاك، الذي تلمحون شبحه الملتبس محمولاً على ظهر جواد عصبي، والذي انصحكم ان تثبتوا بأسرع ما يمكن عيونكم عليه، لانه لم يعد سوى نقطة، وسيختفي قريباً في الخلنج، مع انه عاش طويلاً، هو الميت الوحيد الحقيقي».

- ٧ -

«كل ليلة، في الساعة التي يتوصل فيها النوم الى اقصى درجات حِدته، يُخرج عنكبوت هرم من النوع الكبير رأسه ببطء من ثقب قائم على الأرض، عند احدى نقاط تلاقي زوايا الغرفة. انه يتنصت بانتباه اذا كان ثمة طنين يحرِّك ايضاً تأشيراته في الجو. انه لا يستطيع نظراً الى تشكله كحشرة، ان يفعل اقل من ان يعزو تأشيرات الى الطنين، اذا كان يطمح الى إثراء كنوز الادب بتشخيصات لامعة. انه، حين يتأكد ان الصمت يسود في الجوار، يسحب تباعاً، من اعماق عشه، دون مساعدة الوساطة، مختلف اجزاء جسده، ويتقدم بخطى محسوبة نحو مضجعي. يا له من امر جدير بالملاحظة! انا الذي اجعل النوم والكوابيس تتراجع، اشعر بنفسي مشلولاً في كامل جسدي، عندما يتسلق العنكبوت على طول اقدام آبنوس سريري الاطلسي. انه يشد على خناقي بقوائمه، ويمتص دمي ببطنه. بكل بساطة! كم من ليترات سائل ارجواني، لا تجهلون اسمه، لم يشربه، منذ ان راح يقوم بنفس اللعبة بمثابرة خليقة بقضية افضل! لا اعرف ماذا فعلت له، كيما يتصرف حيالي على هذا الشكل. هل سحقت له، قائمة من دون انتباه؟ هل خطفت له صِغاره؟ ان هاتين الفرضيتين، اللتين لا يمكن الاعتماد

عليهما، ليستا جديرتين بالصمود امام فحص جدي؛ انهما لا تلاقيان مشقة في إثارة هزة في اكتافي وابتسامة على شفاهي، مع اننا لا يجب ان نهزأ من احد. انتبهي لنفسك ايتها الرتيلاء السوداء؛ إن لم يكن لسلوكك عذر ذو قياس لا يُدحض، ذات ليلة ساستيقظ مذعوراً، بجهد اخير من ارادتي المحتضرة، ساحطم السحر الذي تُبقين بموجبه اعضائي في حالة الجمود، وساسحقك بين عظام اصابعي كقطعة من المادة الرخوة. اني اذكر، مع ذلك، بشكل غامض اني منحتكِ الاذن بأن تتركي قوائمكِ تتسلق فوق بروز صدري، ومن هناك حتى الجلد الذي يغطي وجهي؛ وانه لا يحق لي، بالتالي، ان اكبحك. اواه! من عساه يوضح ذكرياتي المبهمة! اني اعطيه كمكافأة ما تبقى من دمي: يوجد منه، اذا حسبنا آخر قطرة ضمناً، ما يكفي على الأقل لملء نصف كأس عربدة». انه يتكلم، ولا يكف عن خلع ثيابه. انه يسند ساقاً على الفراش، وضاغطاً بالاخرى أرضية الغرفة اللازوردية بغية ان يرتفع، يجد نفسه ممدداً في وضع افقي. لقد قرر ان لا يغمض عينيه، من اجل ان ينتظر عدوه بنيّة الصمود والمقاومة. لكن ألا يتخذ، كل مرة، نفس القرار، الذي ينهار دائمًا بفعل صورة الوعد المحتوم غير القابلة للتفسير؟ انه لا يقول شيئاً بعد، ويُذعن بألم؛ لان القَسَم بالنسبة له هو مقدس. انه يتدثر بجلال في طيات الحرير، يأنف عن ضمّ الشراريب الذهبية لستائره، ومسنداً الخصلات المتموجة لشعره الاسود الطويل على سُجف مخدة المخمل، يجسّ، بيده، جرح رقبته العميق، الذي اعتادت الرتيلاء ان تسكن فيه، كما في عش ثانٍ، بينما يتنفس وجهه الرضى. انه يؤمل ان هذه الليلة الحالية (اؤملوا معه) ستشاهد العرض الأخير للرشف الهائل؛ لان رغبته الوحيدة ستكون ان تنتهي حياة الجلّاد: الموت وسيكون سعيداً. انظروا هذا العنكبوت الهرم من النوع الكبير، الذي يخُرج ببطء رأسه من ثقب قائم على الأرض، عند احدى نقاط تلاقي زوايا الغرفة. اننا لم نعد في الحكاية. انه يتنصت بانتباه اذا كان ثمة طنين يحرِّك ايضاً تأشيراته في الجو. واسفاه! لقد وصلنا الآن الى الواقع، فيما يختص بالرتيلاء، ومع اننا قد نستطيع ان نضع علامة تعجب في نهاية كل جملة، فإن هذا ربما ليس حجة كي نعفي نفسنا من ذلك! لقد تأكدت ان الصمت يسود في الجوار؛ وها هي تسحب تباعاً من اعماق عشها، دون مساعدة الوساطة، مختلف اجزاء جسدها، وتتقدم بخطى محسوبة من مضجع الرجل المتوحد. انها تتوقف لحظة؛ لكنها قصيرة، لحظة التردد هذه. انها تقول في نفسها انه لم يحن بعد وقت توقيف التنكيل، وانها يجب مسبقاً ان

تعطي المحكوم عليه الحجج المعقولة التي حتمت إستمرارية التعذيب. لقد تسلقت الى قرب أذن النائم. إذا كنتم تريدون ان لا تفقدوا عبارة واحدة مما ستقوله، غضوا النظر عن الإنهماكات الغريبة التي تسد بوابة فكركم، وكونوا، على الأقل، ممتنين للاهتمام الذي أبديه نحوكم، بأن أتيح لكم ان تُشركوا حضوركم في المشاهد المسرحية التي تبدو لي جديرة باثارة انتباهاً حقيقياً من جانبكم؛ إذ، من يمنعني ان أدّخر، لنفسي وحدها، الاحداث التي اقص وقائعها؟ «إستيقظ، ايتها الشعلة العاشقة للايام الغابرة، ايها الهيكل العظمي الضامر. لقد حان الوقت لتوقيف يد العدالة. لن ندعك تنتظر اطول من ذلك التفسير الذي ترغب فيه. انك تسمعنا، اليس كذلك؟ لكن لا تحرِّك اعضاءك؛ انك لا تزال اليوم تحت سلطتنا المغناطيسية، والوهن الدماغي يستمر: هذا لآخر مرة. اي انطباع يولِّده وجه ايلسينور في مخيلتك؟ هل نسيته! وريجنالد هذا، ذو المشية الأبية، هل حفرت ملامحه في دماغك الوفّي؟ انظر اليه مختبئاً في طيات الستائر؛ فمه منحنٍ فوق جبينك؛ لكنه لا يجـرؤ ان يكلمك لأنه خجول اكثر مني. ساقص عليك مرحلة من شبابك، وسأضعك من جديد على درب الذاكرة. . .» كان العنكبوت منذ زمان طويلٍ قد فتح بطنه، الذي خرج منه مراهقان، في ثوب ازرق، يحمل كل منهما سيفاً ملتهباً في يده، ويأخذان مكانهما الى جانب السرير، كما ليحرسا من الآن فصاعداً محراب النوم. «إن هذا، الذي لم يكفّ بعد عن النظر اليك، لانه احبك كثيراً، كان الأول من بيننا الذي منحته حبك. لكنك غالباً ما جعلته يتألم بسبب فظاظات طبعك. هو، لم يكفّ عن تسخير جهوده كي لا يسبّب لك اي موضوع شكوى ضده: ان ملاكاً ما كان لينجح في ذلك. طلبت منه، ذات يوم، إذا كان يريد ان يذهب ليستحم معك، على شاطىء البحر. وثبتما معاً انتما الاثنان بنفس الوقت كبجعتين عن صخرة شاقولية. غطّاسان بارزان، انزلقتما في الكتلة المائية، والذراعان ممدودتان بين الرأس، وملتقيتان عند اليدين. خلال بضع لحظات، سبحتما بين تيارين. عدتما الى الظهور على مسافة شاسعة وشعراكما متمازجان، يتقاطر منهما السائل المالح. لكن اي سر خفي حصل إذن تحت الماء، حتى بانت لطخة دم ضخمة عبر الامواج؟ حين عدتما الى السطح، انت، واصلت السباحة، وتظاهرت بانك لا تلاحظ الضعف المتنامي لرفيقك. كان يفقد قواه بسرعة، فيما كنت انت تدفع ملء باعات واسعة نحو الأفق المُضبّ، الذي كان يتلاشى أمامك. الجريح اطلق صرخات استغاثة، فتصاممت. ريجنالد دق ثلاث مرات صدى مقاطع صوتك

اللفظية، وثلاث مرات اجبت بصرخة شهوة حسية. لقد كان بعيداً جداً عن الشاطىء كيما يعود اليه، وكان يجهد عبثاً لمتابعة اثلام عبورك، كيما يبلغك، ويريح يده لحظة على كتفك. المطاردة السلبية امتدت خلال ساعة، هو، يفقد قواه، وانت، تشعر بتزايد قواك. عندما يئس من مضاهاة سرعتك، قام بصلاة قصيرة للمولى ليوصيه بروحه، تسطح على ظهره كما عندما نسبح على ظهرنا، بنوع انه كان من الممكن تبينّ قلبه وهو يخفق بعنف تحت صدره، وترقب مجيء الموت، كي لا يعود ينتظر. في هذه اللحظة، كانت اعضاؤك القوية على مدى النظر، تبتعد أيضاً، سريعة كمسبار نتركه يكرّ. قارب كان عائداً من وضع شبكاته في عرض البحر، مرّ في هذه المناطق البحرية. الصيَّادون ظنوا ريجنالد غريقاً، فسحبوه، مغمياً عليه، إلى زورقهم. لاحظوا وجود جرح في الخاصرة اليمنى؛ كلٌ من النوتيين الخبيرين أبدى رأياً مفاده انه لا حد صخرة بحر، ولا شظية صخرة قمين بشق ثقب مجهري الى هذا الحد وبذات الوقت على هذه الدرجة من العمق. سلاح قاطع، كما قد يكونه اكثر الخناجر مضاءً، يستطيع وحده ان يدّعي حقوق ابوّة جرح دقيق بهذا المقدار. هو، لم يشأ قط ان يروي احداث الغطسة، عبر احشاء الامواج، وهذا السر أحتفظ به حتى اليوم. دموع تنساب الآن على وجناته الفاقدة اللون قليلاً، وتسقط على شراشفك: الذكرى هي احياناً أكثر مرارة من الشيء. لكن انا، لن اشعر بالشفقة: سيكون في هذا الأمر إظهار الكثير من التقدير لك. لا تدحرج هذه العيون الغاضبة في محجرها. ابقَ بالاحرى هادئاً. انك تعرف انك لا تستطيع ان تتحرك. من جهة اخرى، انا لم أُنه قصتي. ـ ارفع سيفك، يا ريجنالد، ولا تنسَ بهذه السهولة الانتقام، الذي لعلَه يعود ذات يوم ليوجِّه اليك الملامات، من يدري؟ ـ فيما بعد، حبلت بندامات قُيض لوجودها ان يكون زائلاً؛ قررت ان تفتدي غلطتك باختيار صديق آخر، كيما تباركه وتشرِّفه. بهذه الوسيلة التكفيرية، كنت تمحو لطخات الماضي، وتُسقط على ذاك الذي اصبح الضحية الثانية، الود الذي لم تعرف ان تظهره للشخص الآخر. امل باطل؛ الطبع لا يتبدل من يوم إلى آخر، وارادتك ظلت مماثلة لنفسها. انا، ايلسينور، رأيتك لأول مرة، ومنذ تلك اللحظة، لم اقدر ان انساك. نظرنا إلى بعضنا خلال بضع لحظات، ورحت تبتسم. خفضت عيوني، لاني شاهدت في عيونك شعلة فائقة للطبيعة. كنت اتساءل إذا كنت قد تركت نفسك، بفضل ليلة ظلماء، تسقط سراً نحونا من سطح ثمة نجمة؛ لاني، ولا حاجة اليوم إلى الكذب، اعترف بانك لم تكن تشبه

خنانيص الانسانية؛ بل هالة من اشعة متلألئة كانت تغلّف محيط دائرة جبينك.
كنت لأشتهي عقد علاقات حميمة معك؛ حضوري لم يكن يجرؤ الاقتراب من الطرافة الصارخة لهذا النبل الغريب، وذعر لازب كان يجول حولي. لماذا لم أصغِ إلى انذارات الضمير هذه؟ هواجس لها ما يبررها. احمررت بدورك، مُلاحظاً ترددي، وقدمت ذراعك. وضعت يدي بشجاعة في يدك، وبعد هذا الفعل، شعرت بنفسي اقوى؛ من بعد كانت نفثة من ذكائك قد مرت الى داخلي. الشَعر في الريح ومتنشقين انفاس النسيم، سرنا بضع لحظات الى الأمام، عبر غياض كثيفة من المصطكا والياسمين واشجار الرمان والبرتقال، التي كانت عطورها تُسكرنا. خنزير بري مسَّ ثيابنا لدى كل جولة، ودمعة انحدرت من عينه، عندما شاهدني معك: لم أُفسر لنفسي سلوكه. وصلنا اول هبوط الليل امام ابواب مدينة آهلة بالسكان. ان جانبيات القباب، سهام المنارات وكرات رخام المطلات كانت تقطع تخاريمها بشدة، عبر الظلمات، على زرقة السماء الحادة. لكنك لم تشأ ان ترتاح في هذا الموضع، مع اننا كنا مرهقين من التعب. حاذينا اسفل التحصينات الخارجية، كـأبناء آوى ليليـين؛ تجنبنا مقـابلة الحرَّاس المترصدين؛ وتوصلنا الى الابتعاد من الباب المواجه، عن هذا التجمع الاحتفالي لحيوانات عاقلة، متمدنة مثل القنـادس. إن تقصّف الاعشاب اليـابسة، العواءات المتناوبة لثمة ذئب بعيد كانت ترافق عتمة مسيرتنا الحائرة، عبر الريف. ماذا كانت إذن دوافعك المشروعة الى الهرب من الخلايا البشرية؟ كنت اطرح على نفسي هذا السؤال مع بعض الاضطراب؛ من جهة اخرى كانت ساقاي قد بدأتا ترفضان ان تقدما لي خدمة تمددت لفترة جد طويلة. بلغنا اخيراً حاشية غابة كثيفة، كانت اشجارها متشابكة فيما بينها بركام من العارشات الطويلة المعقَّدة، الاعشاب الطفيلية، والصبَّار ذي الاشواك الهائلة. توقفت انت امام شجرة بتولة. قلت لي ان اركع لاحضر نفسي للموت؛ منحتني ربع ساعة كي اخرج من هذه الأرض. بعض نظرات عابرة، خلال جولتنا الطويلة، القيتها عليَّ خلسة، عندما لم اكن اراقبك، بعض ايماءات كنت لاحظت عدم انتظام قياسها وحركتها مثلت للتو امام ذاكرتي، كصفحات كتاب مفتوحة. لقد تأكدت شكوكي. اضعف من ان اصارع ضدك، قلبتني على الأرض، كما يهدّ الاعصار ورقة الحور الرجراج. احدى ركبتيك على صدري، والأخرى متكئة على العشب الرطب، فيما كانت احدى يديك توقف ذراعيَّ الاثنتين في ملزمتها، رأيت الأخرى تسحب سكيناً، من الغمد المعلَّق بزنارك. مقاومتي كانت تقريباً

معدومة، واغلقت عيوني: عرقصات قطيع من البقر سُمعت عن بعض مسافة، تحملها الريح. كان يتقدم كقاطرة، تناكده عصا راعٍ وفكّا كلب. لم يكن هناك مجال لإضاعة الوقت، وهذا ما فهمته انت؛ خائفاً ان لا تبلغ مآربك، لأن اقتراب النجدة غير المأمولة كان قد ضاعف من قدرتي العضلية، ومدركاً انك لا تستطيع ان تجمِّد لي سوى ذراع واحدة في نفس الآن، اكتفيت، بحركة سريعة أدرت بها النصِل الفولاذي، بأن تقطع لي معصمي الايمن. القطعة، المقتلعة بدقة، وقعت على الأرض. هربت، فيما كنت انا دائخاً من الألم. لن أُخبرك كيف هبَّ الراعي لنجدتي، ولا كم هو الوقت الذي بات ضرورياً لشفائي. بحسبك ان تعرف ان هذه الخيانة التي لم اكن اتوقعها، اورثتني الرغبة في البحث عن الموت. حملت حضوري الى المعارك، كيما اقدم صدري للضربات. حصلت على المجد في ساحات الوغى؛ كان اسمي قد اصبح مخيفاً حتى بالنسبة للاكثر إقداماً، لفرط ما كنت يدي الاصطناعية تنشر المجزرة والخراب في الصفوف العدوة. مع ذلك، ذات يوم كانت فيه قذائف المدفع تجلجل اقوى بكثير من المعتاد، والسرايا المخطوفة من قاعدتها، تدوِّم كاعواد القش، تحت تأثير إعصار الموت، تقدم امامي فارس، جريء المشية، لينازعني اكليل النصر. الجيشان توقفا، جامدين، ليتأملانا بصمت. حاربنا طويلاً، مثقوبين بالجراح، وخوذتانا محطمتان. باتفاق متبادل، اوقفنا الصراع، كيما نرتاح، ونستأنفه بعد ذلك بقوة اكبر. كلٌ منا، يرفع مقدم خوذته الخاصة مليئاً بالاعجاب بخصمه: «ايلسينور!...»، «ريجنالد!...»، تلك كانت العبارات التي لفظها حلقانا اللاهثان بنفس الوقت. ان هذا الأخير، وقد وقع في يأس حزن لا عزاء له، كان قد انضوى، مثلي، في مهنة السلاح، والرصاصات كانت قد وفرته. في اية ظروف تلاقينا. لكننا لم نلفظ اسمك! هو وانا تعاهدنا على صداقة ابدية؛ لكنها، بلا ريب، مختلفة عن الصداقتين الأوليين اللتين كنت فيهما انت الممثل الرئيسي! رئيس ملائكة، هابط من السماء ورسول المولى، امرنا ان نتحول الى عنكبوت أوحد، وان نأتي كل ليلة لنمتص لك حلقك، إلى ان يأتي امر من الاعالي بإيقاف مجرى العقوبة. خلال ما يقرب العشر سنوات، تسلّطنا على مضجعك. انك، منذ اليوم، متخلص من اضطهادنا. الوعد الغامض الذي كنت تتكلم عنه، لم تقطعه لنا، بل بالاحرى للكائن الذي هو اقوى منك: لقد فهمت انت نفسك انه من الأفضل الرضوخ لهذا المرسوم غير القابل للالغاء. استيقظ يا مالدورور! السحر المغناطيسي الذي ضغط على جهازك الدماغي- النخاعي، خلال ليالي

النجفتين، يتبخر». انه يستيقظ كما أُمر به، ويشاهد شكلين سماويين يختفيان في الاجواء، متشابكيِّ الاذرع. انه لا يحاول معاودة النوم. انه يسحب ببطء، الواحد بعد الآخر، اعضاءه خارج مضجعه. انه يذهب ليدفىء جلده المتجلِّد في جذوات المدفأة الغوطية المضرمة من جديد. قميصه وحده يغطي جسده. انه يبحث بعيونه عن الدورق البلوري كيما يبلل حنكه الناشف. انه يفتح مصراعيّ النافذة. انه يستند على حافتها. انه يتأمل القمر الذي يسكب، على صدره، مخروطاً من الاشعة الإنتشائية، تخفق فيها، كفراشات أرفية، ذرات فضية، ذات عذوبة فائقة الوصف. انه ينتظر ان يأتي غسق الصباح حاملاً، بفضل تبدل الديكورات، عزاءً ساخراً لقلبه المضطرب.

(نهاية النشيد الخامس)

النشيد السادس

- ١ -

انت، الذي لا يستطيع هدوؤك المحسود، ان يفعل اكثر من ان يجمِّل سحنتك، لا تظن ان المقصود ايضاً هو ان نطلق، في مقاطع من اربعة عشر او خمسة عشر سطراً، كتلميذ في الصف الرابع، هتافات ستشتهر بانها غير ملائمة، ونقيق دجاجة صينية، هزلي بقدر ما يستطيع الناس ان يتصوروا شرط ان يكلِّفوا نفسهم عناء ذلك؛ بل من الافضل ان نبرهن بالوقائع على الاقتراحات التي نتقدم بها. اتدّعي إذن ان مهمتي قد انتهت، بما اني قد شتمت في مبالغاتي القابلة للتعليل، الانسان، الخالق وانا نفسي، وكأني اتلاعب بهم؟ لا: ان الجزء الاهم من عملي يبقى رغم ذلك، كمهمة برسم الإنجاز. من الآن فصاعداً، ستحرِّك خيوط الرواية الاشخاص الثلاثة المذكورين اعلاه: ان قدرة اقل تجريدية ستشيع هكذا فيهم. ان الحيوية ستنتشر بروعة في سيل جهاز جريان دمهم، وسترى كم ستدهش انت نفسك حين تقابل، هنا حيث خِلت لأول وهلة انك لا تشاهد سوى تجريدات غامضة تنتمي إلى مجال التأمل البحت، من جهة، الجهاز العضوي الجسدي مع تشعباته من الاعصاب وغشاءاته المخاطية، ومن اخرى المبدأ الروحي الذي يترأس خاصيات اللحم الفيزيولوجية. انهم كائنات متحلية بحياة نشيطة، ستصالب اذرعها وتوقف نبض صدرها، لتتخذ نثرياً (لكني اكيد ان التأثير سيكون جد شعري) وضعةً إزاء وجهكم، متمركزة فقط على مسافة بضع خطوات منكم، بنوع ان الاشعة الشمسية، وهي تضرب اولاً قراميد

السطوح وغطاء المدافىء، ستأتي بعد ذلك لتنعكس بشكل ظاهر على شَعركم الأرضي والمادي. لكنها لن تكون لعنات، تملك إختصاص إثارة الضحك؛ شخصيات وهمية كان احرى بها ان تبقى في دماغ المؤلف؛ او كوابيس موضوعة عالياً جداً فوق الحياة العادية. لاحظوا انه بفضل هذا الأمر بالذات، لن يكون شِعري سوى اكثر جمالاً. ستلمسون بيديكم اغصان وتين صاعدة وكظرانات؛ ثم عواطف! الحكايات الخمس الاولى لم تكن عديمة الجدوى؛ لقد كانت الرسم المواجه للعنوان في مؤلفي، اساس البناء، التفسير المسبق لمذهبي الشعري المقبل: وكنت ملزَماً تجاه نفسي، قبل ان اقفل حقيبتي واشرع في السير نحو مناطق الخيال، بأن أنذر هواة الادب الصادقين، بفضل رسم أولي سريع لتعميم واضح ودقيق، بالهدف الذي قررت ان الاحقه. وعليه، فإن رأيي هو ان الجزء التركيبي من مؤلَفي هو الآن كامل ومشروح بدرجة كافية. بفضله علمتم اني انتويت ان اهاجم الانسان وذاك الذي خلقه. حالياً وفيما بعد، لستم بحاجة لان تعرفوا مزيداً حول هذا الأمر! ان تأملات جديدة تبدو لي نافلة، لانها لن تفعل سوى ان تكرر، تحت شكل آخر، اوسع، هذا صحيح، انما مطابق، بيان القضية التي ستشهد نهاية هذا النهار عرضها الأول. ينجم، عن الملاحظات السابقة، ان نيتي هي المباشرة، من الآن فصاعداً، في الجزء التحليلي؛ هذا صحيح لدرجة اني منذ بضع دقائق فقط، كنت أعرب عن الرغبة الحارة في ان تكونوا محبوسين في غدد جلدي الفارزة للعرق، لتتحققوا من صدق ما اؤكده، بمعرفة الوقائع. يجب، اعرف ذلك، ان اؤيد بعدد كبير من البراهين المحاجة المتضمنة في نظريتي؛ حسناً، ان هذه البراهين موجودة، وانتم تعلمون اني لا اهاجم احداً، دون ان يكون عندي بواعث جدية! اني اضحك بأعلى صوتي، عندما افكر بانكم تلومونني لاني انثر إتهامات مريرة ضد الانسانية، التي انا احد اعضائها (هذه الملاحظة وحدها قد تعطيني الحق!) وضد العناية الإلهية: لن استدرك اقوالي؛ انما لن يكون من الصعب عليّ ان ابرّرها، بأن اروي ما رأيته، دون طموح آخر سوى الحقيقة. اليوم سأصنع رواية قصيرة من ثلاثين صفحة؛ هذا القياس سيبقى فيما بعد ثابتاً تقريباً. آملا ان اشهد بسرعة، في يوم او في آخر، تكريس نظرياتي مقبولاً من هذا الشكل الادبي او ذاك، اعتقد اخيراً اني وجدت، بعد بعض التلمسات، صيغتي النهائية. انها الفضلى: بما انها الرواية! ان هذه التوطئة الهجينة قد تم عرضها بشكل لن يبدو ربما جد طبيعي، بمعنى انها تفاجىء، كما يقولون، القارىء، الذي لا يرى جيداً اين نريد بادىء الأمر ان

نقوده؛ لكن هذا الشعور بالذهول الجدير بالملاحظة، الذي يتوجب علينا إجمالاً ان نحاول ان نُعفي منه اولئك الذين يقضون وقتهم في قراءة الكتب او الكراريس، انا بذلت قصارى جهدي كي اولّده. بالفعل، لقد كان من المستحيل علي ان افعل اقل من ذلك، رغم حسن نيتي: فقط فيما بعد، حين تكون بعض الروايات قد ظهرت، ستفهمون افضل توطئة المارق، السخاميّ الوجه.

- ٢ -

اني، قبل الدخول في صلب الموضوع، استسخف ان يكون ضرورياً (اعتقد ان كل واحد لن يؤيد رأيي اذا اخطأت) ان اضع قربي محبرة مفتوحة، وبعض صحائف من الورق غير الممضوغ. بهذه الطريقة، سأتمكن من الشروع، بحب، في هذا النشيد السادس، سلسلة القصائد التعليمية التي انتظر تأليفها بفارغ الصبر. فصول مأسوية ذات فائدة محتومة! ان بطلنا ادرك انه بتردده على المغاور وإتخاذه مأوىً من المواضع التي يتعذر بلوغها، يخالف قوانين المنطق، ويرتكب حلقة مفرغة. لانه، إذا كان من ناحية، يعاون هكذا نفوره من البشر، بتعويض العزلة والبُعد، ويحصر سلبياً افقه المحدود، ضمن نطاق الجنبات غير النامية، العواسج، والكروم البرية، فإن نشاطه، من ناحية اخرى، لم يعد يعثر على اي قوت ليغذي تنين غرائزه المنحرفة. وعليه، لقد قرر ان يقترب من الخلايا البشرية، مقتنعاً بأن شهواته المتنوعة ستجد بوفرة، ما يشفي غلتها، بين كل هذه الضحايا الجاهزة تماماً. كان يعرف ان الشرطة، درع الانسانية هذا، كانت تبحث عنه بمثابرة، منذ عدة سنين، وان جيشاً حقيقياً من المأمورين والجواسيس كان دوماً في إثره. دون ان يتوصل، مع ذلك، إلى مصادفته. لفرط ما كانت مهارته المذهلة تضلّل، بخفة فائقة، اكثر الحيل إستعصاءً على الجدال من جهة نجاحها، والتعليمات الصادرة عن ابرع تأمل. كان يملك موهبة خاصة في إتخاذ اشكال لا يمكن للعيون المدرَّبة ان تتعرّف عليها. تنكرات عليا، اذا تحدثت كفنان. ازياء مضحكة ذات تأثير ضعيف حقاً، عندما افكر بعلم الاخلاق. من هذه النقطة، كان يلامس تقريباً العبقرية. الم تلاحظوا رشاقة جُدجُد جميل، ذي حركات يقظة، في مجارير باريس؟ لا يوجد غيره: انه مالدورور! انه يقود العواصم المزدهرة، ممغنطاً إياها بسائل ضار، إلى حالة سباتية تكون فيها عاجزة عن مراقبة نفسها كما يجب. حالة تزداد خطورة بنسبة ما انها

تثير الشبهات. انه اليوم في مدريد؛ غداً سيكون في سان بطرسبورغ؛ البارحة كان في بكين. لكن التأكيد بالضبط على الموضع الحالي الذي تملأه بالرعب مغامرات هذا الروكامبول الشِعري، هو عمل يفوق القوى الممكنة لماحكتي الكثيفة. لعل هذا اللص موجود على بُعد سبعمائة فرسخ من هذا البلد؛ لعله موجود على مسافة بضع خطوات منك. ليس من السهل إهلاك البشر كلياً، والقوانين هي هنا؛ لكننا نستطيع، مع الصبر، إبادة، واحدة واحدة، النملات الداعية إلى خير البشرية. إذ، منذ ايام ولادتي، حين كنت اعيش مع اجداد جنسنا الأولين، عديم الخبرة بعد في شد احابيلي؛ منذ الازمنة السحيقة، القائمة فيما وراء التاريخ، حين كنت، في إنمساخات حاذقة، اعيث فساداً عبر مختلف العصور، في اصقاع الكرة بالغزوات والمجزرة، وانشر الحرب الاهلية وسط المواطنين، ألم يسبق ان سحقت، تحت نعلي، عضواً عضواً او جماعياً، اجيالاً بكاملها، لن يكون من الصعب تصور رقمها اللايُعد؟ الماضي الساطع قطع عهوداً لامعة للمستقبل: انه سيبرّ بها. من اجل تمشيط جملي، سأستعمل إضطراراً المنهج الطبيعي، متقهقراً حتى المتوحشين، كيما يعطوني دروساً. اسياد بسطاء وجليلون، فإن فمهم الظريف يضفي النبل على كل ما يسيل من شفاههم الموشومة. لقد برهنت لتوي ان لا شيء يثير الضحك في هذا الكوكب المتحيّر. كوكب متحيّر غريب، انما رائع. مستحوذاً على اسلوب سيجده البعض ساذجاً (مع انه جد عميق)، سأسخّره لشرح أفكار لعلها، للأسف، لن تبدو عظيمة! من هذا المنطلق بالذات، متجرّداً من المظاهر السطحية والمتشككة للمحادثة العادية، وحصيفاً بما فيه الكفاية لكي لا اتصنع. . . لم اعد اعرف ماذا كان في نيتي ان اقوله، لاني لم اعد اتذكر بداية الجملة. لكن اعلموا ان الشِعر هو في كل مكان لا توجد فيه ابتسامة الانسان البطيّ الوجه المستهزئة بغباء. اني اولاً سأتمخط، لاني بحاجة إلى ذلك؛ ومن ثم سأتناول من جديد، تساعدني في ذلك يدي بقوة، مسكة الريشة التي تركتها اناملي تسقط. كيف استطاع جسر «الكاروسيل» ان يحافظ على استقرار حياده، عندما سمع الصراخات الحادة التي كان يبدو ان الكيس يطلقها.

- ٣ -

إن متاجر شارع «فيفيين» تعرض غناها امام العيون المبهورة. ان صناديق الاكاجو المزخرفة والساعات الذهبية، مضاءةً بالعديد من مصابيح الغاز، تنشر

عبر الواجهات باقات من النور البرّاق. لقد دقت الثامنة في ساعة «البورصة»: الوقت ليس متأخراً! ما ان سُمعت آخر ضربة مطرقة، حتى راح الشارع، الذي ورد اسمه، يرتجف، ويهز اساساته منذ ساحة «الرويال» حتى جادة «مونمارتر». المتنزهون يسارعون الخطى، وينسحبون مفكرين الى بيوتهم. امرأة يُغمى عليها وتقع على الاسفلت. لا احد يقيلها: كل واحد يتطلع بفارغ الصبر إلى الابتعاد عن هذه الناحية. المصاريع تنغلق من جديد بعنف، والسكان يغطسون في الحفتهم. لكأن الطاعون الآسيوي قد اعلن عن حضوره. وهكذا، فيما يستعد القسم الأكبر من المدينة للعوم في مباهج الاعياد الليلية، يجد شارع «فيفيين» نفسه فجأة متجمداً في نوع من التحجير. لقد رأى حياته خامدة، كقلب كفّ عن الحب. لكن خبر الظاهرة سرعان ما ينتشر في بقية طبقات السكان، وصمت كئيب يحوم فوق العاصمة المهيبة. اين مضت، مصابيح الغاز؟ ماذا صار ببائعات الهوى؟ لا شيء... الوحدة والظلام! بومة صمعاء تمر فوق «المادلين» طائرة في اتجاه مستقيم، ومكسورة القائمة، وتحلّق نحو سد «الترون»، وهي تصرخ: «ثمة مصيبة تتهيأ». ففي هذا الموضع الذي جعلته ريشتي (ذلك الصديق الحقيقي الذي هو بمثابة شريك متواطىء معي) مكتنفاً بالاسرار، اذا نظرتم الى الجهة التي يلتحم فيها شارع «كولبير» مع شارع «فيفيين»، تشاهدون، عند الزاوية المتشكلة من تقاطع هاتين الطريقين، شخصاً يُظهر شبحه، ويوجّه مشيته الخفيفة نحو الجادات. لكن، إذا اقتربنا مزيداً، بنوع ان لا نستجلب إلينا انتباه هذا المار، فإننا نتبين، بدهشة لذيذة، انه شاب! لقد كنا، من بعيد، لنظنه رجلاً ناضجاً. ان مجموع الأيام لا حساب له بعد عندما يتعلق الامر بتقدير الكفاءة الفكرية لوجه رصين. اني خبير في قراءة العمر في خطوط الجبين الفِراسية: عمره ستة عشر سنة واربعة اشهر! انه جميل كإنقباضية مخالب الجوارح؛ او ايضاً، كتردد الحركات العضلية في جروح الاجزاء الرخوة من المنطقة العنقية الخلفية؛ او بالاحرى كفخ الفئران الدائم هذا، الذي يعيد الحيوان المأخوذ نصبه دائماً، والذي يستطيع وحده ان يأخذ القواضم إلى ما لا نهاية، وان يعمل حتى مُخَبّئاً تحت القش؛ وخاصة كاللقاء الطارىء على طاولة تشريح بين آلة خياطة ومظلة! مرفين، ابن الشقراء انجلترا هذا، قد اخذ لتوه عند استاذه درس مسايفة، وهو يعود، متدثراً في ترتره الاسكتلندي، الى قرب اهله. انها الثامنة والنصف، وهو يؤمل الوصول الى بيته في التاسعة: انه لإعتداد كبير، من جانبه، ان يزعم انه اكيد من معرفة المستقبل. ألا يستطيع عائق طارىء ان يعرقل دربه؟ وهذه الحالة

هل هي قليلة الحدوث لدرجة انه آل على نفسه ان يعتبرها كاستثناء؟ لماذا لا يعتبر بالأحرى، كأمر غير طبيعي، الامكانية التي توفرت له حتى الآن بأن يشعر بنفسه خالياً من القلق ونكاد نقول سعيداً؟ وبالفعل بأي حق يدّعي الوصول إلى مسكنه سالماً، في حين ان هناك من يترصده ويلاحقه من الخلف كفريسته المقبلة؟ (سيُظهر عن قلة معرفة بمهنته ككاتب إثارة، ذاك الذي، على الاقل، لا يضع في الامام الاستفهامات المقيِّدة التي تأتي من بعدها مباشرة الجملة التي انا على وشك انهائها). لقد تعرَّفتم الى البطل الخيالي، الذي، منذ امد بعيد، يحطم بضغط فرديته ذكائي الشقي! احياناً يدنو مالدورور من مرڤين، ليحفر في ذاكرته ملامح هذا المراهق؛ واحياناً، مُلقياً جسده إلى الخلف، يتقهقر على نفسه كمرتـدة اوستراليا، في المرحلة الثانية من مسارها، او بالاحرى، كآلة جهنمية. انه متردد حول ما يجب ان يفعله. لكن ضميره لا يشعر بأي عارض انفعالٍ مهما كان جنينياً، كما تفترضون خطأً. رأيته يبتعد لحظة في اتجاه معاكس؛ هل يُضنيه الندم؟ لكنه ينكص على عقبيه بضراوة جديدة. مرڤين لا يعرف لماذا تنبض شرايينه الصدغية بقوة، ويسارع الخطى، محُاصَراً بهلع عبثاً ما تبحثون انتم وهو عن سببه: يجب ان نسجِّل له دأبه على اكتشاف اللغز. لماذا لا يستدير إلى الوراء؟ انه عندئذ سيفهم كل شيء. هل نفكر قط بابسط الوسائل لإنهاء حالة مُقلقة؟ عندما يجتاز جوَّال على ابواب المدينة احد ارباض الضاحية، وفي حلقومه سلطانية من النبيذ الأبيض وبذلته سملة، فإنه، إذا لمح هراً عجوزاً عَضِلاً، معاصراً للثورات التي شهدها آباؤنا، تقدم بتعرجٍ في خط منحنٍ، متأملاً بكآبة اشعة القمر، التي تنصبّ فوق السهل النائم، وأشار إلى كلب أقفد، ما يكون منه إلاّ أن ينقض. الحيوان النبيل من السلالة السنورية ينتظر خصمه بشجاعة، ويدافع عن حياته بمعزة. غداً سيشتري ثمة لُمام خِرَق جلداً قابلاً للتكهرب. لماذا لم يهرب إذن؟ الأمر كان سهلاً للغاية. لكن في الحالة التي تشغل بالنا حالياً، مرڤين يعقِّد الخطر ايضاً بجهله الخاص. انه يملك تقريباً بعض اضواء صحيح انها نادرة جداً، لن اتوقف للبرهنة على الغموض الذي يكتنفها؛ مع ذلك، من المستحيل عليه ان يحزر الحقيقة. انه ليس نبياً، لا اقول العكس، ولا يجد في نفسه الموهبة لان يكونه. حين وصل الى الشارع الرئيسي، استدار إلى اليمين واجتاز جادة «بواسونيير» وجادة «بون- نوفيل». عند هذه النقطة من دربه، تقدم في شارع «فوبور- سان- دنيس»، خلَّف وراءه رصيف ركوب سكة حديد ستراسبورغ، وتوقف امام بوابة عالية، قبل ان يكون قد بلغ التنضيد العمودي

لشارع «لافاييت». بما انكم تنصحوني ان اختم عند هذا الموضع المقطع الأول، فإني اقبل عن طيب خاطر، هذه المرة، ان أذعن، لرغبتكم؟ اوَ تعلمون اني عندما افكر بخاتم الحديد الذي خبأته يد ممسوس تحت حجر، تسري رعشة لا تُقهر في شَعري؟

- ٤ -

انه يشد أكرة النحاس، وبوابة القصر الحديث تدور على مفاصلها. انه يذرع الساحة، المنثورة بالرمل الدقيق، ويجتاز سلالم درج المدخل الثماني. التمثالان القائمان عن يمين وشمال كحارسين للدارة الارستقراطية لا يسدّان في وجهه الطريق. ان ذاك الذي تنكرٌ لكل شيء، الأب، الأم، العناية الإلهية، الحب، المثال الأعلى، كي لا يفكر سوى بنفسه وحدها، حاذر ان يتبع الخطى التي سبقت. رآه يدخل إلى قاعة استقبال فسيحة في الطبقة السفلى، اخشاب تغطيتها من العقيق الأحمر. ابن العائلة ينطرح على اريكة، والانفعال يمنعه من الكلام. والدته، ذات الفستان الطويل والسابغ، تضطرب من حوله وتحيطه بذراعيها. اشقاؤه، الاصغر منه سناً، يتجمعون حول قطعة الاثاث، المثقلة بعبء؛ انهم لا يعرفون الحياة بدرجة كافية، ليكوّنوا فكرة واضحة عن المشهد الذي يجري. اخيراً، الوالد يرفع عصاه، ويُنزل على الحضور نظرة مليئة بالتسلط. انه يبتعد عن مقعده المألوف، متوكئاً بمعصمه على المساند، ويتقدم، بقلق، مع ان الاعوام قد اضعفته، نحو الجسد الجامد لابنه البكر. انه يتكلم بلغة اجنبية، والكل يصغون إليه باحترام خاشع: «من وضع الصبي في هذه الحالة؛ ان نهر «التاميز» المُضبّ سيجحف كمية جديرة بالذكر من الطمي قبل ان تكون قواي قد أُستنفدت كلية. ان القوانين الواقية لا يبدو انها موجودة في هذا البلد غير المضياف. لو اني كنت اعرف المذنب، لكان إختبر بأس ذراعي. مع اني اخذت تقاعدي، في غيبة المعارك البحرية، فإن سيفي كعميد بحري، المعلّق على الحائط، لم يصدأ بعد. زد على ذلك انه ليس من الصعب ان نشحذ حده. إطمئن، يا مرڤين؛ سأُصدر الأوامر الى خدمي، بأن يعثروا على اثر ذاك، الذي سأبحث عنه، من الآن فصاعـداً، لاجعله يهلك بيدي ذاتها. يا امرأة، إنسحبي من هنا، واذهبي قرفصي في زاوية؛ عيونكِ تحنني، وتحسنين صنعاً باغلاق مجرى غددك الدمّاعة. يا ابني، ارجوك، اوقظ حواسك، وتعرَّف إلى عائلتك؛ ان والدك هو الذي يكلمك. . . » الأم تقف على مبعدة، وكيما تطيع اوامر سيدها،

اخذت كتاباً بين يديها، وهي تجهد لان تبقى هادئة، في حضرة الخطر الذي يتعرض له ذاك الذي ولَّده رحمها. «. . . يا اولاد، اذهبوا العبوا في البستان، وحاذروا، وانتم تدهشون بسباحة البجعات، ان تسقطوا في حوض الماء الصغير. . .» الاشقاء، وايديهم متدلية، يظلون صامتين؛ كلهم يتماسكون باليد، بقلنسوتهم التي يعلوها ريشة منتزعة من جناح سُبد كارولينا، وبنطالهم المخملي الذي يصل الى الرُكب، وجواربهم الحريرية الحمراء، وينسحبون من قاعة الاستقبال، محاذرين ان يضغطوا على أرضية الغرفة الآبنوسية إلا برؤوس اصابعهم. انا اكيد انهم لن يتسلوا، وانهم سيتنزهون بوقار في ممرات الدُلب. ذكاؤهم مبكر النضج. هنيئاً لهم. «. . . جهود باطلة، اني اهدهدكِ بين ذراعيّ، وانتِ عديمة الاحساس حيال تضرعاتي. اتريدين ان ترفعي رأسكِ؟ سأقبِّل ركبتيكِ، اذا لزم الأمر. لكن لا . . . انها تسقط من جديد جامدة». -«يا سيدي الحلو، اذا سمحت لعبدتك، ساذهب اجلب من مقصورتي قارورة مملوءة بخلاصة صمغ البطم، استخدمها عادة عندما يجتاح الصداع اصداغي، إثر عودتي من المسرح، او عندما تلقي قراءة حكاية مؤثرة، مدوَّنة في الحوليات البريطانية حول تاريخ جدودنا الفروسي، فكري الحالم في مخثات الخدر الذهني». -«يا امرأة لم أعطكِ الكلام، ولم يكن من حقكِ ان تبدأيه. منذ اقتراننا الشرعي، لم تأتِ غيمة لتعترضنا. اني مسرور منكِ، ولم يكن لي قط ملامات اوجهها اليكِ: والعكس بالعكس. إذهبي اجلبي من مقصورتكِ قارورة مملوءة بخلاصة صمغ البطم. اعرف انه يوجد واحدة في ادراج صِوانك، ولن تأتي لتعلميني بذلك. اسرعي بعبور سلالم الدرج اللولبي وعودي لملاقاتي بوجه منشرح». لكن اللندنية الحساسة لا تكاد تصل إلى الدرجات الأولى (انها لا تركض بنفس سرعة شخص من الطبقات الدنيا) حتى تنزل احدى وصيفات تزيينها من جديد من الطابق الأعلى، محمَّرة الوجنات بالعرق، حاملة القارورة، التي تحتوي ربما على سائل الحياة بين جوانبها الداخلية البللورية. الوصيفة تنحني بلطافة وهي تقدم عرضها، والأم، تتقدم، بمشيتها الملكية، من الشراريب التي تحيط بالاريكة، التي هي الموضوع الوحيد الذي يشغل بال حنانها. عميد البحر، بحركة أبية، انما متسامحة، يقبل من يدي زوجته القارورة، التي يغمسون فيها وشاحاً هندياً، ويحيطون رأس مرفِين بتعرجات الحرير الكروية. انه يتنشق املاحاً، انه يحرك ذراعاً. الدورة الدموية تتنشط، واننا لنسمع الصيحات الفرحة لببغاء من الفليبين جاثمة على فتحة النافذة. «من يذهب هنا؟ . . . لا توقفوني ابداً. . .

اين انا؟ هل هو قبر يدعم اعضائي المثقلة؟ الواح خشبه تبدو لي عذبة... الرصيعة التي تحتوي على صورة امي، هل لا زالت معلّقة بعنقي؟... الى الوراء ايها الشرير الاشعث الشَعر. لم يتمكن من إصابتي، ولقد تركت بين اصابعه رقعة من صديريي. فكوا سلاسل كلاب البولدوغ، لان لصاً سهل المعرفة يمكن هذه الليلة ان يتسلل إلى بيتنا عن طريق الكسر، فيما نكون غاطسين في النوم. يا ابي ويا امي، اني اتعرَّف اليكما، واشكركما على عناياتكما. نادوا اخوتي الصغار. من اجلهم اشتريت ملبس اللوز، واريد ان اعانقهم». عند هذه الكلمات، يقع في حالة سباتية عميقة. الطبيب الذي تم استدعاؤه على جناح السرعة، يفرك يديه ويهتف: «النوبة مضت. كل شيء على ما يرام. غداً يستيقظ ابنكم معافى . اذهبوا، جميعاً، إلى مضاجعكم الخاصة، اني آمر بذلك، بغية ان ابقى وحدي الى جانب المريض، حتى ظهور الفجر وغناء العندليب!» مالدورور المختبىء خلف الباب، لم يضيِّع اي كلمة. انه يعرف الآن طبع سكان القصر، وسيتصرف حسب المقتضى. انه يعلم اين يقطن مرڤين، ولا يرغب في معرفة المزيد. لقد سجّل في مفكرة اسم الشارع ورقم العمارة. هذا هو المهم. وهو اكيد انه لن ينساهما. انه يتقدم، كضبع، دون ان يكون مرئياً، ويحاذي جوانب الساحة. انه يتسلق الحاجز برشاقة، ويتعرقل لحظة بسنان الحديد؛ بقفزة، ها هو على قارعة الطريق. انه يبتعد بخطى ذئب: «لقد كان يظنني شريراً، هذا ما يهتف به: اما هو، فإنه احمق. اريد ان اعثر على رجل منزَّه عن التهمة التي أُلصقها بي المريض. اني لم اقتلع له رقعة من صديرييه، كما قال. هذه مجرد هلوسة نعاسية سبّبها الهلع. نيتي اليوم لم تكن في الإستيلاء عليه؛ اذ لدي مشاريع لاحقة حول هذا المراهق الخجول». توجّهوا صوب الناحية حيث تقع بحيرة البجع؛ وسأقول لكم فيما بعد لماذا يوجد بجعة من بين الفريق سوداء كلية، ومن الحق ان يوحي جسدها، الذي يدعم سنداناً، فوقه جثة متفسخة لسلطعون اسود الملاقط، بالحذر لبقية رفاقها المائيين.

- ٥ -

مرڤين هو في غرفته؛ لقد تلقى رسالة. من إذن كتب اليه رسالة؟ اضطرابه منعه من شكر ساعي البريد. المغلَّف له حوافي سوداء، والكلمات مرسومة بخط متعجل. هل سيذهب ليحمل هذه الرسالة إلى والده؟ لنفرض ان موقِّعها يمنعه صراحة من ذلك. انه يفتح مليئاً بالقلق، نافذته ليتنشق روائح الجو؛ اشعة

الشمس تعكس تألقاتها الموشورية على مرايا البندقية وستائر الدمقس. انه يرمي الرسالة جانباً، بين الكتب ذات الحافة المذهّبة والالبومات ذات الغلاف الصدفي، المنثورة على الجلد المطرّق الذي يغطي سطح قمطره الطالبي. انه يفتح معزفاً، ويركّض اصابعه المُذلّقة على ملامس العاج. اوتار الشبّهان لا ترّجع اي صدى. ان هذا الانذار غير المباشر يحضّه على ان يتناول من جديد الورق القضيم: لكن هذا الأخير يتراجع كما لو انه أُهين من جراء تردد المرسَل اليه. ان فضول مرڤين يتضاعف، مأخوذاً في هذا الفخ، فيفتح قصاصة الورق المحضرة. لم يكن قد رأى حتى الآن سوى خطه الخاص. «ايها الشاب، اني اهتم بك، اريد ان اصنع سعادتك. سأتخذك رفيقاً، وسنقوم بسياحات طويلة إلى جزر اوقيانيا. مرڤين، انت تعلم اني احبك، ولست بحاجة لان ابرهن لك على ذلك. ستمنحني صداقتك، انا مقتنع بذلك. عندما ستعرفني مزيداً، لن تندم على الثقة التي ستمحضني اياها. ساصونك من الاخطار التي ستتعرض لها قلة خبرتك. ساكون لك أخاً، والنصائح الطيبة لن تنقصك. من اجل شروحات اطول، كن موجوداً، بعد غدٍ صباحاً، في الساعة الخامسة على جسر «الكاروسيل». اذا كنت لم اصل، انتظرني؛ لكني، اؤمل موافاتك في الساعة المضبوطة. انت، افعل مثلي. ان انجليزياً لن يتخلى بسهولة عن فرصة ان ينظر بوضوح في شؤونه. ايها الشاب، اني أُحييك، وإلى اللقاء قريباً. لا تُطلع احداً على هذه الرسالة».

-«ثلاثة نجوم بدل إمضاء، هتف مرڤين، ولطخة دم في اسفل الصفحة!» دموع غزيرة انسابت فوق الجُمل العجيبة التي التهمتها عيونه، والتي تفتح امام فكره المجال اللا محدود لآفاق غامضة وجديدة. يُخيل إليه (وهذا فقط منذ القراءة التي انجزها لتوه) ان والده صارم قليلاً وان والدته مهيبة جداً. انه يملك حججاً لم تصل إلى علمي، ولا استطيع، بالتالي، ان انقلها اليكم، ليلّمح الى ان اخوته لا يناسبونه هم ايضاً. انه يخبىء هذه الرسالة في عبّه. اساتذته لاحظوا انه لم يشبه نفسه ذلك اليوم؛ عيونه تجهمت بدون قياس، ونقاب التفكير المفرط أُسدل على منطقة ما حول المحجر. كل استاذ احمّر، مخافة ان لا يجد نفسه على مستوى تلميذه الفكري، ومع ذلك، فإن هذا الأخير لأول مرة اهمل فروضه ولم يشتغل. مساءً، اجتمعت العائلة في قاعة الطعام، المزدانة بالصور القديمة. مرڤين يعجب بالاطباق الطافحة باللحوم المغذية والفواكه العطرة، لكنه لا يأكل؛ السيلانات المتعددة الألوان لخمور الراين والياقوت الاحمر الفوّار للشمبانيا تنتظم في كؤوس من حجر بوهيميا ضيقة وطويلة، وتترك نظره حتى لا مبالياً. انه يسند مرفقه على

الطاولة، ويبقى مستغرقاً في افكاره كمروبص. عميد البحر، الذي جفَّف زبد البحر ولوَّن جلد وجهه، ينحني على اذن زوجته: «البكر تغير طبعه، منذ يوم النوبة؛ لم يكن قبلاً سوى كثير النزوع إلى الافكار اللامعقولة؛ واليوم ها هو يستغرق في الاحلام ايضاً اكثر من المعتاد. لكن الحاصل، لم اكن على هذه الحال، انا، عندما كنت في مثل سنه. تظاهري بانك لا تلاحظين شيئاً. هنا قد يجد علاج فعَّال، مادي او معنوي، استعماله بيسر. مرفْين، انت الذي تتذوق قراءة كتب السفر والتاريخ الطبيعي. ساقرأ لك قصة لن تكدّرك. انصتوا إليّ بانتباه، كل واحد سيجد في ذلك منفعته، انا، قبل الجميع. وانتم، يا اولاد، تعلّموا، بفضل الانتباه الذي ستعرفون كيف تعيرونه لعباراتي، على إتقان تصميم اسلوبكم، وعلى الوقوف على ابسط نوايا مؤلف». كما لو ان فريق الصِبية الفاتنين هذا كان بامكانه ان يفهم ما هي البلاغة! قال هذا، وباشارة من يده، توجَّه احد الاخوة، نحو المكتبة الابوية، ورجع وتحت ذراعه مجلَّد. في هذه الاثناء، يتم رفع غطاء المائدة والاواني الفضية، والوالد يتناول الكتاب. عند اسم اسفار المكهرب هذا، رفع مرفْين رأسه، وجهد لوضع حد لتأملاته التي هي في غير محلها. الكتاب مفتوح من وسطه، وصوت عميد البحر الرنان يبرهن انه بقي جديراً كما في ايام شبابه المجيد، ان يوجِّه اوامره إلى هيجان الرجال والعواصف. قبل نهاية القراءة بكثير، وقع مرفْين ثانية على مرفقه، متعذراً عليه ان يتابع اكثر من ذلك البسط العقلاني للجُمل المتسلسلة، وتصبين المجازات الإلزامية. الأب يهتف: «ليس هذا ما يثير اهتمامه؛ فلنقرأ شيئاً آخر. اقرأي، يا امرأة؛ ستكونين اوفر حظاً مني، في طرد حزن ايام ابننا». الأم لم تعد تحتفظ بأي امل؛ مع ذلك، تلقفت كتاباً، ورنة صوتها الندي الخاصة تترجع بشجو في آذان ثمرة حبلها. لكن اليأس يجتاحها، بعد بضع عبارات، فتوقف من تلقاء نفسها تأدية العمل الأدبي. المولود البكر يهتف: «سأذهب لأنام». انه ينسحب، خافض العينين بشخوص بارد، دون ان يضيف شيئاً. الكلب يروح يرسل عواءً مغمّاً، لانه لا يجد هذا السلوك طبيعياً، وريح الخارج، وهي تدلف بتفاوت من شق النافذة الطولي. ترجرج شعلة مصباح البرونز، المغلقة بقبتين من البللور الزهري. الأم تسند يديها على جبينها، والأب يرفع عيونه نحو السماء. الأولاد يلقون نظرات مذعورة على البحَّار العجوز. مرفْين يغلق باب غرفته بالمزلاج، ويده تركض بسرعة على الورق: «لقد استملت رسالتك ظهراً، وستعذرني اذا كنت قد جعلتك تنتظر الجواب. ليس لي شرف معرفتك شخصياً، ولم اكن ادري اذا

كان يجب علي ان اكتب اليك. لكن بما ان قلة التهذيب لا تسكن في بيتنا، قررت ان اتناول الريشة، واشكرك بحرارة على الاهتمام الذي تبديه نحو مجهول. معاذ الله ان لا أظهر لك عرفاناً بالجميل للود الذي تغدقه علي. اني اعرف نقائصي، فلا أتبدى اكثر اعتزازاً بها. لكن اذا كان لائقاً ان نقبل صداقة شخص مسنّ، فانه لائق ايضاً ان نُعلمه ان طبعينا ليسا متماثلين. بالفعل، انك تبدو اكبر سناً مني بما انك تدعوني بالشاب، ومع ذلك أحتفظ بشكوك حول عمرك الحقيقي. اذ، كيف التوفيق، بين برودة قياساتك والهوى الذي ينضح منها؟ انه لمما ريب فيه اني لن اهجر المكان الذي شهد ولادتي، لارافقك الى اصقاع نائية؛ الأمر الذي لن يكون ممكناً إلّا بشرط ان اطلب قبلاً من والديّ، إذناً انتظره بفارغ الصبر. لكنك امرتني ان اكتم السر (بالمعنى التكعيبي للكلمة) حول هذه القضية المظلمة روحياً، وساسارع إلى إطاعة حكمتك التي لا تقبل المنازعة. إن هذه القضية فيما يبدو لن تجابه بسرور وضوح الضوء. بما انه يبدو انك تتمنى ان يكون عندي ثقة في شخصك بالذات (رغبة ليست في غير موضعها، هذا ما يطيب لي الاعتراف به)، تفضّل، ارجوك، باظهار ثقة مماثلة حيالي، وبالتجرد من إدعاء الظن باني ساكون بعيداً عن رأيك لدرجة اني، لن أراعي الموعد بدقة، بعد غد صباحاً، في الساعة المحددة. ساجتاز حائط سياج البستان، لان الحاجز سيكون مغلقاً، ولن يكون احد شاهداً على رحيلي. وكي اتكلم بصراحة، ماذا عساني لا افعل من اجلك، انت الذي عرف تعلقك غير القابل للتفسير سريعاً كيف يتبدى امام عيوني المبهورة، المدهوشة خاصة بهذا البرهان على الطيبة، الذي تأكد لي اني لم اكن اتوقعه. بما اني لم اكن اعرفك. الآن اعرفك. لا تنسَ الوعد الذي قطعته لي بأن تتنزه على جسر «الكاروسيل». في حال مررت انا عليه، لديّ يقين، لا يضاهيه يقين آخر، بأن اقابلك وبأن امسّ يديك، شريطة ان لا يترتب على هذه البادرة البريئة الصادرة عن مراهق كان، بالإمس فقط، ينحني امام مذبح الحشمة، ان تهينك بألفتها المجلّة. إذ اليست الألفة مما يُعترف به في حال صداقة حميمة قوية وحارة، عندما يكون هلاك النفس جدياً ومقتنعاً؟ وأي ضير سيكون بعد كل شيء، هذا ما اسألك إياه انت نفسك، في ان اقول لك وداعاً وانا اعبر، عندما ستكون الساعة قد دقت الخامسة، بعد غد، سواء أأمطرت ام لا؟ ستقدّر انت نفسك، ايها السيد، الفطانة التي صِغت بها هذه الرسالة؛ اذ اني لا أجيز لنفسي في ورقة طيارة قمينة بأن تضيع، ان اقول لك مزيداً. إن عنوانك في اسفل الصفحة هو لغز رمزي. لقد لزمني ربع ساعة تقريباً كي احلّ رموزه.

اعتقد انك احسنت صنعاً بأن ترسم الكلمات بشكل مجهري. اني أُعفي نفسي من التوقيع وفي هذا أُقتدي بك: اننا نعيش في عصر شاذ للغاية، كيما نتعجب لحظة بما قد يحصل. ساكون فضولياً لاعرف كيف علمت بالموضع الذي يسكن فيه جمودي الجليدي، المحاط بصف طويل من القاعات المهجورة، مدافن عِظام دنسة لساعات ضجري. كيف اقول ذلك؟ عندما افكر فيك، يهتز صدري، داوياً كانهيار امبراطورية في حالة إنحلال؛ لان ظل حبك يُبرز ابتسامة لعلها ليست موجودة: انه غامض، ويحرّك حراشفه بشكل جد ملتو! بين يديك، اترك عواطفي الجامحة، طاولات رخام جديدة كلية، ولم يفضّ بكارتها بعد اي احتكاك قاتل. فلنصبر حتى اول ومضات الغسق الصباحي، وبانتظار اللحظة التي سترميني بين الإنشباك البشع لذراعيك المصابتين بالطاعون، انحني باتضاع امام ركبتيك، اللتين اعتصرهما». بعد ان كتب مرڤين هذه الرسالة المذنبة، حملها إلى البريد ورجع لينطرح في سريره. لا تعوّلوا العثور فيه على ملاكه الحارس. ذيل السمكة لن يطير إلا خلال ثلاثة ايام، هذا صحيح؛ ولكن، واسفاه! الجسر لن يكون لهذا السبب محترقاً اقل؛ ورصاصة اسطوانية- مخروطية ستخترق جلد وحيد القرن رغم ابنة الثلج والشحاذ! هذا لان المجنون المتوّج سيكون قد قال الحقيقة حول وفاء الخناجر الاربعة عشر.

- ٦ -

لقد تبيّنت انه ليس لي سوى عين وسط الجبين! إيه يا مرايا الفضة، المرصّعة في مأطورات الاروقة، كم من خدمات اسديتها لي بقدرتك العاكسة! اني، منذ اليوم الذي قضَمت لي قطة أنْقُرِية، خلال ساعة، حدبة العظم الجداري، كمِقوّرة تثقب الجمجمة، وهي تشبّ فجأة على ظهري، لاني جعلت صِغارها يغلون في دِنٍ مملوء بالكحول، لم اكفّ عن قذف نفسي بسهم الآلام، اليوم، تحت تأثير الجِراح التي تلّقاها جسدي في ظروف مختلفة، إما بفعل قدرية ولادتي، او بسبب خطأي الخاص؛ مُرهَقاً بعواقب سقوطي الخُلقي (بعضها قد تحقق؛ من سيتنبأ بالاخرى؟)؛ شاهداً عديم الاحساس على الفظاعات المكتسبَة او الطبيعية، التي تزيّن غشاءات العقل العضلية لذاك الذي يتكلم، أُلقي نظرة رضى طويلة على الازدواجية التي تكوّنني... واجدني جميلاً! جميلاً كرذيلة التشكل الوراثي لاعضاء الرجل الجنسية، المتمثل في القِصر النسبي لقناة مجرى البول وانقسام أوغياب جانبها الداخلي السفلي، بنوع ان هذه القناة تنفتح عن

مسافة متغيرة من الغدة وتحت القضيب؛ او ايضاً، كالرعثة اللحيمة، المخروطية الشكل، المثلومة بتجاعيد عرضانية على درجة مْن العمق، والتي تنتصب على قاعدة المنقار الاعلى للديك الرومي؛ او بالاحرى، كالحقيقة التالية: «إن نظام سلالم، ومقامات الالحان وترابطها الانسجامي لا يرتكز على قوانين طبيعية لا تتغير، بل، بالعكس، ينتج عن مبادىء جمالية تغيرت مع نمو الانسانية التدريجي، وستتغير ايضاً»؛ وخاصة كحرّاقة مدرّعة ذات مخابىء مصفّحة! نعم، اني أصرّ على دقة زعمي. ليس لدي وهم مغرور، اني اتباهى بذلك، ولن اجد اي فائدة في الكذب؛ إذن، ما قلته، لا يجب ان تضعوا اي تردد في تصديقه. اذ، لماذا عساني اوحي لنفسي بالنفور، حيال الشهادات التقريظية التي تنطلق من وجداني؟ اني لا احسد الخالق على شيء؛ لكن، فليدعني انحدر نهر مصيري، عبر سلسلة متنامية من الجرائم المجيدة. وإلا، فإني ساجعله يفهم، رافعاً حتى علو جبهته نظرة ساخطة على كل عائق، انه ليس وحده سيد الكون؛ وان عدة ظواهر تصدر مباشرة عن معرفة متعمقة اكثر حول طبيعة الأشياء، تشهد لصالح الرأي المضاد، وتعارض بتفنيد قطعي سلوكية وحدة القدرة. هذا لاننا اثنان نتأمل اهداب جفون بعضنا اترى. . . وانت تعرف ان بوق النصر قد دوى اكثر من مرة، في فمي المجرَّد من الشفاه. وداعاً، ايها المحارب الشهير؛ إن شجاعتك في البلوى توحي بالاحترام لأعند اعدائك؛ لكن مالدورور سيلتقيك ثانية عما قريب لينازعك الفريسة المسماة مرفْين. وهكذا، ستتحقق نبوءة الديك، عندما استشف المستقبل في جوف الشمعدان الكبير. نرجو السماء ان يلتحق السلطعون اسود الملاقط في الوقت المناسب بقافلة الحجاج، ويخبرهم ببضع كلمات حكاية لمام خِرَق كلينانكور!

- ٧ -

على مقعد في «الباليه رويال»، من جهة الشمال وليس بعيداً من حوض الماء الصغير، جاء شخص ليجلس، قادماً من شارع «ريفولي». شعره في حالة فوضى، وثيابه تفضح الفِعل الأكال لإملاق متمادٍ. لقد نقب حفرة في الأرض بقطعة خشب مروَّسة، وملأ باطن يده بالطين. لقد رفع هذا القوت إلى فمه وبصقه بسرعة عظيمة. لقد نهض ووَجَّه ساقيه إلى اعلى، مُلصقاً رأسه على المقعد. لكن، بما ان هذا الوضع البهلواني هو خارج قوانين الجاذبية التي تسوس مركز الثقل، فانه قد وقع ثانية بثقل على لوح الخشب، وذراعاه متدليتان،

وعُمرته تخفي له نصف وجهه، وساقاه تخبطان الحصباء في وضع توازن غير مستقر، وباعث على الاطمئنان اقل فاقل. انه يبقى طويلاً في هذا الوضع.
صوب المدخل الشمالي المتوسط، قرب الجناح الدائري المقبب الذي يحتوي على صالة قهوة، ذراع بطلنا متوكئة على الحاجز. بصره يجوب مساحة المستطيل بنوع ان لا يترك اي منظور يفلت منه. عيناه ترتدان على نفسهما بعد إنهاء التقصي، ويلمح وسط الحديقة، رجلاً يقوم بالرياضة البدنية المترنحة بواسطة مقعد يجهد لان يتوطّد عليه، وهو يقوم باعاجيب من القوة والمهارة. لكن ماذا تستطيع ان تفعله احسن نية، موضوعة في خدمة قضية عادلة، ضد تشوشات الخلل العقلي؟ لقد تقدم نحو المجنون، ساعده برفق على ان يردّ كرامته الى وضع طبيعي، مدّ له يده، وجلس إلى قربه. انه يلاحظ ان الجنون ليس إلا متقطعاً؛ النوبة توارت؛ محاوره يرد بمنطق على جميع الاسئلة. هل من الضروري ان ننقل معنى عباراته؟ لماذا نفتح من جديد، على صفحة ما، بتعجل تجديفي، الكتاب النصفي للعذابات البشرية؟ لا شيء هو ذو قيمة إرشادية اخصب. حتى لو لم يكن عندي اي حادث حقيقي ارويه لكم، فاني ساخترع قصصاً خيالية لأصفقها في دماغكم. لكن المريض لم يصبح كذلك للذته الخاصة؛ وصدق اقواله يتحالف على احسن ما يكون مع سرعة تصديق القارىء: «كان ابي نجاراً في شارع «الفيروري»... فليقع ذنب موت اللؤلؤيات الثلاث على رأسه وليقضم له الكناري إلى الأبد محور بصلته البصرية! لقد ادمن على السكر؛ في هذه اللحظات، عندما يكون قد دار على فروع الخمارات، فإن هيجانه كان يصبح بدون قياس تقريباً، وكان يضرب بدون تمييز الاشياء التي كانت تبرز امام نظره. لكنه لم يلبث، امام ملامات اصحابه، ان انصلح كلية، واصبح ذا مزاج صموت. لم يكن بمقدور احد ان يقرّبه، حتى ولا والدتي. كان يحتفظ بحقد دفين ضد فكرة الواجب التي كانت تمنعه من التصرف على هواه. كنت قد اشتريت عصفور ترنجي من اجل شقيقاتي الثلاث؛ اني، من اجل شقيقاتي الثلاث انما اشتريت عصفور ترنجي. كن قد احتجزنه في قفص، فوق الباب، وكان المارة يتوقفون، كل مرة، ليسمعوا تغريدات العصفور، ويعجبوا بلطافته الهروب ويدرسوا اشكاله الحاذقة. اكثر من مرة اصدر ابي الأمر باخفاء القفص ومحتواه، لانه كان يتصور ان عصفور الترنجي كان يهزأ من شخصه، وهو يرشقه بباقة الالحان الهوائية لموهبته كمصوِّت. راح ليقتلع القفص من المسمار، فانزلق عن الكرسي، وقد اعماه الغضب. خدش بسيط في الركبة كان غنيمة مشروعه. بعد

ان ظل بضع ثوان يضغط الجزء المتورّم بنُجارة، انزل سرواله، مقطب الحاجبين، اخذ احتياطات افضل، وضع القفص تحت ذراعه وتوجه نحو جوف مشغله. وهناك رغم صياحات وتضرعات عائلته (كنا نتمسك كثيراً بهذا العصفور، الذي كان، بالنسبة لنا، بمثابة جَنّي البيت) سحق بكعبي حذائه الحديديين علبة السوحر، فيما كان منجر، مدوّم حول رأسه، يُبقي الحاضرين على مسافة. لقد شاءت الصدفة ان لا يموت عصفور الترنجي للتو؛ إن كُبة الريش كانت لا تزال تعيش، رغم التلطيخ الدموي. النجار ابتعد، واغلق الباب ثانية بصخب. والدتي وانا جهدنا كي نصون حياة العصفور، المتهيأة للافلات؛ لقد بلغ نهايته، وحركة جناحيه لم تعد تبرز للنظر، إلا كمرآة لاختلاجة الاحتضار الاخيرة. في هذه الاثناء، اللؤلؤيات الثلاث، عندما ادركن ان كل امل سيضيع، اخذن يد بعضهن، باتفاق متبادل، والسلسلة الحية راحت تقرفص، بعد ان دفعت الى مسافة بضع خطوات برميلاً من الشحم، خلف الدرج، قرب وجار كلبتنا. امي لم تكن لتوقف مهمتها، وكانت تمسك عصفور الترنجي بين اصابعها، كي تدفئه بلهاثها. انا، كنت اركض طائش اللب في كل الغرف، مرتطمًا بالاثاث والادوات. من وقت إلى آخر، كانت إحدى شقيقاتي تبرز رأسها امام اسفل الدرج لتستعلم عن مصير العصفور الشقي، وتسحبها بأسى. الكلبة كانت قد خرجت من وجارها، وكما لو انها فهمت فداحة خسارتنا، راحت تلعق بلسان التعزية العقيمة ثوب اللؤلؤيات الثلاث. لم يكن امام عصفور الترنجي سوى بضع لحظات ليعيشها. احدى شقيقاتي، بدورها (كانت اصغرهن سناً) أبرزت رأسها في الغبش المتشكل من تخفيف النور. شاهدت والدتي تمتقع، والعصفور، بعد ان رفع عنقه، خلال برهة خاطفة، بآخر بادرة صادرة عن جهازه العصبي، يسقط بين اصابعها، جامداً إلى الأبد. ابلغت شقيقتيها بالنبأ. انهن لم يُسمعن حفيف اي شكوى، اي همهمة. كان الصمت يسود في المشغل. لم نكن نميّز سوى القرقعة المتقطعة لشظايا القفص، التي كانت تستعيد جزئياً، بفعل لدانة الخشب، الوضع الأصلي لبنائها. اللؤلؤيات الثلاث لم يتركن اي دمعة تنساب، ووجههن لم يفقد قط نضارته الارجوانية؛ كلا... كن يبقين فقط جامدات. جررن انفسهن الى داخل الوجار، وتمددن على القش، الواحدة الى جانب الأخرى؛ فيما كانت الكلبة، شاهدة سلبية على لعبتهن، تنظر اليهن بدهشة يتصرفن على هذا الشكل. عدة مرات، نادتهن والدتي؛ لم يرجِّعن صدى اي جواب. من الارجح انهن كن نائمات، وقد اتعبتهن الانفعالات السابقة! فتشت

في كل زوايا المنزل دون ان تلمحهن. تبعت الكلبة، التي كانت تسحبها من ثوبها، نحو الوجار. هذه المرأة انحنت ووضعت رأسها على المدخل. ان المنظر الذي أتيح لها إمكانية ان تكون شاهدة عليه، اذا وضعنا جانباً مبالغات الخوف الامومي غير الصحية، لا يمكن ان يكون إلا مؤسفاً، تبعاً للحسابات التي أجراها فكري. اضأت شمعة وقدمتها لها، بهذه الطريقة لم يفتها اي تفصيل. سحبت رأسها المغطى بالقذى، من القبر المبكر، وقالت لي: «لقد ماتت اللؤلؤيات الثلاث». بما انه لم يكن بمقدورنا ان نسحبهن من هذا الموضع، لانهن، إحفظ جيداً هذا الأمر، كن متخاصرات معاً، ذهبت لاجلب مطرقة من المشغل، لاحطم المقر الكلبي. انكببت، رأساً، على عمل الهدم، ولقد كان بوسع المارة، مهما كان خيالهم ضعيفاً، الاعتقاد ان العمل لا يعطل في بيتنا. والدتي، وقد نفد صبرها لهذه التأخيرات، التي كانت مع ذلك لا غنى عنها، كسرت اظافرها على الواح الخشب. اخيراً، انتهت عملية الانقاذ السلبية؛ الوجار المشقوق انفتح من كل الجهات؛ وسحبنا الردوم، الواحدة بعد الاخرى، بعد ان فصلناهن عن بعضهن بصعوبة، بنات النجار. امي هجرت البلد. ما عدت رأيت ابي. اما فيما يختص بي، فانهم يقولون اني مجنون، وانا التمس الرحمة الشعبية. ما اعرفه هو ان الكناري لم يعد يغرّد». المستمع يوافق في قرارة نفسه على هذا المثل الجديد المجلوب لدعم نظرياته المثيرة للقرف. كما لو انه يحق لنا، بسبب رجل، أدمن غابراً على الخمر، ان نتهم الانسانية جمعاء. هذا هو على الأقل التفكير المُفارق الذي يسعى الى إدخاله إلى ذهنه، لكن هذا التفكير لا يستطيع ان يطرد الدروس المهمة التي لقنته إياها التجربة الخطيرة. انه يعزّي المجنون بشفقة متكلفة، ويمسح دموعه بمحرمته الخاصة. انه يقوده الى مطعم، وها هما يأكلان الى نفس الطاولة. انهما يذهبان الى عند خياط على احدث طراز وها المحميّ انيق الملبس كامير. انهما يدقان على بوّاب عمارة كبيرة في شارع «سانت- هونوريه»، وها المجنون يقيم في شقة فخمة من الطابق الثالث. اللص يرغمه على قبول كيس نقوده، وحاملاً المبوّلة فوق السرير، يضعها على رأس آغون. «اني اتوّجك ملكاً على الذكاءات، هتف بتشدق متعمد؛ ساهرع لدى اصغر نداء منك؛ إغرف ملء يديك من خزائني؛ اني مُلكك جسداً وروحاً. في الليل، ستعيد تاج المرمر الى موضعه المعتاد، مع الاذن باستخدامه؛ لكن، في النهار، ما إن يشعشع الفجر، ضعه من جديد على جبينك، بمثابة رمز على قدرتك. اللؤلؤيات الثلاث سيحيين ثانية فيَّ، ناهيك عن اني سأكون أمك».

عندئذ تراجع المجنون بضع خطوات الى الوراء، كما لو انه كان فريسة كابوس مهين؛ خطوط السعادة ارتسمت على وجهه، الذي جعّدته الاحزان؛ وركع، مليئاً بالاتضاع، تحت اقدام حاميه. عرفان الجميل كان قد دخل، كسُمٍ، إلى قلب المجنون المتوّج! اراد ان يتكلم، فتوقف لسانه. حنى جسده إلى الأمام، وسقط من جديد على البلاط. الرجل البرونزي الشفاه ينسحب. ماذا كانت غايته؟ الحصول على صديق بأي ثمن، ساذج بما فيه الكفاية ليطيع اصغر اوامره. ما كان بوسعه ان يصادف من هو افضل من هذا فالصدفة كانت قد ساعدته. ان ذاك الذي عثر عليه مضجّعاً على المقعد، لا يعرف بعد، منذ حادثة وقعت في صباه، ان يميز بين الخير والشر. ان من يلزمه انما هو آغون بالذات.

- ٨ -

كان العلي- القدير قد ارسل إلى الأرض احد رؤساء ملائكته، كيما ينقذ المراهق من موت محتم. سيكون مرغمًا على النزول هو ذاته! لكننا لم نصل بعد الى هذا الجزء من حكايتنا، واراني مضطراً الى إغلاق فمي، لاني لا استطيع ان اقول كل شيء في آن واحد: كل خدعة مثيرة ستظهر في محلها عندما لا ترى حبكة القصة الخيالية مانعاً في ذلك. لكي لا يتم التعرف اليه، كان رئيس الملائكة قد اتخذ شكل سلطعون اسود الملاقط، كبير كفيكونة. كان ينتصب على رأس صخرة، وسط البحر، وينتظر لحظة المد والجزر المؤاتية، ليحقق نزوله على الشاطىء. الرجل اليَشبيّ الشفاه، المختبىء خلف احد انعطافات الشاطىء، كان يراقب الحيوان، وبيده عصا. من يودّ ان يقرأ في فكر هذين الكائنين؟ الأول لم يكن يخفي على نفسه ان لديه رسالة صعبة الإنجاز: «وكيف عساني انجح، هتف، فيما كانت الأمواج المتضخمة تلطم مأواه المؤقت، حيث شاهد معلمي إخفاق قوته وشجاعته اكثر من مرة؟ انا، لست سوى ماهية محدودة، في حين ان الشخص الآخر لا يعرف من اين جاء وما هو هدفه النهائي. لدى سماع اسمه، تهتز الجيوش السماوية؛ وأكثر من واحد يخُبر، في المناطق التي غادرتها، ان ابليس نفسه، ابليس تجسيد الشر، ليس مخيفاً بمقداره». الثاني كان يقوم بالتأملات التالية؛ لقد ترجّع صداها حتى القبة الزرقاء التي دنّستها: «هيئته توحي بانه مليء بقلة الخبرة؛ ساصفّي له حسابه بسرعة فائقة. انه يأتي بدون ريب من فوق، مرسَلاً من قِبَلِ ذاك الذي يخشى كثيراً ان يأتي بنفسه! سنرى، عند العمل، اذا كان متصلّفاً بقدر ما يبدو؛ انه ليس من سكان المشمشة

الأرضية؛ ان عيونه التائهة والحائرة تفضح اصله الملائكي». ان السلطعون اسود الملاقط، الذي كان، منذ بعض الوقت، يُجيل نظره على حيّز محصور من الساحل، لمح بطلنا (هذا الأخير، انتصب عندئذ بكل علو قامته الهرقلية)، وعنّفه بالعبارات التالية: «لا تحاول القتال، واستسلم. اني مرسَل من قِبَل شخص هو متفوق علينا نحن الاثنين، كي اكبّلك بالاصفاد، واضع العضوين الضالعين لفكرك في وارد استحالة الحركة. ان شدَّ السكاكين والخناجر بين اصابعك، هو امر يجب منذ الآن فصاعداً ان يكون محظراً عليك، صدقني؛ وهذا لصالحك بقدر ما هو لصالح الآخرين. سانالك، ميتاً او حياً؛ لدي اوامر باقتيادك حياً. لا ترغمني على اللجوء الى القدرة التي أُعيرت لي. ساتصرف بلطف؛ من جهتك لا تجابهني بأية مقاومة. بهذه الطريقة ساتعرف، بتلهف واستبشار، الى انك قمت بخطوة اولى نحو التوبة». عندما سمع بطلنا هذه الخطبة المملة، الموسومة بنكهه عميقة الهزل للغاية، تكلّف جهداً شاقاً كي يحتفظ بالرصانة على خشونة ملامحه الذاوية. لكن، الحاصل، لن يُدهش أحد اذا اضفت بأنه انتهى بأن انفجر بالضحك. كان هذا الأمر اقوى منه! لم يكن يضع فيه سوء نية! لم يكن يريد أن يجذب الى نفسه ملامات السلطعون أسود الملاقط! كم من جهود بذلها ليطرد الضحك! كم من مرة ضغط شفاهه الواحدة على الأخرى، كي لا يظهر على هيئته انه يهين محاوره المنذهل! ان طبعه للاسف كان من نوع طبيعة الانسانية، وكان يضحك كما تفعل الخِراف! اخيراً توقف! كان قد حان الوقت! لقد اوشك ان يختنق! الريح حملت هذا الجواب الى رئيس ملائكة صخرة البحر: «عندما لا يعود سيدك يرسل لي الحلازين والسراطين لتسوية قضاياه، ويتنازل ان يتفاوض معي شخصياً، سنعثر، انا اكيد من ذلك، على وسيلة لتدبير امورنا، بما اني ادنى مرتبة من ذاك الذي ارسلك، كما قلته انت بكل هذا السداد. الى هنا، تبدو لي افكار المصالحة سابقة لاوانها، وقمينة فقط بتوليد نتيجة وهمية. اني بعيد جداً عن تجاهل الحصافة التي يحتوي عليها كل من مقاطعك اللفظية؛ وبما اننا قد نُتعب دون طائل صوتنا، كيما نجعله يجتاز مسافة ثلاثة كيلومترات، يتهيأ لي انك ستتصرف بحكمة، إذا نزلت من حصنك المنيع، وبلغت اليابسة سباحةً: سنناقش بسعة اكبر شروط الاستسلام، الذي هو بالنسبة لي، في نهاية المطاف، مهما كان مشروعاً، إحتمال بغيض». رئيس الملائكة، الذي لم يكن يتوقع حسن النية هذه، اخرج رأسه درجة من اعماق الصدع، واجاب: «ايه يا مالدورور، هل

حلَّ اخيراً النهار الذي ستشهد فيه غرائزك الكريهة إنطفاء مشعل الغرور المتعذر تبريره الذي يقودها الى اللعنة الابدية! سيكون انا إذن، اول من يُخبر بهذا التبدل المحمود كتائب الملائكة، السعيدين باستعادة واحد منهم. انك تعلم انت ذاتك ولم تنسَ انه كان هناك ثمة عهد كان لك فيه المكانة الأولى بيننا. كان اسمك يطير من فم إلى فم؛ انت حالياً موضوع احاديثنا المتوحدة. تعال اذن. . . تعالَ اعقد سلمًا دائمًا مع سيدك القديم؛ سيستقبلك كابن ضال، ولن يلاحظ كمية الذنب الضخمة التي راكمتها على قلبك، كجبل من قرون العلند يرفعه الهنود». انه يقول هذا، ويسحب كل اجزاء جسده من جوف الفتحة المظلمة. انه يتبدى متألقاً، على سطح صخرة البحر، ككاهن اديان حينما يكون عنده اليقين باسترداد نعجة ضالة. انه يذهب ليقوم بوثبة فوق الماء، ليتوجه سباحة نحو المصفوح عنه. لكن الرجل اللازوردي الشفاه طالما دبّر سلفاً ضربة غادرة. عصاه مقذوفة بقوة، تذهب، بعد ان تمس سطح الامواج عدة مرات، لتضرب رئيس الملائكة المحسن في رأسه. السلطعون، المصاب اصابة قاتلة، يسقط في الماء. المد والجزر يحمل إلى الشاطىء الحطام العائم. كان ينتظر المد والجز ليحقق انحداره بسهولة اكبر. حسناً لقد جاء المد والجزر؛ لقد أرجحه باغانيه، واودعه برخاوة على الشاطىء: اليس السلطعون سعيداً؟ ماذا يريد اكثر من ذلك؟ ومالدورور المنحني على رمل السواحل الرملية، يستقبل في ذراعيه صديقين، جمعت بينهما مصادفات النصل بما لا انفصال بعده. جثة السلطعون اسود الملاقط والعصا المجرمة! «اني لم افقد بعد مهارتي، هتف؛ انها لا تطلب سوى ان تتمرس؛ ذراعي تحتفظ بقوتها. وعيني بإحكامها». انه ينظر إلى الحيوان الذي لا حراك فيه. انه يخشى ان يطالبوه حساباً عن الدم المهراق. اين عساه يخفي رئيس الملائكة؟ وهو يتساءل، بذات الوقت، إن لم يكن الموت فورياً. لقد وضع على ظهره سنداناً وجثة؛ انه يتقدم نحو حوض ماءٍ واسع، جميع ضفافه مغطاة وكما لو كانت مسوَّرة بركام معقد من الاسلاك الكبيرة. كان يريد في البدء ان يأخذ مطرقة، لكنها اداة خفيفة جداً، اما بواسطة اداة اثقل، فإنه سيضع على الأرض الجثة، اذا ما ندّ عنها اي علامة حياة، ويحيلها إلى غبار بضربات السندان. ليست القوة هي ما يعوز ذراعه، روحوا؛ هذه ابسط إرتباكاته. عندما وصل امام البحيرة، رآها مأهولة بالبجع. قال في نفسه إن هذه خلوة مضمونة بالنسبة له؛ انه يختلط بسرب العصافير الأخرى، بفضل انمساخه دون ان يتخلى عن حمله. لاحظوا يد العناية الإلهية حيث يسوِّل لنا ان نجدها غائبة، واستفيدوا من المعجزة التي ساحدثكم عنها.

اسود كجناح غراب سبح ثلاث مرات وسط جماعة كفيّات القدم، الناصعات البياض؛ ثلاث مرات، حافظ على هذا اللون المميز الذي يماثله بكتلة من الفحم. هذا لأن الله، في عدالته، لم يسمح قط ان تتمكن حيلته من خداع حتى سرب من البجع. بنوع انه بقي علانية داخل البحيرة؛ لكن كل واحد مكث على مبعدة، ولا عصفور اقترب من ريشه الشائن، ليرافقه. وعندئذ، حصر غطساته في جون ناءٍ، على طرف حوض الماء، وحيداً وسط سكان الهواء، كما كان بين البشر! وهكذا كان يمهد لحادث ساحة «الفاندوم» الذي لا يُصدق.

- ٩ -

القرصان الذهبي الشَعر، تلقّى جواب مرڤين. انه يلاحق في هذه الصفحة الغريبة أثرَ الاضطرابات الفكرية لذاك الذي كتبها، متروكاً لقوى ايحائه الخاص الضعيفة. هذا الأخير كان الأفضل له كثيراً، ان يشاور اهله، قبل ان يرد على صداقة المجهول. انه لن يجني اي كسب من الاختلاط، كممثل رئيسي، في هذه الحبكة الملتبسة. لكن، في النهاية، هو اراد ذلك، في الساعة المحددة، مرڤين، من باب منزله، ذهب رأساً إلى الامام، وهو يتبع جادة «سيباستبول»، حتى حاووز «سانـ ميشـال». انه يسلك رصيف «غـرانـ اوغوستان» ويجتاز رصيف «كونتي»؛ لحظة مروره على رصيف «مالاكيه»، شاهد على رصيف «اللوفر» شخصاً يمشي بشكل متوازٍ مع اتجاهه الخاص، حاملاً كيساً تحت ذراعه، ويبدو انه يتفحصه بانتباه. ابخرة الصباح قد تبدّدت. المارات ينطلقان بنفس الوقت من كلتا جهتي جسر «الكاروسيل». انهما يتعرّفان الواحد على الآخر، مع انه لم يسبق ان رأيا بعضهما قط! حقاً، لقد كان مؤثراً ان ترى هذين الكائنين، اللذين يفصل بينهما العمر يقاربان روحيهما بفضل عظمة المشاعر. هكذا على الأقل كان ليكون رأي أولئك الذين قد يتوقفون امام هذا المشهد، الذي سيجده اكثر من واحد فيهم، حتى بروح الدقة الرياضية، مؤثراً. مَرڤين كان يفكر، ووجهه مخضل بالدموع، انه يقابل على مدخل الحياة كما يقولون، عضداً ثميناً في الشدائد المقبلة. كونوا على يقين ان الآخر لم يكن يقول شيئاً. اليكم ما فعله: نشر الكيس الذي كان يحمله، فكّ الفتحة، وممسكاً بالمراهق من رأسه، جعله يمر بكامل جسده في مغلّف الكتّان. عقد، بمحرمته، الطرف الذي كان يُستخدم كمدخل. وبما ان مرڤين كان يطلق صراخات حادة، رفع الكيس كصرة من البياضات، وضرب به عدة مرات، حاجز الجسر. عندئذ

سكت المعذب، وقد تبيَّن طقطقة عظامه. مشهد فريد من نوعه، لن يهتدي اليه اي روائي! جزّار كان يمر، جالساً على لحم طنبره. شخص هرول نحوه، دعاه الى الوقوف، وقال له: «هوذا كلب، محبوس في هذا الكيس؛ انه مصاب بالجَرَب: إذبحه باسرع ما يمكن». المُطالَب يتبدى مراعياً. المُقاطِع، وهو يبتعد يلمح فتاة في الاسمال تمد له يدها. إلى اين يصل اذن طِفاح الوقاحة والزندقة؟ انه يتصدق عليها! قل لي إذا كنت تريد ان أقدّمك، بعد بضع ساعات، إلى باب مسلخ منزوٍ. الجزّار عاد، وقال لرفاقه، وهو يطرح حِملاً على الأرض: «فلنسرع في قتل هذا الكلب الأجرب». انهم اربعة، وكل واحد يمسك بالمطرقة المعهودة. ومع ذلك، كانوا يترددون، لأن الكيس كان يتحرك بقوة. «اي انفعال يستولي عليَّ؟» صرخ احدهم وهو يخفض ذراعه ببطء. «إن هذا الكلب يرسل، كطفل، تأوهات ألم، قال آخر؛ لكأنه يفهم المصير الذي ينتظره». «هذه عادتهم، اجاب ثالث؛ حتى عندما لا يكونون مرضى، كما هي الحال هنا، يكفي ان يبقى سيدهم بضعة ايام غائباً عن البيت، حتى يروحوا يُسمعون عواءات هي، في الحقيقة، شاقة الاحتمال». «توقفوا!... توقفوا!... صرخ الرابع، قبل ان تكون جميع الاذرع قد ارتفعت بطريقة منتظمة لتضرب بعزم، هذه المرة، فوق الكيس. توقفوا، اقول لكم؛ يوجد هنا ثمة واقعة تفلت منا. من يقول لكم ان نسيج الكتان هذا يحتوي على كلب؟ اريد ان اتأكد من ذلك». عندئذ، رغم استهزاءات رفاقه، فكّ عقدة الصرة، وسحب منها الواحد بعد الآخر اعضاء مرفين! كان تقريباً مختنقاً من ضيق هذا الوضع. أُغمي عليه عندما رأى النور ثانية. بعد بضع لحظات، اعطى دلائل لا ريب فيها على الحياة. المنقذ قال: «تعلّموا، مرة اخرى، ان تضعوا حصافة حتى في مهنتكم. لقد كدتم تلاحظون، بانفسكم، ان الاعتياد على مخالفة هذا القانون، لا يجدي نفعاً». الجزّارون هربوا. مرفين، بقلب منقبض ومملوء بالهواجس المشؤومة، يرجع الى بيته وينحبس في غرفته. هل انا بحاجة إلى التشديد على هذا المقطع؟ ومن عساه لا يرثي لاحداثه الناجزة! فلننتظر حتى النهاية لنُصدر حكماً اكثر صرامة ايضاً. الخاتمة ستسرع؛ وفي هذه الانواع من القصص، التي ما ان يُعطى فيها هوى من اي نوع كان، حتى لا يعود يخشى اي عائق ليشق له معبراً، لا مجال لأن نذيب الصمغ الراتنجي لاربعمئة صفحة مبتذلة في وعاء. ما يمكن قوله في نصف دزينة من المقاطع، يجب ان نقوله، ثم نصمت.

لا يكفي، كي تبني آلياً نخاع قصة منوِّمة، ان تشرَّح حماقات وتبلّه بقوة في جرعات متجددة ذكاء القارىء، بنوع ان تجعل مَلَكاته مشلولة لبقية حياته، بموجب القانون المعصوم للتعب؛ يجب، بالاضافة إلى ذلك، ان تضعه بمهارة، بواسطة سائل مغناطيسي جيد، في وارد استحالة التحرك الرابوصية، بأن ترغمه على إعتام عينيه ضد فطرته بشخوص عينيك. اريد ان اقول، كي لا اجعل نفسي مفهوماً اكثر، بل فقط كي ابسط فكرتي التي تثير الاهتمام وتزعج بذات الوقت بفعل انسجام من اعمق ما يكون، اني لا اعتقد من الضروري، لبلوغ الهدف الذي نصبّناه لانفسنا، ان نخترع شِعراً خارجاً تماماً على المسيرة العادية للطبيعة، ويبدو على إلهامه الضار انه يقلب حتى الحقائق المطلقة؛ بل ان نقود إلى نتيجة مماثلة (مطابقة، بزيادة، لقوانين الجمالية، إذا فكرنا جيداً في ذلك)، هذا ليس سهلاً بمقدار ما نظن: هذا ما اردت ان اقوله. لهذا السبب سابذل كل جهودي لاتوصل إلى هذه الغاية! إذا اوقف الموت الهزال الخارق لذراعيَّ اكتافي الطويلتين، المستخدمتين للسحق المفجع لجصي الادبي، اريد على الأقل ان يتمكن القارىء المتشح بالحداد ان يقول لنفسه: «يجب إنصافه. لقد افسد عقلي كثيراً. ماذا كان فعل، لو انه تمكن من العيش مزيداً! انه افضل استاذ اعرفه في التنويم المغناطيسي!» سيحفرون بضع الكلمات المؤثرة هذه على رخام قبري، وارواح موتاي ستكون راضية!ـ اني أكمل! كان هناك ثمة ذيل سمكة يتحرك في جوف ثقب، إلى جانب جزمة متهرئة. لم يكن طبيعياً ان نتساءل: «اين السمكة؟ اني لا ارى سوى الذيل الذي يتحرك». اذ، بما اننا، بالضبط، كنا نعترف ضمنياً بأننا لا نلمح السمكة، فهذا بالحقيقة لانها لم تكن موجودة. كان المطر قد ترك بضع قطرات ماء في جوف هذا القمع، المحفور في الرمل. اما بالنسبة للجزمة المتهرئة، فإن البعض يظنون منذ ذلك الحين انها ناتجة عن ثمة تخلٍ طوعي. السلطعون اسود الملاقط، بفضل القدرة الإلهية، كان مُقيَّضاً له ان يولد ثانية من هذه الذرات العازمة. سحب من البئر ذيل السمكة ووعده بأن يعلّقه ثانية بجسده الضائع، إذا انبأ الخالق بعجز مندوبه عن السيطرة على الامواج الهائجة للبحر المالدوروري. لقد أعاره جناحي قطرس، وذيل السمكة حلّق. لكنه طار نحو مقر المارق، ليخبره بما كان يجري ويخون السلطعون اسود الملاقط. هذا الأخير حزر مشروع الجاسوس، وقبل ان يبلغ النهار الثالث خاتمته، خرق ذيل السمكة بسهم مسمَّم: حنجرة الجاسوس اطلقت هتافاً ضعيفاً، لفظ النَفَس الأخير قبل ان يمس الأرض. عندئذ، انتصبت عارضة دهرية، مركّزة على

تخشيبة سقف قصر، بكل علوها، وهي تتواثب على نفسها، وطالبت بالثأر في ثلاث صيحات. لكن العلي- القدير، المتحوِّل الى وحيد قرن، أفهمها ان هذه الميتة كانت مستحَقة. العارضة هدأ روعها، ذهبت لتأخذ مكانها في جوف القصر الريفي الصغير، استعادت وضعها الأفقي، واستدعت العناكب الجافلة، كيما تواصل كما في الماضي نسج خيوطها في زواياها. الرجل الكبريتيّ الشفاه علم بضعف حليفته؛ لهذا السبب أمر المجنون المتوَّج بأن يحرق العارضة ويحيلها إلى رماد. آغون نفذ هذا الأمر الصارم. «بما ان اللحظة، بحسب رأيك، قد حانت، هتف، فاني استرددت الخاتم الذي كنت قد دفنته تحت حجر، وربطته بأحد طرفي المرسة. هاك الصرة». وقدم حبلة سميكة، ملفوفة على نفسها، طولها ستون متراً. سيده سأله ماذا كانت تفعل الخناجر الأربعة عشر. فاجاب انها كانت تبقى وفية وتقف مستعدة لكل طارىء، اذا اقتضى الأمر. المحكوم بالاشغال الشاقة حنى رأسه علامة الرضى. أبدى دهشاً، وحتى قلقاً، عندما اضاف آغون انه شاهد ديكاً يشق بمنقاره شمعداناً كبيراً إلى اثنين، ويحدق تباعاً في كلٍ من الجزءين، ويصرخ، وهو يصفق جناحيه في حركة مسعورة: «إن شارع «البيه» ليس بعيداً جداً عن شارع «البانتيون» قدر ما تظنون. قريباً سترون البرهان المؤسف على ذلك!» السلطعون اسود الملاقط، الراكب على حصان جموح، اسرع نحو إتجاه صخرة البحر، الشاهدة على إنقذاف العصا من الذراع الموشومة، والمأوى لأول يوم لنزوله الى الأرض. قافلة من الحجاج كانت تسير لتزور هذا الموضع، الذي كرَّسته من الآن فصاعداً ميتة مهيبة. كان يؤمل الوصول اليهم، ليطلب منهم إسعافات مستعجلة ضد المكيدة التي كانت تتحضر، والتي كان على علم بها. سترون ابعد من ذلك ببضعة اسطر، بفضل صمتي الجليدي، أنه لم يصل على الوقت، ليخبرهم بما نقله اليه لُمام خِرَق، مختبىء خلف المقصلة المجاورة لبيت في طور البناء، يوم كان جسر «الكاروسيل» الموسوم بعد بندى الليل الرطب، يلمح بهلع افق فكره يتسع بغموض في دوائر متراكزة، لدى الظهور الصباحي فوق حاجزه الكلسي لتدليكة كيس ذي عشرين وجهاً الايقاعية! قبل ان يثير شفقتهم، بذكرى هذه الحادثة، فانهم سيحسنون صنعاً بتدمير بذرة الأمل فيهم... لتحطيم كسلكم، استعملوا موارد نية حسنة، سيروا إلى جانبي ولا يغيبن عن بصركم هذا المجنون، الذي تعلو رأسه مبولة، والذي يدفع امامه، بيد مسلحة بعصا، ذاك الذي ستلاقون مشقة في التعرف اليه، إن لم اكلف نفسي عناء ان أعلمكم، وان استدعي إلى أذنكم الكلمة التي

تُلفظ «مرفين» شد ما تبدَّل! انه يسير إلى الأمام، واليدان موثقتان خلف ظهره، كما لو انه ذاهب إلى المشنقة، ومع ذلك، ليس مذنباً في أي جرم. لقد وصلوا الى النطاق الدائري لساحة «الفاندوم». على خرجة العمود الضخم، قذف رجل، متوكئاً على الدرابزين المربَّع، على علو اكثر من خمسين متراً من اديم الثرى، مرسة ومدّها، فسقطت على الأرض، على بُعد بضع خطوات من آغون. بفضل العادة، نتوصل إلى إنجاز شيء بسرعة؛ لكني استطيع القول ان هذا الأخير لم يستعمل وقتاً طويلاً لربط رجلي مرفين بطرف الحبلة. وحيد القرن كان قد علم بما سيحدث. لقد ظهر، مبللاً بالعرق، لاهثاً، على زاوية شارع «كاستغليوني». انه لم يحصل حتى على رضى مباشرة القتال. الشخص الذي كان يتفحص الجوار من اعلى العمود، صلى مسدسه، صوَّب باعتناء وضغط على الزناد. عميد البحر الذي كان يتسوَّل في الشوارع منذ اليوم الذي بدأ فيه ما ظنه جنون ابنه والام التي اطلقوا عليها اسم «فتاة الثلج»، بسبب شحوبها البالغ، حملا صدرهما الى الامام لحماية وحيد القرن. تدبير عديم الجدوى. الرصاصة ثقبت جلده كمخرز؛ كان بوسعنا ان نعتقد، مع احتمالٍ من المنطق ان الموت يجب ان يظهر بلا ريب. لكننا نعلم ان ماهية المولى، قد اندست في هذا الجلد الصفيق. انسحب بأسى. لو لم يثبت جيداً انه كان طيباً للغاية مع احد مخلوقاته، لكنت رثيت لرجل العمود! هذا الأخير يشد اليه بضربة زند جافة الحبلة، التي تكتسب هكذا تصبيراً. اما وقد اصبحت موضوعة خارج الخط العمودي، فإن اهتزازاتها تؤرجح مرفين، الذي تنظر رأسه إلى اسفل. انه يلتقط بحيوية بيديه، إكليلاً طويلاً من الزهرات الخالدات، يجمع زاويتين متعاقبتين للقاعدة، التي يصدم عليها جبينه. انه يخطف معه الى الاجواء، ما لم يكن نقطة ثابتة. بعد ان كدّس عند اقدامه، على شكل قطعات اهليلجية متراكبة قسماً كبيراً من المرسة، بنوع ان يظل مرفين معلّقاً على منتصف علو مسلّة البرونز، فإن المحكوم بالاشغال الشاقة الهارب، يجعل، بيده اليمنى، المراهق، يتخذ حركة متسارعة لدوران منتظم، في خط موازٍ لمحور العمود، ويلتقط، باليد اليسرى، الطيات الحلزونية للحبال، التي تثوي عند اقدامه. المقلاع يصفر في الفضاء؛ جسد مرفين يتبعه حيث كان، مبتعداً دائماً عن المركز بفعل القوة النابذة، محتفظاً دائماً بوضعه المتحرك والمتساوي البعد، في دائرة هوائية، مستقلة عن المادة. المتوحش المتمدن يفلت شيئاً فشيئاً، حتى الطرف الآخر، الذي يمسكه بمشط يد صلب، ما يشبه خطأً قضيباً من الفولاذ. انه يروح يركض حول الدرابزين، متمسكاً بالمزلقة بيد. ان الهدف من

هذه الحركة هو تغيير الخط الأصلي لدوران المرسة، ومضاعفة قوة توترها، الهائلة جداً منذ الآن. انه يدور، من الآن فصاعداً، بجلال في خط افقي، بعد ان مر بالتعاقب، في مسيرة لا محسوسة، عبر عدة خطوط مائلة. الزاوية القائمة المتشكلة من العمود والحبل النباتي اضلاعها متساوية! ذراع المارق والاداة القاتلة مختلطتان في الوحدة الخطية، كعناصر ذروية لشعاع نور يتسرب إلى غرفة التحميض. إن نظريات الأوالة تسمح لي ان اتكلم هكذا؛ للأسف! نحن نعرف ان قوة، مضافة الى قوة اخرى، تولّد محصلة مكوَّنة من القوتين الاصليتين! من سيجرؤ على الإدعاء بأن الحبال الخطية ما كانت لتكون الآن مقطوعة، لولا قوة المصارع، لولا جودة القنب؟ ان القرصان الذهبي الشَعر يوقف، فجأة وبنفس الوقت، سرعته المكتسبة، يفتح يده ويفلت المرسة. إن ارتداد صدمة هذه العملية، المضادة جداً للعمليات السابقة، يجعل الدرابزين يطقطق في فواصله. مرڤين، المتبوع بالحبلة، يشبه نجمًا مذنّباً يجر وراءه ذنبه الملتهب. الخاتم الحديدي للانشوطة المتحركة، يغرينا، وهو يلتمع في اشعة الشمس، بأن نكمل بانفسنا الوهم. في مجرى قطعه المكافىء، المحكوم بالاعدام يشق الجو حتى الضفة الشمالية، يتجاوزها بفعل قوة الدفع التي أُفترضها انا لا نهائية، وجسده يذهب ليضرب قبة «البانتيون»، فيما توثق الحبلة، جزئياً، بطياتها، الجدار الأعلى للقبة الضخمة. على سطحها الكروي والمحدب، الذي لا يشبه البرتقالة إلا من حيث الشكل، نرى، في كل ساعة من النهار، هيكلاً عظمياً متجففاً، بقي معلّقاً. عندما تؤرجحه الريح، يحكون ان طلاب الحي اللاتيني، مخافة مصير مماثل، يقومون بصلاة قصيرة: هذا اشاعات لا معنى لها لسنا ملزمين بتصديقها، وصالحة فقط لإخافة الأولاد الصغار. انه يمسك بين يديه المتقلّصتين، ما يشبه ان يكون شريطة كبيرة من الورود الصفراء القديمة. يجب ان نأخذ المسافة بعين الاعتبار، ولا احد يستطيع ان يؤكد، رغم شهادة حدة بصره، ان تكون هذه هي حقاً الزهرات الخالدات التي حدثتكم عنها، والتي رآها صراع غير متكافىء، نشب قرب الأوبرا الجديدة، تنفصل عن قاعدة تمثال ضخمة. وما لا يقل صحة عن ذلك هو ان الاغطية الفضفاضة الهلالية الشكل لم تعد تتلقى هناك التعبير عن تناسقها النهائي في الرقم الرباعي: اذهبوا إلى هناك وانظروا بأنفسكم، إذا كنتم لا تريدون ان تصدقوني.

(نهاية النشيد السادس والأخير)

فهرس

النشيد الثالث:

النشيد الرابع:

النشيد الخامس:

النشيد السادس:

أناشيد مالدورور

ولد «لوتريامون» ـ صاحب أناشيد مالدورور ـ عام ١٨٤٦ ومات عام ١٨٧٠ ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، مخلفاً وراءه تراثاً أدبياً ما زال الشغل الشاغل للكثيرين من النقاد والأدباء حتى يومنا هذا.

كان لوتريامون ـ واسمه الحقيقي ايزودور دوكاس ـ مخلوقاً غريب الأطوار غريب التكوين، فقد كان طويلاً نحيلاً محدودباً، أشعث الشعر، أجش الصوت، ناتىء الصدغين، في لسانه حبسة وتلفّه كآبة ظاهرة.

وكان دائم الصداع مؤرَّقاً لا يعرف النوم وإذا ما أغفى فعلى كوابيس رهيبة أين من رهبتها الأرق المُمِضّ. لقد ذكر حالته تلك في أناشيده فوصف ضعفه الجسدي والنفسي وحرمانه تذوق مباهج الحياة وقطف ثمار الحب والهوى والشباب، ونعمة النوم والرقاد.. «سعيد من يغرق في سبات عميق ساعة يضع رأسه على مخدته، ها إني منذ يوم ولادتي المشؤوم أعاني من الأرق الذي نذر أن يجرف دائماً أعضائي إلى أعماق الحفرة التي تنبعث منها منذ الآن رائحة المقابر» فأي عبقري كان «لوتريامون»؟ اقرأ أناشيده يأتك الجواب.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩
برقياً موكيالي بيروت ـ ص.ب ٥٤٦٠ ١١ بيروت

الثمن